مؤلفات الأستاذ الدكتور
تمّام حسّان



اجْتِهَادَاتٌ لُغَوِيَّة

عالم الكتب

اجتهادات لُغوية

حسان ، تمام .

إجتهادات لغوية / تأليف تمام حســان . - ط1. – القاهرة : عالم الكتب ، 2007

400 ص ، 24 سم

تدمك : 7– 583–232–977

1- اللغة العربية - النحو

أ- العنوان 415.1

عالم الكتب

نشر • توزيع • طباعة

❖ الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 3924626
فاكس : 002023939027

❖ المكتبة :
38 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : 3926401 - 3959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518

❖ الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

❖ رقم الإيداع 16284 / 2007

❖ الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 232 – 583 -7

• الموقع على الانترنت WWW.alamalkotob.com

• البريد الالكترونى info@alamalkotob.com

اجتهادات لُغوية

الاستاذ الدكتور تمام حسان

عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

لأمر ما كان عنوان هذا الكتاب: "اجتهادات لغوية". أما أنه اجتهادات فلأنه فى مجملة اتخذ القرآن الكريم مصدرا لشواهده بل جعله فى الأغلب الأعم موضوعا لدراسته. ولقد كان القرآن طيلة التاريخ الإسلامى موضوعا لاستخراج المعاني والتفسيرات حتى لقد أصبحت الإضافة إلى تراثه تتجاوز المأثور وتدخل فى باب الاجتهاد. وأما أن هذه الاجتهادات لغوية فلأن موضوعاتها مسخرة فى خدمة اللغة من حيث هى نظام حينا ومن حيث هى نصوص حينا آخر. فلقد تناول الكتاب نظام اللغة تحت عناوين متعددة هى منهج النحاة العرب والرصف والتضام والبنية واللبس ومكونات الضمائر والثوابت والمتغيرات والصحة والجمال كما تناول الاصطلاح ونظام الكتابة. ثم أضاف إلى النظام مقالا يتناول جانبا من مفهوم علم النص تحت عنوان: "العلاقات الملفوظة (وتسمى cohesion) والعلاقات والملحوظة (وتسمى cohenence) فى النص القرآنى.

أما تناول اللغة من حيث هى استعمال فقد تناول الكتاب مشكلة إبداع المعنى من منظور تعدد الحقول المعرفية واختص المعنى الانطباعى بمقال خاص عنوانه مأخوذ من القرآن الكريم هو "تعرفهم بسيماهم" ودراسة قرينة السياق بعناصرها المختلفة بوصفها دليلا على المعنى واتخاذ شواهد هذه الدراسة من النص القرآنى الكريم. ثم استخرج بعض المعانى التى لم يشر إليها المفسرون من سياق الآيات القرآنية مثل: الدلالة على "ما مضى" و"وما يلى" واستعمال "هؤلاء" لإفادة الانتقاص والمقصود

بأن الرجال قوامون على النساء وما فى القرآن من إشارة إلى "أيام الله" ثم استعمال أدلة متصيدة من أصوات ومفردات مستخرجة من القرآن الكريم.

وانتهى الكتاب بمقالين مترجمين أحدهما مأخوذ من كتاب Linguistic Encyclopedia المنشورة بواسطة Kirsten Malmkiaer ـ كامبردج ١٩٩١. بشرح مصطلحات لغوية والآخر مقدمة لكتاب: "نظرة سيميوطيفية للنصوص" كتبها فلويد ميريل.

أخيرًا أحب أن أشير إلى أن إنتاج مجموع هذه المقالات امتد على مرحلة زمنية أولها أوائل خمسينيات القرن الماضى وبعضها (أو معظمها) نشر فى مجلات علمية فى مصر أو خارجها وجميعها يصدق عليه أنه اجتهادات.

تمام حسان

الباب الأول

قضايا المبنى

منهج النحاة العرب

إن الغاية التى نشأ النحو العربى من أجلها وهى ضبط اللغة وإيجاد الأداة التى تعصم اللاحنين من الخطأ قد فرضت على هذا النحو أن يتسم فى جملته بسمة النحو التعليمى لا النحو العلمى، أو بعبارة أخرى أن يكون فى عمومه نحوًا معياريًا لا نحوًا وصفيًا. ولعل أحسن تلخيص لموقف النحو العربى من هذه الناحية المعيارية هو قول ابن مالك فى ألفيته "فما أبيح أفعل ودع ما لم يبح".

والتفريق هنا بين نحو تعليمى وآخر علمى تفريق تقضى به طبيعة اختلاف المنهج بينهما، فالنحو التعليمى يعطى القواعد ويحتّم مراعاتها، والنحو العلمى يستقرئ الأمثلة ويستنبط منها القواعد، فالأول قياسى والثانى استقرائى، والأول معيارى والثانى وصفى، والأول قاعدة تراعى والثانى بحث يسجل وصف اللغة أثناء عملها فى مرحلة من مراحل وجودها. ومن المتفق عليه أن المعيارية تؤدى أجل الأدوار فى حجرة الدراسة وفى اكتساب الطفل للغة فى أسرته، ولا يمكن الاستغناء عن مراعاتها فى هاتين الحالتين؛ إذ يلعب الصوغ القياسى[1] أخطر دور فى بناء لغة الفرد.

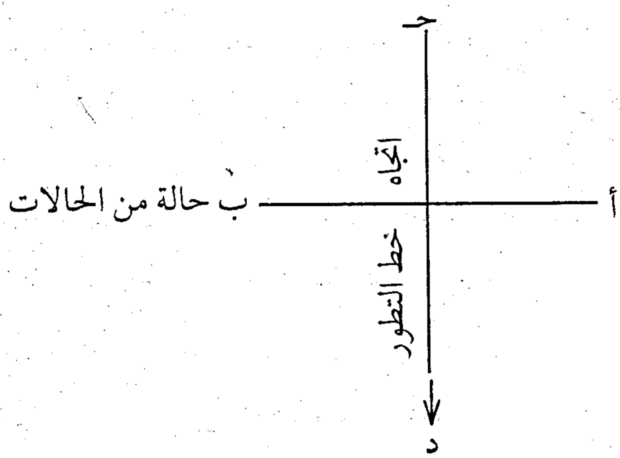
ولكن المعيارية إذ تصل إلى القاعدة تقف عندها وتلزمها وتبطل بها كل بحث

---

(١) نشر هذا البحث فى حوليات دار العلوم ـ العدد الثانى ١٩٦٩-١٩٧٠.
أنظر كتابى: اللغة بين المعيارية والوصفية ص: ٢٩ وما بعدها.

لاحق لها يؤدى إلى التعديل أو التحويل؛ فالقاعدة لدى المعيارية غاية فى نفسها وقانون ذو سلطة توجب وتجيز وتمنع، والناس أمام هذه السلطة رعايا يطيعون. ومن هنا سمحت الصبغة المعيارية لمنهج النحو أن تتحجر دراسته على صورتها بعد أن اكتملت لها القواعد وظهر قول بعضهم: إن النحو نضج حتى احترق. وتوقف البحث فى النحو ليدور المتأخرون من طلابه فى حلقة مفرغة ليس لهم فيها نشاط إلا التعليق على أقوال المتقدمين. أما الوصفية فاللغة أمامها جهاز متحرك يخضع للوصف فى إحدى مراحله؛ ولكنه يتطور ويتحرك مع الزمن، فيحتاج بعد تطوره إلى تجدد وصفه فى حالته الجديدة. وبهذا لا يسمح المنهج الوصفى للنحو أن يتجمد فى مكانه محاولاً أن يوقف تطور اللغة ويجمدها على حالها، وهيهات فإن القوانين الاجتماعية أقوى من قواعد النحو ومن أمانى رجال النحو.

ويمكننا عند النظر إلى الرسم البيانى التالى[1] أن نوضح خط التطور اللغوى تمهيدًا لبيان نواحى الخطأ فى منهج النحاة.



(١) انظر: كتابى: مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢ وما بعدها.

وفى هذا الرسم نجد الخط الأفقى أ، ب يمثل واحدة من الحالات المتلاحقة للغة (واحدة بعد الأخرى) ويفرض فى هذه الحالة أن اللغة كانت حين البحث فى وضع ثابت غير متحرك، وهو فهم تأباه طبيعة تطور اللغة نفسها، ولكن الباحث يلجأ إليه للضرورة البحثية. وليس يتم تطور اللغة من تعاقب حالات ثابتة تستغرق كل منها جزءًا من الزمن، ولكن هذا التطور يعنى الحركة الذاتية فى اتجاه خط التغير الاجتماعى، بحيث لو تصورت مقطعًا أفقيًا من اللغة فى لحظة ما لوجدت كل جزئية من اللغة متلبسة بحركة فى اتجاه التطور. وتتعدد الحالات المفروضة التى تمثلها الخطوط الأفقية على خط التطور الرأسى؛ ولكن الباحث يختار لدراسته إحداها فيصفها، ويستخرج منها جهات الشركة بين أجزائها وهى ما نطلق عليه "القواعد".

هذا ما يتصل بشرح الخط الأفقى فى الرسم البيانى ونحب أن نضيف هنا أن موضوع الدراسة ينبغى أن يكون جهازًا لغويًا واحدًا، فلا ينبغى أن يدرس الباحث لهجات متعددة من لغة واحدة على رغم أن هذه اللهجات ما دامت قد اجتمعت تحت عنوان لغة واحدة فلا فرق بينهما من ناحية التحليل والوصف. وكل لهجة فلابد لها من دراسة مستقلة يحتمها اختلافها عن أخواتها اختلافًا لا يخضعهن به جميعًا لقاعدة واحدة أبدًا.

تلك حقيقة مهمة جدًا لا ينبغى لباحث أن يغفل عنها، ويجب أن نذكرها ذكرًا خاصًا فى هذا المقام، لانطباقها على ما سنوجهه من نقد إلى منهج النحاة العرب الأقدمين.

وأما القول فيما يمثله الخط الرأسى فهو يمثل حركة فى الزمن. والواقع أننا ينبغى لنا أن نستبدل بهذا الخط تعديد الخطوط الأفقية، ليمثل كل منها مرحلة من مراحل التطور، وبذلك نصل إلى تمثيل التطور المصحوب بمرور الزمن. ويكون ذلك على النحو الآتى مثلاً:

ـــــــــــــــــــــ اللهجة فى ٦٠٠م

ـــــــــــــــــــــ اللهجة فى ٨٠٠م

ـــــــــــــــــــــ اللهجة فى ١٠٠٠م

ـــــــــــــــــــــ اللهجة فى ١٢٠٠م

وهكذا. فكل مرحلة من هذه المراحل يستقل بها باحث يعتبرها متميزة فى خصائصها عن المرحلة السابقة والمرحلة اللاحقة، ولا يخلط بين مرحلة وأخرى من نفس اللهجة ولا يعبر عنهما معا بقاعدة واحدة. وبهذا التحديد الزمنى والاجتماعى لموضوع الدراسة يصبح الباحث بعد ذلك على الطريق السليم المؤدى إلى نجاح البحث.

وبهذا نشترط لموضوع الدراسة الشرطين الآتيين:

١ ـ أن يتناول لهجة واحدة من لغة ما، فلا يتناول اللغة كلها مع اختلاف لهجاتها.

٢ ـ أن يتخصص فى مرحلة زمنية واحدة من مراحل اللهجة.

وننظر بعد ذلك فى منهج النحاة الأقدمين لنرى مدى وفائه بهذين الشرطين وسنحاول أن نتناول بنقدنا النقط الآتية:

١ ـ نظرتهم إلى اللغة ولهجاتها.

٢ ـ الاعتبار الزمنى فى نظرهم.

٣ ـ الرواية والرواة فى ضوء المنهج.

٤ ـ الاستشهاد.

٥ ـ السماع والقياس (والتأويل والتعليل) والتقدير إلخ..

٦ ـ التمرينات الذهنية.

٧ ـ الصواب والخطأ.

إن أبا الأسود ومعاصريه لم يكونوا يعرفون الرحلة والسماع؛ وإنما اتكلوا على فصاحتهم الشخصية واصطنعوا لأنفسهم الملاحظة الذاتية أداة للبحث، فكان موضوع الدراسة عند كل منهم لهجته العربية الخاصة ومحصوله من الحفظ.

ولكن النحاة من بعد هؤلاء لم يكونوا فى مثل فصاحتهم، فأضطروا أولاً إلى الاستماع من الأعراب الوافدين، واضطروا ثانيًا إلى الرحلة إلى الصحراء لمشافهة الأعراب هنالك. فَمَنْ هم هؤلاء الأعراب الذين جعلهم النحاة مصدر مادتهم؟ يقول السيوطى[1]: "والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد. فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الأعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم التى تجاور سائر الأمم الذين حَوْلهم. فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون فى صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز".

---

(١) الاقتراح ص: ١٩ ـ ٢٠.

وواضح منذ اللحظة الأولى أن النحاة والرواة قد اختاروا من القبائل من كانت مخالطته الأعاجم غير محتملة لبعده عن مواطنهم ومن هنا جاء التعبير الشائع "قبائل وسط الجزيرة" ولم يقتصر أخذهم على العرب العدنانية فقط وإنما تعداهم إلى قبيلة قحطانية هى طيئ. والمعلوم أن كل قبيلة من هذه القبائل كانت تتكلم الفصحى بلهجة خاصة بها تختلف فى النطق أو فى النحو أو فى الصرف أو فى المفردات أو فى معظمها عن اللهجات الأخرى، فادعاء نحو واحد وصرف واحد ومعجم واحد لهذه اللهجات المختلفة خطأ فى المنهج لا شك فيه. لقد درس النحاة اللغة الفصحى المشتركة على زعم أنها مادامت لغة العرب أجمعين فالعرب جميعًا مطالبون أن يتكلموها بنفس الطريقة وبثبات واطراد، وهم قد فعلوا ذلك وكان ينبغى أن يظلوا يفعلونه لولا لعنة اللحن التى جاء بها الموالى وتسببوا فيها. وما أبعد هذا الزعم عن الصواب وعن العقل وطبائع الأمور. والمعروف أن بين اللهجة واللهجة كلاهما من نفس اللغة وضوحًا متبادلاً واختلافا فى التركيب والأداء. وليس بين اللهجة من لغة واللهجة من لغة أخرى أو بعبارة ثانية ليس بين اللغة واللغة الأخرى تغايرها وضوح متبادل. ومعنى تبادل الوضوح بين اللهجتين من لغة واحدة أن يتكلم صاحب إحداهما فيفهمه صاحب الأخرى على رغم ما بينهما من اختلاف فى كل ما ذكرنا من قبل. فالمصرى من أبناء القاهرة والمغربى من أبناء الرباط يتكلم كل منهما لهجته الخاصة التى تختلف فى كثير عن لهجة الآخر ولكن كلا منهما يفهم ما يقوله الآخر لأن اللهجتين تنتسبان إلى لغة واحدة هى اللغة العربية المعاصرة.

كذلك كانت الحال فى أواخر القرن الأول الهجرى وبعده أيضًا حين كان النحاة يزاولون نشاطهم فى الملاحظة والاستقراء والتدوين.

كانت كل قبيلة عربية تتكلم لهجتها القبلية الخاصة بها حين يعالج الفرد شئونه البيتية واليومية فى حدود قبيلته، ثم تتكلم القبيلة بعد ذلك لهجة من اللغة

المشتركة بين العرب جميعًا وهى الفصحى فى التخاطب مع القبائل الأخرى وحين التأنق الأدبى. وذلك شبيه بحالنا نحن فى أيامنا هذه - لهجات عامية كثيرة ولغة عربية مشتركة واحدة أدبية. وكما أن العربى المعاصر حين يتكلم الفصحى قد يجهل إحدى المفردات فيقحهم فى مكانها كلمة عامية من لهجته كذلك كان العربى القديم. وكان الرواة يسمون المفردات التى من هذا النوع "الغريب"، ولم تكن من الغريب إلا فى عرفهم وبالنسبة لهم، أما بالنسبة لمن تكلمها فهى كلمة من لهجته القبلية المحلية وهى التى تساوى العامية فى عصرنا.

وكما يقحم العربى كلمة من لهجته يقحم استعمالا من لهجته على كلامه بالفصحى، فيأخذ النحاة هذا الاستعمال ويعرضونه فى ضوء ما وصل إليهم من أمثاله ونظائره. فإن اتفق معها فبها وإلا ذهبوا يبنون عليه من الأحكام والتخريجات ما ناءبه كاهل النحو وطال به نصه.

فإن قال قائل كيف يحدث ذلك والفصحى لا تتعدد بتعدد القبائل أحلناه على العرب فى عصرنا هذا، ليعلم أن القرآن نفسه قد يخضع فى قراءته على ألسنة العوام للهجاتهم العامية. فالشامى يعطش الجيم والمصرى القاهرى لا يعطشها فى قوله تعالى: "ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه "وتعطيش الجيم عند الشامى غيره عند السودانى والمصرى الصعيدى ثم إن اليمنى قد ينطق "قلبين" بطريقته الخاصة فى نطق القاف وينطقها السودانى بقاف أخرى وكلاهما يختلف عما ينطق به بقية العرب. وإذا كتب كل واحد من هؤلاء رسالة إلى صديق وافترضنا أن تتفق الرسائل جميعًا فى المعنى فسنرى أن تراكيب هذه الرسائل المكتوبة باللغة الفصحى تختلف باختلاف اللهجات العامية حتى نرى من خلالها فصحى مصرية وفصحى سورية وفصحى مغربية وهكذا، لأن كلا منهم أقحم على الفصحى عاداته المكتسبة من لهجته الخاصة. والمنهج السليم أن نفصل فى

الدراسة والبحث بين الفصحى كما ينطقها هذا والفصحى كما ينطقها ذاك لاختلاف بين الفصحيين بحسب اختلاف اللهجات العامية. ضع كلمة "القبلية" بدل "العامية" فى العبارة السابقة تجد العبارة صادقة على الموقف فى القرنين الأول والثانى الهجريين.

كان على النحاة أن يختاروا الفصحى على لسان قبيلة واحدة بعينها لتكون موضع الدراسة عندهم، أو كان عليهم أن يقتصروا على الفصحى كما تبدو فى القرآن أسمى نص عربى من جميع وجوهه. فإن اعترض معترض بكثرة القراءات فقد كان عليهم أن يختاروا إحداها. ولكن النحاة لم يفعلوا ذلك وإنما استخرجوا نحوًا تلفيقيا للغة على الصورة التى ارتضوها.

٢ ـ وكما أغفل النحاة العنصر الاجتماعى الذى انتهى تفصيل القول فيه أغفلوا عنصر الزمن أو كما نسميه عنصر تطور اللغة من عصر إلى عصر. لقد افترض النحاة للغة أنها باقية على حالة واحدة لا تنفك، عنها فدرسوا لغة القرن الهجرى الثانى بشواهد من الأدب الجاهلى والإسلامى على السواء. وعجيب أن يفطن هؤلاء النحاة الأقدمون والنقاد الذين كانوا فى عصرهم إلى الفارق الواضح بين خصائص الأدب الجاهلى والأدب الإسلامى ثم لا يفطن هؤلاء ولا أولئك إلى الفارق بين خصائص اللغة فى العصر الجاهلى وخصائص اللغة فى العصر الإسلامى؛ ولو قد فعلوا لوجدوا من ذلك ما يبرر الفصل فى دراسة النحو بين عصر وعصر. بل إننا لنجد أخلافهم فيما بعد حين فطنوا إلى التطور رأوا فيه تحللا وتدهورًا فى اللغة، فبدلاً من أن يبدأوا بدراسة نحو هذه المرحلة الجديدة الطارئة اكتفوا بإبطال الاستشهاد بشعر المحدثين.

والمنهج السليم هنا أن يبطل النحاة الاستشهاد بشعر المحدثين ولكنهم فى نفس الوقت يدرسون المرحلة الجديدة الناجمة عن تطور طرق التركيب، ويجعلون شواهدها من الشعر والنثر المعاصرين دون القديمين، وبذلك تصبح

اللغة بعد عصور متعددة من التطور مفصلة المراحل واضحة الخطى، ويستطيع الطالب أن يرى أمامه كيف تطور تركيب ما على مر العصور فأصبح كما يبدو فى الوقت الحاضر. وما دامت اللغة جزءًا من الحياة الاجتماعية، وما دام المجتمع العربى يشارك فى الحياة الدولية بالأخذ والإعطاء فلابد للغة العربية من أحد سبيلين:

(أ) فإما أن تحيا مع المجتمع وتتغير صورتها بالأخذ والإعطاء.

(ب) وإما أن تساعد عوامل المحافظة عليها على تجميد تطورها فينفرد المجتمع بالتطور دون اللغة، فتتحجر اللغة وتتخلف ويعتمد المجتمع على لهجاته العامية يحاول إنماءها والحياة بها وتصبح الفصحى لغة مكتوبة فقط بعيدة عن حياة المجتمع.

وهذا الغرض الثانى هو الذى حدث بالنظر إلى الفصحى مع اختلاف قليل فى التفاصيل يرجع إلى اعتبارات دينية وقومية. فأما الاعتبارات الدينية فهى الرغبة فى أن يكون القرآن والحديث مفهومين لدى الأجيال المتعاقبة من العرب إلى الأبد، فلو سمح للغة أن تنعزل عن المجتمع لأصبح العرب بعد قليل لا يفهمونها، وأصبح مثل العربية الفصحى والعرب كمثل اللاتينية والشعب الكاثوليكية فى غرب أوروبا، يتعبدون بلغة لا يفهمونها كانت فى القديم لغة لأجدادهم. وأما الاعتبارات القومية فالفصحى كانت رباط الدولة الإسلامية التى يحكمها العرب فأصبحت رابطة العرب المعاصرين فى دولهم المختلفة ومظهر القومية العربية فى زحفها الدائب.

٣ ـ أما النظر إلى منهج النحاة القدماء من حيث الرواية والرواة فليس يعلو كذلك على النقد. لقد ذكرنا أن الطبقة الأولى من النحوين كانت تلجأ فى استنباط القواعد إلى الملاحظة الذاتية، لأنهم كانوا على ثقة من عروبة ألسنتهم. وكان

حريا بهذه الملاحظة أن يأتى عنها نحو مثالى فى دقته وسلامة منهجه، لأن للغة كل امرئ نحوا ينسجم أوله مع آخره وتطرد قواعده أكبر أطراد ممكن. ثم أضاف هؤلاء إلى الملاحظة الذاتية سماعهم ممن يصادفهم من العرب. ولو كان هؤلاء الأولين قد استمعوا إلى العرب من قبائل مختلفة بلهجات مختلفة وبهذا بدأوا الخطأ المنهجى الذى أوضحناه تحت بند (١) من بنود نقدنا لمنهجهم.

ويكاد نقدنا المتصل بالرواية والرواة يتصل فى جملته بفهم هؤلاء الأولين لمعنى اصطلاحهم الذى تعارفوا عليه ـ السليقة. وبموقفهم من توثيق النصوص المروية وسنتناول كلا من هاتين النقطتين على حدة. ويتضح فهم الأولين لمعنى كلمة "السليقة" مما تأتى به كتب اللغة لتحديد هذا المعنى، حيث السليقة يقصد بها معنى الخليقة. يقول صاحب القاموس: "الخليقة الطبيعة" ويقول: "والسلق أثر دبرة البعير إذا أبيض موضعها كالسلق محركة، وأثر النسع فى جنب البعير والاسم السليقة. ثم يقول: "ويتكلم بالسليقة أى عن طبعه لا عن تعلم". فالاستعمال اللغوى لكل من هاتين الكلمتين لا يفرق بين معناهما تفريقًا كبيرًا. ولاشك أن من خليقة الإنسان أن يتكلم ويتفاهم بواسطة اللغة، فاستخدام اللغة (أى لغة) فى طبعه لا ينفك عنه. يبقى بعد ذلك اكتساب اللغة فى الطفولة فى محيط الأسرة، وهو الأساس الذى ينبنى عليه معنى السليقة. وإن الذى يبدو لأول وهلة أن عملية اكتساب اللغة من الناحيتين النفسية والتدريبية أكثر ما تكون شبها باكتساب العادات عمومًا، وبهذا المعنى يصح أن نصف أداء الجهاز النطقى لعمليات النطق فى المخارج وبالصفات المعينة بأنه مجموعة عادات نطقية. قال ابن فارس[١] "تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبى العربى يسمع أبوية وغيرهما فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات". وواضح أن عملية الاكتساب هذه تستمر طالما كان المرء عضوا فى جماعة، وأنها تدوم ما دامت الحياة الاجتماعية، ومادامت اللغة

(١) الصاحبى ص ٣٠.

خاضعة للتطور؛ إذ يتحتم على المرء دائمًا أن يصغى إلى الجديد من المفردات والتراكيب فى الطفولة وفى المدرسة وفى الحياة العملية بعد البلوغ، بل فى الشيخوخة أيضًا. ولا يكاد الطفل يلج باب الحياة حتى يستمع إلى صوت أمه ثم يبدأ بعد قليل فى اكتساب أسس لغتها. ولأمر ما جعل الله المرأة أشد رغبة فى الكلام من الرجل، وقد تكون هذه الرغبة فى ذاتها خير معوان للطفل فى مراحل اكتسابه للغة، إذ يستفيد منها بالانصات إليها كثيرًا والمشاركة والمحاكاة وملاحظة الصواب فى الاستعمال وتصحيح الخطأ بعد الوقوع فيه. يقول م. م. لويس[1] "وفى خلال سنوات ثلاث أو حولها يستكمل (الطفل) المعرفة بمجموع أصواتها ونظام بنيتها ومفرداتها معرفة كافية لجعله واضحًا فى تعبيره عن حاجاته الملحة، ولاستجابته استجابة مناسبة لما يطلبه منه الآخرون مما يتصل بهذه الحاجات. وكل هذا الدور الإعدادى فى النتشئة اللغوية يجرى فى البيت بأقل توجيه متعمد من هؤلاء المحيطين بالطفل".

المسألة إذن مسألة تدريب مستمر على نطق أصوات اللغة وعلى الإحاطة بصيغها وما يكون ضروريًا للفرد من مفرداتها، وعلى معرفة طرق صياغة جملها المفيدة على غرار التدريب الذى يقوم به الراغبون فى اكتساب العادات. وليس صحيحًا أن اللغة العربية فى دم العربى تظهر على لسانه ولو ولد فى بيئة أجنبية. وليس مقبولاً أن اللغة توقيفية من عند الله، وأنه تعالى قضى أن تكون للعرب لغة ذات أصوات معينة وصيغ ومفردات وجمل بعينها ثم قضى بتفصيل عكس ذلك للفرس وبغيره مفصلاً للترك والروس والإغريق والهند وهلم جرا. وليس مستساغًا أن المرء إذا نشأ على الكلام بلغة بقى أمينًا على تمثيل هذه اللغة ونطقها على رغم المؤثرات الخارجية، بل إن الأدلة على عكس ذلك قائمة فى التاريخ العربى نفسه إذ رأينا أن بعض من سكنوا البصرة من الأعراب قد لانت

(١) اللغة فى المجتمع ص ٣٣ ترجمه إلى العربية كاتب هذا البحث.

جلودهم وضعفت عاداتـهم اللغوية وتـخلوا عن فصاحتهم السابقة. وليس من الـمقبول عقلاً أن يستعصى على صاحب لغة أن يشوه لفظًا من ألفاظها بأن ينصب فاعلاً أو يرفع مفعولاً أو يقدم متأخرًا أو يمد مقصورًا أو يقصر ممدودًا أو يحول كلمة من صيغة إلى صيغة أخرى مشابهة أو نحو ذلك. لقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم سليقة لغوية ولكنها لم تمنعه أن يتكلم إلى وفود العرب بلهجاتهم المغايرة للهجته القرشية.

وإذا كان صحيحًا أن الطفل يكتسب اللغة بالاحتكاك بمن حوله فيتعلم بالـمشاركة والـمحاكاة فإن هاتـين الأداتين من أدوات الاكتساب تؤثران على الرجل كما تؤثران على الطفل. وإذا كان تأثر الطفل بـهما يعينه على مطابقة الاستعمالات اللغوية فى داخل الأسرة التى هى مـجتمعه وعالمه فإن الكبير النامى يـجد فى فسحة الاختلاط أسرة تشمل الـمتكلمين بلهجات متعددة أو ربما بلغات مـختلفة. ولن تكون الـمشاركة والـمحاكاة هنا عاملـين من عوامل الـمطابقة فحسب، بل إنهما تكونان كـذلك من عوامـل التشعيب وعـدم التجانس فى العادات النطقية للمتكلمين بلهجة واحـدة. ومعنى ذلك أن العربى من تميم لو رحل إلى مكة فأقام بـها مدة فلربما عاد إلى حيه من تميم وعلى لسانه استعمال ما الـحجازية فى مكان ما التميمية، ولو قد ظفر به راوية أو نحوى بعد عودته مباشرة لاستنبط أن بعض بنى تميم ينطقون ما الـحجازية، وجعل ذلك مما يبنى عليه القواعد.

يذهب النحاة إلى أن العربى لا يستطيع أن ينطق بما يـخالف سليقته، كما لو كانت هذه السليقة من تركيب دمه أو ضرورة عضوية فى جسمه، فهو يعجز بحكم تكوينه عن نطق ما ليس من لغته، كما يعجز بحكم هذا التكوين عن أن يلمس بلسانه أرنبة أنفه. يقول ابن جنى[1]: "أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٧٧.

القرميسينى عن أبى بكر محمد بن هارون الرويانى عن أبى حاتم سهل ابن محمد السنجستانى فى كتابه الكبير فى القراءات قال: قرأ على أعرابى بالحرم "طيبى لهم وحسن مآب" فقلت له طوبى فقال طيبى؛ فأعدت فقلت طوبى فقال طيبى؛ فقلت طوطو فقال طى طى. أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافيًا كزًا لا دمثًا ولا طيعًا كيف نبا طبعه على نقل الواو إلى الياء فلم يؤثر فيه التلقين ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين؟ وما ظنك به إذا خلى مع سومة وتساند إلى سليقته ونجره!". وهنا نرى سليقة الأعرابى تعارضت مع التنزيل؛ فأصبح الأعرابى بها غير قادر على الوفاء بمطالب التلاوة. ولست أدرى كيف يتفق فهم ابن جنى لهذه الواقعة مع ما يسوقه ابن فارس من قوله: "وكانت قريش مع فصاحتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم فى أشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. "كيف تتأثر سليقة قريش بالوفود الطارئة على مكة ولا تتأثر سليقة البدوى النازل بمكة بلغة قريش بل بنص القرآن الذى هو أفصح نص عربى، أهناك سليقتان إحداهما تتأثر والأخرى لا تتأثر؟

السليقة اكتساب اللغة فى مرحلة خاصة من حياة الإنسان هى مرحلة الطفولة؛ أى أن تعلم الطفل لغة أمه هو السليقة التى أخطأ الأقدمون فهمها وظنوها طبعًا وجبلة وخليقة. والخليقة بكونها انطباع الإنسان على اتخاذ لغة ما هى تعين السليقة التى هى اكتساب لغة بعينها. فالخليقة والسليقة بهذا المعنى عنصران لابد منهما لحياة اللغة وتكوين شخصية المتكلم. والخليقة بمعناها هنا موضوع من موضوعات علم الاجتماع، والسليقة بمعناها هنا موضوع من دراسة اللغة. ويتضح مما تقدم أن افتراض الأقدمين أن العربى كان عبدًا للغة العربية لا يستطيع تحوير نطقه بها بالإرادة خطأ كان من شأنه أن يؤدى إلى خطأ فى منهج بحثهم فى

النحو؛ لأنهم أسلسوا قيادهم لكل أعرابى مجترئ على اللغة وظنوه لا يستطيع الاجتزاء ومن هنا وجدنا رؤبة يسخر من يونس بن حبيب على نحو ما تذكر كتب الطبقات.

وننتقل بعد ذلك إلى مناقشة توثيق الروايات التى اعتمد عليها النحاة. كان السماع الذى اعتمد عليه النحاة فى صياغة النحو إما سماعًا مباشرًا من فم مصدر اللغة إلى أذن النحوى، وإما سماعًا بواسطة كالأخذ عن رواية. وفى كلتا الحالتين نجد الكثير من حالات التزييف والوضع التى سجلها تاريخ النحاة والرواة. ولقد قال الخليل بن أحمد: إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت[1]. فأما من وضع النحاة أنفسهم فقد ورد أن قطربا كان وضاعًا بشهادة ابن السكيت، وأن ابن دريد كان كذلك بشهادة نفطويه والأزهرى، واتهم بذلك غلام ثعلب، وقد علمنا أن خلفا الأحمر قد اعترف بوضع الشعر. "والكوفيون أكثر الناس وضعًا للأشعار التى يستشهد بها لضعف مذاهبهم وتعلقهم على السواء واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها مجاراة لما فيهم من الميل الطبيعى إلى الشذوذ كما سنبينه"[2].

وأما فيما أخذه النحاة عن الرواة فقد أفسد حماد الشعر بكثرة ما وضع منه فلا يصح أبدًا كما يقول المفضل الضبى: وكان حماد رجلاً عالمًا بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق. وكان خلف خلفًا لحماد فى الوضع وسلك فى البصريين مسلك حماد فى الكوفيين. "وقال الأصمعى: سمعت خلفًا يقول: أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التى فيها:

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

(١) الرافعى جـ١ ص ٣٥٩.
(٢) نفس المصدر ص ٣٧٠.

وهو من أبيات الشواهد[1] "ولقد سبق أن ذكرنا أمر رؤبة مع يونس وكيف اعترف له بتزييف الشواهد وذكرنا أن من الأسباب الدافعة إلى الصنعة والوضع فى الشعر التكسب بوضع الشواهد وتزييفها على نحو ما كان يفعل الأعراب الوافدون إلى البصرة.

حين فطن علماء الحديث إلى تفشي الوضع فيه نظموا له طرق الأخذ والتحمل وجعلوها علمًا خاصًا يدرسون به السند والرجال والتوثيق والتجريح، ولكن على رغم كل ذلك بقى فى الحديث كثير مما صنعه الوضاعون لأغراض خاصة. ولكن النحو لم يجعل لرواة الشواهد علمًا خاصًا لطرق الأخذ والتحمل ولا للسند والرجال ولا للتوثيق والتجريح، وإنما بقيت النصوص الموضوعة تحت رحمة واضعها، إذا اعترف بوضعها فقد حددها وإلا تقبلها الناس ووثقوها، بل إن الوضاع قد يعترف بأنه وضع نصوصًا بعينها ولكن هذه النصوص تبقى لنفس الغاية التى استخدمت لها قبل انكشاف أمرها على نحو ما أصر الكوفيون على أشعار خلف بعد اعترافه بوضعها إذ قالوا له: أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة.

ولاشك أن الخطأ يؤدى إلى الخطأ. ولقد سمح النحاة لمنهجهم أن يشمل لهجات القبائل المتعددة ويأذن لنصوصها الجاهلية والإسلامية أن يستشهد بها فى دراسة نحوية شاملة للأمشاج المختلفات من النظم الكلامية، فاتسعت عليهم دائرة القول وأتهم الشواهد كل مأتى يمكن تصوره فلم يكن لديهم لنقدها أداة؛ وبذلك تسرب الكثير من الشعر المصنوع والشاهد المسبوك إلى دراسات النحاة. وإن كتاب سيبويه سيد كتب النحو قد اشتمل على خمسين بيتًا مجهولة القائل وعلى بيت ادعى أبان اللاحقى أنه وضعه ودسه على سيبويه يقول فيه:

---

(١) الرافعى جـ١ ص ٣٨١.

حذر أموراً لا تضير وآمن ... ما ليس منجيه من الأقدار

كل أولئك يطعن فى بعض شواهد النحو ويتهم صحتها وأصالتها فإذا كان هذا البعض غير معين على وجه التحقيق فالأمر أخطر من أن يؤخذ مأخذًا سهلاً هينًا، لأن الشك يتطرق إلى الشواهد الشعرية فى جملتها ولا يسلم منها إلا ما قام على صحته دليل.

ويأتى بعد ذلك نظرهم إلى الاستشهاد ودوره فى دراسة النحو وما يقبل منه أولاً يقبل. يقولون إن ابن هرمة آخر من استشهد بشعره وإن بشارا أول من رفض شعره فى الاستشهاد. لقد ذكرنا أن النحاة لم يقتصروا فى دراسة النحو على عصر بعينه من عصور اللغة، وإنما أدخلوا فى دراستهم كل ما وقعت عليه أيديهم من نصوص لغوية جاهلية وإسلامية، مع علم نقادهم باختلاف العربية فى الجاهلية عنها فى الإسلام من حيث المفردات والأساليب وطرق تركيب الجملة وبنيتها، حتى ليصح القول إن الإسلام قد أوجد من الأثر فى اللغة ما أوجد فى العادات والتقاليد العربية فأقر بعضها وأعرض عن بعض. وما ظنك بلغة كانت وعاء التجارب الجاهلية ثم أتاها الإسلام ثورة دينية واجتماعية قلبت أوضاع المجتمع العربى وحولته من أشتات من القبائل إلى أمة أخذت على نفسها أن تقود العالم المتحضر فى ذلك الوقت؟ أفتظل اللغة على حالها تحكى شئون البحيرة والسائبة والوصيلة والهامة والظعنة وتحيى بأبيت اللعن وعم صباحًا ومساء، أم تتحول بتحول المجتمع الذى هى أداته لتناسب عقل هذا المجتمع وحاجاته؟ إنك لو قرأت أية واحدة من المعلقات لظفرت بالكثير من المفردات التى بطل استعمالها من سجنجل إلى عقنقل إلى أنابيش عنصل، والصيغ التى وفدت على اللغة من خارج مثل دمعة مهراقة ولم يهريقوا[1] وقد هرقته وما هريق على الأنصاب من جسد، والتراكيب التى لم يبق

---

(١) ومثله هراح وهنار وهراد وهياك ولهنك.

عليها إلا ما أعطاه النحاة لها من طول العمر بتقعيد القواعد لها. فمنذا الذى كان يقول فى القرن الثانى على مثال "ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى" أو على مثال حذف العائد فى قول طرفة:

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب   ببهكنة تحت الخباء المعمد

كان البرين والدمالج علقت   على عشر أو خروع لم ينضد

أو على مثال قوله:

فلو كان مولاى أمرأ هو غيره   لفرج كربى أولاً نظرنى غدى

أو على مثال إضافة الظرف إلى الظرف فى قول زهير "لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم".

أو على مثال المجئ بالحال فى صورة الجملة المبدوءة بالمضارع بعد الواو كقول عنترة "علقتها عرضًا وأقتل قومها".

أو على مثال زيادة شيء فى الكلام نحو قوله: "يا شاة ما قنص لمن حلت له" وقول اليشكرى:

قبل ما اليوم بيضت بعيون الناس فيها تغيظ واباء.

– وقول النابغة:

مخالف الصيد هباش له لحم   ما إن عليه ثياب غير أطمار

وقوله:

ألا ليتما هذا الحمام لنا. ومنذا الذى كان يقول كما قال النابغة من قبل: "وكأن قد".

ومع ذلك كان النحاة حفيين بهذه التراكيب التى لم يجر استعمالها فى أيامهم أخذًا من شواهد مستخرجة من الشعر الجاهلى على نحو ما اتضح.

ولقد يحسب بعض الناس أن اللحن لم يطرأ على اللسان العربى إلا فى أواخر القرن الأول بسبب كثرة الموالى فى البيئة العربية وما أبعد هذا عن الدقة. إن أول لحن

سمعنا عنه كان بمحضر من النبى صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله: أرشدوا أخاكم فقد ضل. وهل يبعد أن يكون اللحن أقدم من ذلك أو أن له أصلاً جاهليًا؟ ذلك على أى حال غير مستحيل عقلاً؛ لأن الأذن وهى أداة اكتساب اللغة قد تخطىء السماع فى الطفولة فيكتسب الطفل نطقًا خاطئًا يشب عليه ويكبر معه ويظل على خطئه طيلة حياته، أو يظل عليه حتى يصحح له هذا الخطأ؛ هذا شىء عززته التجربة وأصبح من المسلمات فى الدراسات اللغوية والاجتماعية. ولست استبعد وجود لاحن فى قبائل العرب يرجع لحنه إلى هذه الظاهرة كما رجع اللحن فى المدن إلى كثرة الموالى بها(*). ومع ذلك كان كل قادم من البادية حجة فى اللغة بالنسبة للنحاة حتى تطول إقامته بالمصر فيمكن الطعن فى فصاحته. وقد يأخذ النحوى عنه شيئًا ثم يتبين له أن الاستعمال جار على غيره فيثبت ذلك فى المسموع أو الشاذ أو القليل أو النادر، وقد يبالغ فيجعله أصلاً ويبنى عليه القاعدة كما كان يفعل الكوفيون.

وإن كثيرًا من الأخطاء النحوية والصرفية أو أن شئت فقل اللحن فى النحو والخطأ فى الصرف قد عده النحاة من الضرائر فكأنه صواب فى موضعه وإن لم يسمح به فى الاستعمال العام. مثال ذلك:

ألم يأتيك والأنباء تنمى

لما جفا إخوانه مصعبًا

قفا عند مما تعرفان ربوع(1)

قدنى من نصر الخبيبين قدى

من يفعل الحسنات الله يشكرها

فأما القتال لا قتال لديكم

(*) كان بعض النحاة يطعنون على العرب.

(1) انظر ابن فارس.

إذ ذهبت القوم الكرام ليسى

محمد تفد نفسك كل نفس

هما خطتا إما إسار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى

إنك أن يصرع أخوك تصرع

والمخالفات النحوية واضحة فى كل هذه الشواهد ومن المخالفات الصرفية.

الحمد لله العلى الأجلل

أو الفا مكة من ورق الحمى

ليتها قد خرجت من فمه

ومع حفاوة النحاة بكل هذه المخالفات ترددوا فى الاستشهاد بالقرآن والحديث؛ أما الأول فلما له من القراءات وأما الثانى فلروايته بالمعنى. ولو اكتفى النحاة بإحدى قراءات القرآن لاستخرجوا منها أدق نحو ممكن، ولكنهم تحرجوا من انتقاء إحداها الموافقة للقاعدة ورمى الأخريات بعدم المطابقة على نحو ما توصف الشواهد. أما رواية الحديث بالمعنى فلو جعل الحديث وحده مصدر الدراسة النحوية لكانت ألفاظ ما روى بالمعنى صالحة للأخذ؛ لأن الراوى بالمعنى صحابى والناقلون بعده ناقلون لألفاظ هذا الصحابى وهو فصيح يمكن الاعتماد على لغته. وإن هذا التحرج من الاستشهاد بالقرآن والحديث من جانب النحاة قد فرض على مادة الشعر أن تكون غزيرة كافية لإمداد النحاة بالمادة الصالحة للاستقراء. وهكذا بدأت مرحلة تزييف الشواهد على نحو ما شرحنا من قبل[1].

---

(١) هذا إلى أن التراكيب الشعرية لا تتفق مع تراكيب اللغة العادية بسبب الضرورة وحرية الرتبة ونحوهما.

٥ ـ وتسلمنا هذه النقطة إلى النظر فى القياس والتعليل والتأويل عند النحاة. لم يستخدم الناس الاستقراء باعتباره منهجًا للبحث إلا فى القرن السابع عشر الميلادى. ومن ثم لا نتوقع للنحاة العرب أن يكونوا قد اعتمدوا عليه فى منهج بحثهم فى اللغة العربية اعتمادًا مقصودًا، وإن كان كثير من بحثهم جاء على صورة الاستقراء. وليس يعيب النحاة العرب أن لجأوا فى بحثهم إلى الخلط بين الطرق المختلفة للبحث، لأن تلك كانت الطريقة السائدة فى التفكير العلمى فى العصور القديمة. وإذا جاءنا من العصور الخالية مثل أو أكثر على استخدام الاستقراء استخدامًا علميًا فى مادة ما، واستخدام الأسلوب العلمى الدقيق فى التعبير عن نتائج هذا الاستقراء، على نحو ما فعل اللغويون الهنود بدراسة اللغة السنسكريتية، ولاسيما دراسة الأصوات فيها، فليس لنا أن نحتمل ذلك على غير الصدفة الخالصة؛ إذ لا يمكن أن ندعى للهنود الذين كانوا فى ذلك الزمان علمًا بالمنهج الاستقرائى ولا قصدًا إلى استخدامه فى البحث. ولقد ذكرنا أن الأولين من النحاة اتخذوا لأنفسهم طريقة الملاحظة الذاتية لما آنسوا فى أنفسهم من فصاحة كانت فى الحقيقة هى مؤهلهم الوحيد لبدء استنتاج قواعد النحو، إذ لم نسمع أن واحدًا منهم قد أعد إعدادًا خاصًا يعطيه القدرة على البحث المثمر فى اللغة. فلما تقدمت الأيام بهذا البحث ازدادت عدوى اللحن فى الحضر ولم يعد للنحاة بد من الاعتماد على الأعراب الوافدين إلى البصرة. ثم أنشأ الخليل بن أحمد بدعة الرحلة إلى الصحراء حين دفعه طموحه إلى ابتغاء مادة للبحث أغزر مما يمكن الحصول عليه من الأعراب الوافدين على البصرة. وربما كان ذلك عند تصديه لتأليف كتاب العين إذ تتطلب المعاجم فى العادة مادة أكثر من أن يمكن جمعها من عدد قليل من الأعراب. على أن الخليل لم يعد بمفردات مصنفة فحسب وإنما عاد بنصوص صالحة لأن تدرس على جميع المستويات؛ وباشر استخدامها فى استخراج النتائج للفروع المختلفة، حتى كاد يصل بالنحو إلى ما نراه من صورته المدونة

فى كتاب سيبويه. وقد ذكرنا أن معظم ما يرويه سيبويه إنما هو عن الخليل. ودفع نجاح رحلة الخليل قومًا آخرين إلى الرحلة أهمهم الكسائى وبذلك بدأت حركة الزاحفين إلى الصحراء بحثًا عن النصوص أشبه ما تكون بحركة الزاحفين إلى الغرب بحثًا عن الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية. فماذا فعل النحاة بهذه النصوص؟

دعنا قبل الإجابة على هذا السؤال نختصر فى أسطر قليلة ما يوصى به المنهج الحديث من استخدام النصوص على النحو الآتى:

١ ـ يتخذ الباحث لنفسه مساعدًا للبحث من المتكلمين باللغة المدروسة يجعله مصدر نصوصه الأولى وينتقى هذه النصوص على الصور الآتية:

(أ) قوائم معدة من الكلمات إعدادًا خاصًا يتمكن به الباحث بالمقارنة بينها من استنتاج ظاهرة لغوية (نحوية) معينة.

(ب) نصوص معدة.

(جـ) نصوص مرتجلة.

(د) محادثات وحوار تعد إعدادًا خاصًا يقصد به الكشف عن ظاهرة أو ظواهر معينة وفى هذا النوع الأخير مجال كبير لاختيار الشواهد عند إتمام البحث[1].

٢ ـ وبعد استخراج النتائج من هذه النصوص المتقدمة المأخوذة من مساعد البحث يذهب الباحث فى رحلة بحث ميدانى إلى المنطقة التى تتكلم فيها اللغة. فيجرى على نتائجه من اختبارات التحقيق ما يجعله مطمئنًا إليها ونشاطه؛ فى هذه المرحلة نشاط قياسى إلى حد كبير.

٣ ـ ولا يكتفى الباحث بالقليل من النصوص أو القوائم وإنما يستخدم منها

---

(١) انظر كتاب مناهج البحث فى اللغة ص ٧١ ـ ٧٢.

كميات كبيرة تجعل لها قيمة إحصائية إذ إن استخراج القاعدة من المثال الوحيد أو الأمثلة القليلة عمل مبتور ناقص لا يمكن قبوله. ولقد ذكرنا أن البصريين عابوا على الكوفيين جعلهم الشواذ أصولاً وبناء القواعد عليها.

وإذا نظرنا إلى ما ذكرنا من أنواع النصوص التى يجب على الباحث أن يعتمد عليها وجدنا النحاة لم يعنوا مطلقًا بإعداد القوائم الصالحة للمقارنة، كما لم يعنوا بإعداد النصوص إلا فيما يروى عنهم من سؤالهم الأعراب كيف تقول فى كذا. وقد اعتمدوا اعتمادًا تامًا على النصوص المرتجلة جاهلية وإسلامية وألموا بعض إلمام بالحوار غير المقصود لذاته وهو الذى عند إعداده يعقد عليه الأمل فى استخراج شواهد البحث كما ذكرنا. وإن إغفال النحاة للقوائم والحوار المعد قد أوقعهم فى متاعب كثيرة أشهرها:

(أ) تكرار الرحلة إلى الصحراء وبقاء عادة الرحلة أجيالاً عدة. ولو اعتمد أوائل النحاة على قوائم معينة لجاء عملهم كاملاً ولكفى اللاحقين مشقة الرحلة.

(ب) صعوبة استخراج النتائج من أمثلة مبعثرة ولو أعدوا القوائم لبدت النتائج واضحة فيها فلا يقتضى استخراجها مشقة.

(جـ) اتساع باب الطعن على نتائجهم بالوصول إلى نصوص جديدة لم يصل إليها الأولون.

(د) استخراج النصوص من العصرين الجاهلى والإسلامى على ما بين صورتى اللغة فيهما من اختلاف.

(هـ) اضطرار النحاة إلى فرض القاعدة المستخرجة بطريقتهم غير الشاملة على الأمثلة الحديثة. فإن وافقت الأمثلة القاعدة فبها وإلا لحقت بها عيوب القلة أو الشذوذ أو الندرة إلخ وهذه النقطة الأخيرة هى مناط قولنا فى موقف النحاة من القياس.

لقد ذكرنا أن الظروف التى نشأ فيها النحو العربى وما صحبه من ملابسات انتشار اللحن ورغبة الموالى فى تعلم اللغة العربية ساعد على جعل النحو العربى تعليميًا يتسم بسمة القياس لا علميًا يرتضى الاستقراء حتى عرفوا النحو بأنه قياس اللغة. ونحب أن نضيف هنا سببًا آخر مما أعان على ذلك وهو ما بيناه من عدم استخدام النحاة للقوائم وعدم اصطناعهم النصوص والحوار المعد. ولقد قادتهم هذه الصبغة القياسية لمنهجهم أن يرفضوا ما ينطق به بعض الفصحاء لمنافاته لقواعدهم التى وصلوا إليها؛ بل لقد وصموا بعض التراكيب الفصيحة لدى قبيلة ما بالشذوذ بالنسبة لنحوهم. ولاشك أن هذه المبالغة فى احترام القياس وإن كانت لها أسبابها لابد أن تؤدى إلى الوصول إلى نتائج سريعة تقوم على أساس خطأ الملاحظة أو على الوهم.

ولقد ساقهم ذلك أيضًا إلى اصطناع التأويل فيما لا يواتيهم من التراكيب وذلك بالقول بالحذف تارة والاستتار أخرى وصوغ المصدر ثالثة وبالتضمين رابعة وهلم جرا؛ ولاشك أن التأويل حين النظر فى تركيب الجملة أمر ذهنى خارج عن هذا التركيب مفروض عليه؛ وحق الجملة أن ينظر إلى ما فيها من رموز تمثل أبوابًا وتعبر عن هذه الأبواب بما يناسبها من كيفيات خاصة تبدو بها هذه الرموز، وقد شرحنا ذلك شرحًا وافيًا فى كتابينا مناهج البحث فى اللغة، واللغة بين المعيارية والوصفية فارجع إليهما إن شئت. ولكن لا بأس هنا من الإلمام اليسير بجملة ما يمكن أن نسوقه تلخيصًا لما ذكرنا هنالك.

كل فرع من فروع دراسة اللغة يبدو فى صورة جهاز مركب من وحدات تركيبية لكل وحدة منها وظيفة. فالجهاز الصوتى للغة وحداته الحروف ويعبر عنها شكليًا بأصواتها فى حالة النطق وبصورها فى حالة الكتابة. والجهاز الصرفى وحداته مبانى الصيغ ويعبر عنها شكليًا بالألفاظ التى تصاغ على مثال هذه الصيغ ومن وحداته أيضًا بعض المبانى العامة المعبرة كمبانى الشخص والعدد والنوع. وإذا أخذنا صورة من صور التعبير عن الشخص وهى الغائب مثلاً وجدنا التعبير

الشكلى عنها فى المضارع بإلحاق حرف مضارعة معين فى أوله أما فى الماضى فإنه يعبر عنه شكليًا بعدم الإلحاق وبهذا يكون العدم مفيدًا من الناحية الشكلية. والجهاز النحوى وحداته الأبواب النحوية ويعبر عنها شكليًا بالحركات والسكنات الإعرابية حينا وبالرتبة حينا وبهما معا أو بغيرهما حينا ثالثًا. وكل الأشكال التى ذكرنا فى هذه الفروع ذات وظائف محددة فكل شكل منها يؤدى وظيفة التعبير عن الوحدة التى يدل عليها. وكل تحليل للغة على أحد هذه المستويات فهو تحليل وظيفى ينبغى أن يقتصر على ذكر الشكل والوظيفة ذكرًا موضوعيًا؛ فلا يضيف الباحث موقفه الخاص إلى النتيجة بواسطة التأويل أو غيره. ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن المعجم ليس جهازًا ولكنه قائمة(*)، وبذا لا يدخل فى نطاق التحليل الوظيفى. وبهذا يتضح أن ما فرضه النحاة على تراكيب اللغة من تأويل لا يمكن أن يمثل منهجًا سليمًا.

أما التعليل فقد ذكر النحاة أنهم أخذوه من الأعراب وإيضاحاتهم البدائية لبعض مسائل وجهها النحاة إليهم. كالأعرابى الذى رد على من سأله كيف يقول جاءته كتابى فاحتقرها بقوله أليس صحيفة؟ وما هكذا تؤخذ الأمور. فالمسلم به أن البحث فى اللغة والتصدى لاستخراج قواعدها بحث علمى يتطلب منهجًا سليمًا، والمسلم به أن الوصول إلى المنهج السليم درجة لا يتمتع بها إلا الصفوة من العلماء هم الذين يسمون "الباحثين"، ولاشك أن الأعرابى الأمى الذى لم يذق نعمة التفكير العلمى لا يمكن أن يكون فيصلاً فى التجريد وأن صح له أن يكون فيصلاً فى صحة النطق. وبهذا يكون اتكال النحاة على تعليل الأعراب وأخذهم ذلك عنهم خطأ فى المنهج.

على أن النحاة لم يقفوا عند حد اللمحات الفطرية فى التعليل على نحو ما كان الأعراب يفعلون؛ إذ سرعان ما تلقفهم الجو الثقافى السائد الذى اصطبغ اصطباغًا تامًا بنتائج الثقافة الهلينية، فأسلمهم إلى التعليل المنطقى. فخبوا فى ذلك وأوضعوا

(*) غيَّر الباحث رأيه فأقام الدليل على أن المعجم طابع النظام أو الجهاز كما قيل هنا. (انظر ص ٧٣).

وجعلوا للتعليل أصولاً وقواعد، فجعلوا العلل أربعا وعشرين عينوا لها ثماني مسالك وتسع طرق للقدح فيها[1].

عرف النحاة علل أرسطو الأربع المادية والفاعلية والصورية والغائية. والأولى مادة الشيء والثانية فاعله وصانعه والثالثة صورته التى يبدو عليها فى النهاية والرابعة حكمة وجوده. والأخيرتان من هذه العلل هما موضوع كلامنا عن النحاة العرب وموقفهم من التعليل، لأن العلماء فى مختلف العصور قد استخدموهما فى التفكير العلمى، حتى جاءت المناهج الحديثة فرأت أن يكون العلم إجابة عن الصور لا عن الغايات.

العلة الصورية جواب عن "كيف" والعلة الغائية جواب عن "لماذا". والعلم يهتم فى أيامنا هذه بشرح الكيفيات ولا يكلف نفسه عناء الإجابة عن غاياتها؛ لأن معظم الغايات خفية لا يعلمها إلا الله. ويهم النحو أن يعرف أن الفاعل يرتفع بالضمة وليس له أن يجيب عن سبب ارتفاعه بالضمة. ويهم الصرف أن "قال" ذو أصول ثلاثة تظهر جميعًا فى تصريفها على "أقوال" و"قول" و"قوال" إلخ، وليس له أن يجيب عن سبب صيرورتها إلى قال؛ لأن الكلام فى ذلك مدعاة لفرض الظنون على العلم[*].

العلة الغائية إذن علة لا تقع فى العلم؛ وإنما يرتضى العلم العلة الصورية. ومع ذلك جاءت علل النحاة غائية فى الأكثر الأعم منها، فجعلوا من عللهم الغائية السماع والتشبيه والاستغناء والاستثقال والفرق والتوكيد والتعويض والنظير والنقيض والحمل على المعنى والمشاكلة والمعادلة والمجاورة والوجوب والجواز والتغليب والاختصار والتخفيف ودلالة الحال والأصل والتحليل والأشعار

---

(١) الاقتراح للسيوطى.

(*) عدل الباحث عن هذا الرأى لأن تجريد الأصول بأنواعها (أصل الوضع والاشتقاق الخ) يأتى به الاستقراء وما يترتب عليه من أدلة.

والتضاد والأولوية؛ وهي جميعًا مبينة في كتب أصول النحو فإن شئت فاطلع عليها في الاقتراح مثلاً. ولقد ادعى النحاة أن العرب قد استشعروا تلك العلل في كلامهم وأنهم كانوا على وعى بها حين ينطقون. دعنا نأخذ مثلاً على تعليل النحاة وكيف تقود العلة الغائية إلى علة غائية مثلها فمن العلل الغائية أن الواو تنقلب ألفا لعلة تحركها وانفتاح ما قبلها، ومع ذلك ورد في لغة العرب كلمات مثل اجتوروا واعتونوا واهتوشوا بصحة الواو على رغم تحركها وانفتاح ما قبلها وإذن فلابد للنحاة وقد اعتذروا بعلة عن انقلاب الواو أنفًا أن يعتذروا بعلة أخرى عن صحتها في هذه الكلمات فماذا قالوا؟.

يقول ابن جنى(١): "وكذلك يقولون صحت الواو في نحو اعتونوا واهتوشوا لأنها في معنى ما لابد من صحته أعنى تعاونوا وتهاوشوا. والأولى من هاتين على ما يبدو علة التخفيف والثانية علة الحمل على المعنى. وقد تكون للعلة علة علة فإذا سأل سائل عن علة رفع الفاعل جاء النحوى بالعلة الفاعلة وهى ثانية الأربع اللائى جاءت عن أرسطو فقيل له إنما ارتفع الفاعل بفعله؛ وهكذا تكون نظرية العامل كلها ظلا للعلة. فإذا قيل ولم ارتفع بفعله قيل لإسناد الفعل إليه فلما كان الفاعل مسندًا إليه صار مرفوعًا فإذا قيل ولم يرفع المسند إليه أجيب أن صاحب الحديث أقوى الأسماء والضم أقوى الحركات فجعل الأقوى للأقوى(٢)".

أمن النحو أن نجعل الأسماء درجات في القوة والضعف وأن نفرق بين الحركات فيها؟ ألا يكفي في النحو أن نعرف أن اللغة العربية تعبر عن باب الفاعل بالاسم المرفوع ثم تترك مالا يرضاه المنهج العلمي من الظنون؟

---

(١) الخصائص جـ١ ص ١٥٠ ـ ١٥١.
(٢) الخصائص جـ١ ص ١٧٨.

ولا ينبغى مطلقًا أن يظن أن النقد هنا لقيمة عمل النحاة. إنما هو للمنهج. ذلك بأن النحاة قد وجدوا فى عصر كانوا هم نتاجه الفكرى وما كان لهم أن يسبقوا الزمن ولا أن يتنبأوا بظهور المنهج الاستقرائى بعد قرون عديدة، وإنما ننقد منهجهم هنا لأنه لم يعد صالحًا فى وقتنا هذا، ولأن النحو بصورته الحاضرة وهو نتيجة لهذا المنهج غير الصالح يصبح تبعًا له غير صالح. وعلى المحدثين من علماء النحو أن يطبقوا منهجهم على مصدر عربى واحد لكل عصر عربى؛ فتقسم عصور اللغة العربية تقسيمًا شبيهًا بما اصطنعه أصحاب تاريخ الأدب العربى، ويكتب لكل عصر من العصور نحو خاص به مستقى من مصدر موحد. فللعصر الجاهلى المعلقات وللإسلامى القرآن وهكذا حتى نصل إلى عصرنا الحاضر.

ولست أجهل أن سلطة النحو العربى خلال العصور كما دونه سيبويه قد جعلت الاختلاف بين الفصحى فى العصر الإسلامى الأول وبينها فى العصور التالية اختلافًا فى الأسلوب أكثر منه فى التركيب، ولكن هذا لا ينفى أن اختلاف التركيب موجود كذلك بقدر ما، وهو قدر إن لم يبرر إنشاء نحو جديد فهو حقيق بالتنبيه عليه ووصفه فى درجات تطوره.

ويأتى بعد ذلك دور الكلام فى التمرينات الذهنية. والمعلوم أن اللغة جهاز عرفى يتحكم فى النظر إليه اعتبار السماع أولاً وآخرًا فما سمعه الباحث من أصحاب اللغة فذلك من اللغة وما لم يسمعه منهم فليس منها. وليس ينكر الباحثون المحدثون أن هناك ظاهرة فى حياة اللغة تسمى ظاهرة الصوغ القياسى[1] تلعب أهم الأدوار فى مرحلة اكتساب اللغة للصغير الطفل وللأجنبى على حد سواء، كما تلعب دورًا مماثلاً فى تكوين أسلوب الكاتب والمتكلم حيث يصوغ المرء على مثال ما قرأ وحفظ ثم نسى. ولكن هذه الظاهرة تقع كما ذكرنا فى نطاق حياة

---

(١) انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٢٩ وما بعدها.

اللغة وليس فى نطاق البحث فى اللغة. ومثال تطبيق هذه الظاهرة أن يسمع الصغير أفراد أسرته يتكلمون عن الكبير والكبيرة والصغير والصغيرة فيفهم أن الدلالة على الأنثى تتم بطريقة إضافة معينة حتى إذا أراد التعبير عن الأحمر ومؤنثه قال أحمر وأحمرة فصاغ ذلك صوغًا قياسيًا على كبير وكبيرة وصغير وصغيرة، ويحدث مثل ذلك من الأجنبى الذى يتعلم أن تاء الفاعلة تلحق الفعل فلا يقف عند إلحاقها بالماضى نحو ضربت وإنما يلحقها أيضًا بالمضارع فيقول "تضربت" والشأن فى هذا النوع من الصوغ القياسى الخاطئ أن يصحح وأن يذكر له المسموع.

وهناك صوغ قياسى آخر فى حياة اللغة أيضًا وليس فى منهج بحثها وذلك ما يقوم به المجمع اللغوى من خلق المفردات الجديدة للمعانى الجديدة وصوغ قياسى غير ذلك هو ما يقوم به المدرس من تكوين أمثلة على قياس القواعد يكتبها على السبورة ليشرح بها القاعدة للتلاميذ. ولعل هذا الاعتبار التعليمى كان مسئولاً عن ميل النحاة القدماء إلى صياغة التمرينات الذهنية. ولكن الاعتبار التعليمى بعيد عن الاعتبار العلمي كل البعد على نحو ما أوضحنا عند الكلام عن القياس عند النحاة.

ويظهر مما ذكرنا هنا أن التمرينات الذهنية فى النحو أو الصوغ القياسى فيه يمكن أن يقع فى المفردات كما يمكن أن يقع فى التراكيب. ولقد عقد ابن جنى فى الخصائص[1] بابا فى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب بدأ الكلام فيه عن تعريب الكلمات الأجنبية وإخضاعها لمبادئ الاشتقاق ثم عن الإلحاق بترديد لام الكلمة كقعدد فجعله قياسًا ورفض الإلحاق بترديد غير اللام كجوهر ثم أورد ابن جنى على نفسه اعتراضا بقصة الرجل الذى أنشد الخليل "ترافع العز بنا فارفنععا" فرفض الخليل منه ذلك فاعتذر بأنه يصوغ على مثال ما قال العجاج

(١) جـ ١ ص ٣٦٢ وما بعدها.

"تقاعس العزيز بنا فاقعنسسا"، ويتعب نفسه فى الرد على هذا الاعتراض بكلام لا داعى لا يراده هنا. واستطرد فى كلامه عن قياس المفردات ولم يتطرق إلى قياس التراكيب؛ ولكن قياس المفردات والتراكيب عند النحاة لم يكن صوغًا على قياس اللغة بقدر ما كان صوغًا على قياس القواعد. فأما من جهة المفردات فنحن لا نعيب الآن على المجمع اللغوى أن يدخل فى كلام العرب ما ليس منه، ولكننا ننكر أن يتسلى النحاة بأن يصوغوا من ضرب وقتل وشرب وخرج على مثال "صمحمح" فيقولوا ضربرب وقتلتل وشربرب وخرجرج. وأما من جهة التراكيب فنحن لا نعيب على تلاميذنا أن يقلدوا أسلوبًا كأسلوب ابن المقفع أو الجاحظ أو طه حسين أو الزيات فيصوغوا جملهم وتراكيبهم على مثال ما يصوغه هؤلاء الأفاضل. ولكننا ندهش إذ نرى قومًا جادين كالنحاة يصرفون بعض وقتهم فى خلق تراكيب ترضى عنها قواعدهم ويأباها الذوق العربى فى التركيب. وكيف يمكن أن نعيب على المتنبى قوله:

ومــا مــثله فــى الــناس إلا مملــك   أبـــو أمـــه حـــى أبـــوه يقاربـــه

ثم لا نعيب على النحاة أن يأتوا بقولهم "الزيدان العمران ضاربا هما هما" و"الزيدون العمرون ضاربو هم هم" و"أعلمت وأعلمنيها إياهما الزيدين العمرين منطلقين"؟ فإذا كانت تراكيب المعلم التى يدونها على السبورة تخدم غرضًا هامًا هو شرح القاعدة، وإذا كان تقليد التلاميذ لما يكتبه كبار الكتاب يؤدى غاية جليل هى تكون أساليب التركيب والصياغة لدى التلاميذ، فأى غرض وأية غاية تعليمية أو لغوية أو منهجية يمكن أن نصل إليها من وراء هذه الرياضات النحوية؟ لقد كان من الممكن أن نرمى النحاة بالخطأ لو سمحوا للقياس على اللغة بأن يدخل منهج بحثهم فيها؛ فكيف وقد سمحوا بشر من ذلك وهو القياس على القواعد وهى من عملهم وليست من عمل العرب أصحاب اللغة؟ ذلك ما نورد التنبيه إليه.

من هنا يتضح لنا وجه القول فى نظر النحاة إلى الصواب والخطأ وشدة ارتباطها بخضوعهم لفكرة القياس وبأخذهم عن قبائل مختلفة وافتراض وحدة اللغة لدى هذه القبائل جميعًا دون النظر إلى اختلاف لهجاتهم. لقد عرف النحاة النحو بأنه علم قياس اللغة ومن ثم طفقوا يحكمون قواعده فيما يسمعون من أفواه العرب، حتى رأينا الأبواب تبوب فى الكتب المختلفة لمعرفة أغلاط العرب. تجد ذلك فى الخصائص وفى المزهر وفى الضرائر. وجعلوا من أغلاط العرب همزهم مصائب؛ قالوا وهو غلط منهم. وذلك أنهم شبهوا مصيبة بصحيفة فكما همزوا صحائف همزوا أيضًا مصائب، وليست ياء مصيبة بزائدة كياء صحيفة، لأنها عين عن واو وهى العين الأصلية وأصلها مُصْوِبَة وجعلوا من أغلاطهم رثأت بدل رثيت ولبأت بدل لبيت وقول ذى الرمة "والجيد من أدمانة عتود" بدل "أدماء".

وكان الفراء يجيز كسر النون فى شتان تشبيها بسيان. قال ابن خالويه[1] فإن قيل الفراء ثقة ولعله سمعه، فالجواب: إن كان الفراء قاله قياسًا فقد أخطأ القياس، وإن سمعه من أعرابى فالغلط من ذلك الأعرابى؛ لأنه خالف سائر العرب وأتى بلغة غير مرغوب عنها[2].

فما الفيصل الذى يقضى لتعبير ما بأنه صواب ويقضى على تعبير آخر بأنه خطأ؟ أو من حق النحوى غير الفصيح أن يغلط البدوى الفصيح؟ هاتان مسألتان نجيب عنهما فيما يلى محاولين أن نبرز ما لمنهج النحاة وما عليه مما يتصل بفكرة الصواب والخطأ. اللغة كما قلنا جهاز عرفى أوجدها المجتمع لقضاء حاجاته، وهى بكونها أداة المجتمع وملكه لابد لها أن تكون خاضعة للاعتبارات الاجتماعية أولاً وأخيرًا شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى. ولابد أن نسلم بجواز خطأ

(١) رواية المزهر عن شرح الفصيح لابن خالويه.
(٢) يقصد فيها.

صاحب السليقة فى لغة ما؛ ومن هنا حاولنا التدليل على أن للحن أصلاً جاهليًا، وقبلنا القول بوجود أغلاط عند العرب، وأوردنا بعضها عند الكلام عن الاستشهاد فى النحو وبعضًا آخر منذ قليل. ولقد اعترف النحاة بمبدأين اثنين فى أخذ اللغة أولهما السماع والآخر القياس ولقد أوضحنا أن القياس إن جاز لنا أن نعترف بفائدته فى حياة اللغة وفى استخدامها عمليًا فلا يمكن قبوله كفكرة منهجية فى بحوث اللغة؛ لأن هذا القياس فردى يتعلق بالفرد الذى يجريه وليس اجتماعيًا يتصل بالمجتمع فى عمومه. ومن هنا يصبح السماع ذا أهمية قصوى لمناهج البحث فى اللغة.

فما سمع عن العرب جاز فى بعضه أن يكون غلطًا ولكن جمهرته لغة العرب التى عنهم أخذت وصحت. فما الفيصل الذى يجعلنا نحكم على هذا البعض القليل بالغلط؟ إذا نظرنا فى الأمثلة التى أوردناها فوق هذا الكلام لمحنا اختلاف أسس هذا الحكم؛ فعند الكلام عن المثال الأول (همز مصائب) نجد الأمور الآتية:

١ ـ أن الذين حكموا بالغلط لم يذكروا من سمع منه هذا الغلط وهل كان واحدًا أو جماعة.

٢ ـ أن هناك معايير وضعها النحاة ذات شقين:

(أ) أن بعض حروف الكلمة أصول وبعضها زوائد.

(ب) أن الهمز يبدل من الحرف الزائد لا من الحرف الأصلى.

٣ ـ أن النطق الفصيح إذا عارض هذه المعايير فهو غلط وإن عضده السماع الكثير ومثل ذلك يقال فى رثأت ولبأت.

وعند الكلام عن قول ذى الرمة "والجيد من أدمانة عتود" نجد ذا الرمة شاعرًا عربيًا فصيحًا ذا سليقة ويصح الاستشهاد عندهم بشعره، ثم هم يحكمون عليه

بالغلط عندما يخالف قياسهم. وقد رأينا الكثير من أمثال هذا يحدث بين الفرزدق وابن أبى إسحق.

أما عند الكلام عن كسر الفراء نون شتّان فنجد أساس رفض ذلك أن الأعرابى الذى ربما جاء بذلك مخطئ لأنه خالف سائر العرب.

وليس يصح من الناحية المنهجية أن تطرح السماع جانبًا لتحكم أقيسة وضعتها أنت، وليس يصح كذلك أن تستشهد ببعض ما يقوله شاعر ثم ترفض له نطقًا معينًا لأنه خالف معاييرك. ولكن رفض تعبير ما لأنه خالف ما سمع عن العرب رفض مقبول يرضى عنه أصحاب المناهج الحديثة تمام الرضى. فالفيصل فى الصواب والخطأ هو السماع، أو بعبارة أخرى هو المجتمع الذى يملك اللغة ويتطور بها من عصر إلى عصر. وبهذا يصبح تحكيم النحاة قواعدهم وأصولهم فيما سمع عن العرب خطأ منهجيًا فى جملته وتفصيله.

وليس من حق النحوى غير الفصيح أن يخطئ الأعرابى الفصيح إلا إذا وجد السماع ضده.

ذلك تقويم لمنهج النحاة لا لقيمة عملهم وهو طعن فى أصول المنهج لا فى النحاة أنفسهم، وأن الناظر فى النحو العربى على الصورة التى دونه بها سيبويه ليجد صرحًا عاليًا من الفكر يعجب المرء أن يتم بناؤه فى حقبة يسيرة مع شدة الحاجة إلى الأدوات؛ وأولى هذه الأدوات المنهج السليم.

مصطلح الرصف فى الخطاب النحوى

يبدو أن النحاة لم يستعملوا مصطلح الرصف الذى يشير فى الغالب إلى صورة بناء السياق سواء فى حدود الجملة أو ما فوقها، إلا ما نراه فى بعض أعمال المتأخرين كرصف المبانى للمالقى. أما النقاد فقد كان مما أثر عنهم منذ البداية عبارة "حسن الرصف". ذلك بأن عمل النحاة كان أكثر ميلاً إلى التفكيك منه إلى التركيب؛ فالهم الأول للنحوى أن يعرب الجملة كلمة كلمة، وأن يعنى بوظائف الكلم فى إطار الجملة المفردة، ثم لا يتعدى الجملة إلا بعطفها أو بعطف عليها أو استدراك منها أو تفسير لها أو بجعلها جوابًا لجملة ذات جواب كالشرط والقسم إلخ. هذا وقد اتجه نقاد الأدب فى أغلب عملهم إلى النص فى جملته وبخاصة إلى الجانب الأسلوبى غير التقعيدى فى هذا النص. ومن هنا كان عليهم أن يستعملوا مصطلحات تتناسب مع اهتمامهم بالسياق المتصل، فجاءوا بمصطلحات تختلف عن مصطلحات النحاة منها النظم والتأليف والسبك والرصف والترتيب والنسج آخذين ذلك من أوجه الشبه بين النص وبين القلائد والمعادن والأبنية والملابس، وهى أمور يبدو فى تكوينها وخلقها ما يشبه بناء النص، ومن ثم كانوا يشبهون النص وما ينسبونه إلى النص بما فى بنيتها من الإتقان والجمال.

يقول القاضى الجرجانى فى الوساطة بين المتنبى وخصومه (ص ٣١٢): "وأقل الناس حظًا فى هذه الصناعة من اقتصر فى اختياره ونفيه (يقصد منشئ النص) وفى

استجادته واستسقاطه (يقصد مستقبل النص) على سلامة الوزن وإقامة الإعراب وأداء اللغة، ثم كان همه وبغيته أن يـجد لفظًا مرموقًا وكلامًا مزوقًا فدحشى تـجنيسا وترصيعًا وشحن مطابقة وبديعًا أو معنى غامضًا قد تعمق فيه مستخرجه وتغلغل إليه مستنبطه، ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلهلة النسج، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ولا يستبر ما بينهما من نسب ولا يمتحن ما يجمعهما من سبب ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى ولا الكلام إلا ما صور له الغرض ولا الحسن إلا ما أفاده البديع، ولا الرونق إلا ما كساه التصنيع".

وإذا كان لنا أن نستعمل مصطلح "الرصف" فى الكلام عن تركيب المفردات فإن علينا أن ننظر فى طبيعة الجملة لنرى كيف نحدد معنى الرصف النحوى الذى يوجد فى نظام بناء الجملة العربية، لا على مستوى السياق المتصل كما روينا منذ قليل عن القاضى الـجرجانى. وعلى الرغم من أن المعنى الاصطلاحى لا يتوقف تمامًا على مضمون المعنى اللغوى نجد أنه من الواضح أن الرصف النحوى يتحقق من خلال أمور يتصل كلها بتأليف عناصر الـجملة مثل التضام والرتبة والربط. لقد كان "التأليف" أحد المصطلحات التى وردت فى ما نقلناه عن القاضى الـجرجانى، ومن ثم يمكن أن نعده مرادفًا للرصف، وأن نبنى كلامنا على ما ذكرنا من وسائل بناء الـجملة منذ قليل (أى التضام والرتبة والربط) وهى مصطلحات نحوية خالصة.

فالمقصود بالتضام ما يشمل أمورًا منها الافتقار والاختصاص والوصل والذكر والتلازم والمناسبة المعجمية والذهنية والتنافى إلخ. والـمعروف أن الافتقار يكون على مستوى اللفظ والوظيفة معًا وليس على مستوى الوظيفة فقط. فالفرق بين الموصول والمضاف مثلاً أن الموصول مفتقر إلى صلة وأن الـمضاف لايعد مفتقرًا للمضاف إليه؛ لأنه يتطلبه بحسب الوظيفة فقط. فيمكن للفظه أن يخرج عن نطاق

التركيب الإضافى إلى وظائف أخرى كالابتداء والفاعلية والمفعولية إلخ. ومن هنا توصف العلاقة بين المتضايفين بالتلازم لا بالافتقار كما سنرى بعد قليل. ومعانى الألفاظ المفتقرة وظيفية لا معجمية، فوظيفة الباء بين حروف الجر مثلاً هى الواسطة والتعدية والتعويض والإلصاق إلخ ويكون كل واحد منها بحسب السياق. وهذه المعانى الوظيفية لا تذكرها المعاجم، وإنما تذكرها كتب الوظائف النحوية كالمغنى لابن هشام والجنى الدانى للمرادى ورصف المبانى (لاحظ كلمة رصف) للمالقى، أو تذكرها المتون أثناء عرضها لمسائل النحو. ومن خصائص الألفاظ المفتقرة إلى ألفاظ أخرى ألا تستقل بالفهم وألا يوقف عليها فى الكلام إلا إذا قصد لفظها أو دل المقام أو السياق على ضميمتها، كما فى قول الشاعر:

نحن الأولى فاجمع جموعك ثم وجههم إلينا

أى نحن الذين يتحدونك، (بدليل قوله فاجمع ثم وجه) أو قوله:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

ومن صور التضام أيضًا الاختصاص، وهو أن يكون هناك عدد من الألفاظ ذات الوظيفة المشتركة فيما بينها ولكن أداء كل من هذه الألفاظ لتلك الوظيفة مرتبط بمدخول بعينه. فأدوات النفى مثلاً متعددة منها ما و لا و لم و لما ونحوها، ولكن لا ينفى الجنس منها غير "لا" ولا يدخل على المضارع فيجزمه ويحول معناه إلى المضى إلا لم ولما. والمعروف أنك إذا أردت نفى أمرين أحدهما مستقل عن الآخر قلت: (ما.... وما....) كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، إذ إن دعوى الصلب غير مرتبطة بدعوى القتل. أما إذا كان الأمران مترابطين فإن النفى يكون بواسطة (ما.... ولا....) نحو قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ (يونس: ١٦) فالدراية مرتبطة بالتلاوة. وهناك سبب آخر يدعو إلى استعمال "لا" دون "ما" فى هذه الآية وهو أن

استعمال "ما" يوهم بمعنى التعجب إذ تئول العبارة إلى "وما أدراكم به". لذلك كانت "لا" ضرورية هنا نحوًا وأسلوبًا.

والوصل من صور التضام. وهو قد يكون بين المتلازمين وقد يكون بين غيرهما. فإذا كان بين المتلازمين فإما أن يكون الوصل بأجنبى عنهما أو بغير أجنبى. ثم إن المتلازمين قد يكونان طرفى افتقار كالحرف ومدخوله والموصول وصلته، وقد يكونان دون ذلك كالمتضايفين وكالتابع ومتبوعة واسم الإشارة والمشار إليه والمفسر والمفسر والجواب وما أجاب عنه وهلم جرا. ولعل أوضح قواعد الوصل النحوى أنه لا يفصل بين المتلازمين بأجنبى عنهما. أما الفصل بغير أجنبى فهو اختيار أسلوبى شائع كالفصل بالفاعل بين المفعول وصفته فى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، وقوله جل شأنه: ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ(وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟) وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣). فقد جاء الفصل أولاً بكلمة واحدة وجاء ثانيًا بجملة معترضة وضعت فى الطباعة بين قوسين.

ومن أصول التضام الذكر ويكون العدول عنه بالإضمار (والإضمار يعرف فى علم اللغة الحديث باسم المبنى العدمى أو zero morpheme كما يكون العدول عنه بالاستتار أو الحذف أو التعذر أو الثقل أو البناء أو نحو ذلك عند وجود القرينة الدالة على المعنى والتى تعين على تقدير ما يتحقق به أمن اللبس. يقول ابن مالك:

وفى جواب كيف زيد قل دنف   فزيد استغنى عنه إذ عرف

ولو لم يستغن عن زيد لكان الجواب: "زيد دنف" بذكر زيد. وليس المراد

بالإضمار هنا وضع الضمير موضع الاسم الظاهر. فمن إضمار المفرد حذف فعل التعجب في قوله تعالى: ﴿ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ و ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بقرينة ذكره بعد ذلك مباشرة في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، أي أن السياق دل على المحذوف في الحالتين. وقد تضمر الأداة كالهمزة المقدرة في ابتداء الآية رقم ١٥ من سورة محمد إذ تبدأ بقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ على تقدير "أَمَثَلُ الجنة" على نية الاستفهام الإنكاري، فلو لم تقدر الهمزة لاستوت أحوال من في الجنة وأحوال من في النار. وقد يكون الإضمار أو الحذف منصبًا على جواب شرط بأكمله كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (يس: ٤٥ ـ ٤٦)، والتقدير: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، بدليل إلا كانوا عنها معرضين. فكل ذلك عدول عن أصل الذكر لأسباب تركيبية أو أسلوبية.

ومن صور التضام التلازم وقد سبقت الإشارة إليه، ومجا له المركبات والأبواب ذوات العلاقات الخاصة كالتبعية والإضافة ونحوهما. والمقصود بالمركبات المركب الإضافي والعددي والإسنادي والمزجي والوصفي والإتباعي وهو مثل قولك: اهلا وسهلا أو حيص بيص أو شذر مذر أو نحو ذلك. وكل عنصرين من عناصر هذه المركبات بينهما علاقة التلازم والرتبة المحفوظة بمعنى أنه لا تتحقق علاقة التلازم إلا باجتماعهما على هذا الترتيب ومن هنا تصدق عليهما أحكام الفصل بين المتلازمين.

وأخيرًا تأتي المناسبة وهي من نوعين يعد كل منهما من عناصر التضام. فأما أول النوعين فهو المناسبة المعجمية. والمعروف في نظام المعجم أن للكلم أقسامًا يمتاز كل قسم منها عما عداه بواسطة علامات ووظائف محددة، وأن الكلام ينبني على استعمال مفردات هذه الأقسام بوضعها في تتابع لابد فيه من شروط صياغية

وتركيبية معينة. من هذه الشروط أن يكون بين عناصر الجملة مناسبة من حيث معناها المعجمى، ومعنى ذلك أن كل قسم من أقسام الكلم يشتمل على ألفاظ تتوزعها حقول معجمية مختلفة يضم كل منها طائفة من الألفاظ المفردة ذات الشركة فى الطابع العام للمعنى تختلف فى هذا الطابع عن كل طائفة أخرى. فإذا أخذنا مثلاً أفعالاً مثل فهم وقرأ وأدرك وعلم توقعنا لفاعل كل منها أن يكون من حقل أسماء العقلاء؛ إذ لا يستساغ أن يقال فهم الجدار ولا قرأ الحجر ولا أدرك الجماد ولا علمت الريح، لأن بين الفعل والفاعل فى كل مثال من هذه مفارقة معجمية هى التى عبر عنها البلاغيون بقولهم: "إسناد الفعل إلى غير من هو له". هذا بالنسبة للنظرية النحوية. على أن الاعتبارات الأسلوبية العملية قد تبرر أحيانًا قبول هذه المفارقة المعجمية إذا صح نقل اللفظ من معناه المعجمى الأصلى إلى معنى آخر ليس له فى المعجم، لأن هذا النقل يستند إلى علاقة بين المعنى الأصلى والمعنى الجديد وإلى قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى. فإذا شبهنا الإنسان الغبى بالحجر بجامع الجمود فى كل ونفى الصلاحية للفعل الإيجابى عن كليهما وقامت قرينة حالية أو مقالية على أن المراد بالحجر هو ذلك الشخص فإننا نستطيع أن نقول: فهم الحجر ويتحقق التضام فى الجملة المذكورة على هذا النحو وبهذا التبرير البيانى.

أما المناسبة الذهنية فهى سبب فيما يسميه سيبويه: "المستقيم أو المحال". يقول سيبويه: "وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدًا، وسآتيك أمس" كما يقول: "وأما المحال الكذب فأن تقول: "سوف أشرب ماء البحر أمس". ومعنى هذا أن المناسبة الذهنية تحول دون التناقض وتكره تحصيل الحاصل إلا لمؤشر أسلوبى، فلا يقال: الأرض أرض والسماء سماء لعدم الفائدة. ولكن يقال: "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله"؛ لأن المعنى فله ثواب هجرة إلى الله ورسوله، والعبرة بالقرينة التى فى سياق الحديث وهى عبارة "وإنما لكل امرئ ما نوى". بل إننا لو أردنا مع توافر القرينة أن نقصد بعبارة "الأرض أرض

والسماء سماء" أن لكل من الأرض والسماء صفات تفرق بينهما فإن العبارة تكون من المستقيم لا من المحال. وشبيه بذلك ما نسمعه من الأوروبيين من قولهم: (الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان)، فقرينة استقامة الكلام هنا هى عبارة (ولا يلتقيان). وجملة القول أن المناسبة الذهنية فى الكلام أمر ضرورى لا تتحقق الاستقامة إلا به، وهو يتنافى مع التناقض وغيره من عيوب التفكير. وذلك هو الجانب الأخير من جوانب التضام الذى هو عنصر من عناصر الرصف النحوى.

نصل عند هذه النقطة إلى عنصر آخر من عناصر الرصف وهو الرتبة. والمعروف أن الرتبة نوعان: رتبة محفوظة وأخرى غير محفوظة. فأما المحفوظة فيتعلق المعنى بحفظها، ويعد انتهاكها غريبًا فى الكلام، فإذا لم تقم قرينة على المعنى المقصود فقد يئول الأمر إلى اللبس. انظر مثلاً إلى قول الشاعر:

ألا يا نخلة فى ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

فالمعروف أن الرتبة بين المتعاطفين هنا محفوظة على المستوى العرفى، وإن رحمة الله معطوفة بالواو على السلام، ولكن العبارة فى هذا البيت قدمت حرف العطف والمعطوف على المعطوف عليه. وقد يسأل سائل عن السبب فى فهم هذا التركيب مع إهدار الرتبة، والجواب أن هناك قرينة على المعنى هو كون العبارة مأثورة ومشهورة لأن كل واحد منا يرد السلام بقوله: "عليكم السلام ورحمة الله". فشهرة التركيب هى القرينة الدالة على الرتبة الأصلية. والملحوظ أن الرتبة محفوظة بين الأدوات والحروف وبين مدخولاتها، وهى محفوظة أيضًا فى المركبات وبين كل تابع ومتبوع وكذلك بين الفعل ومرفوعه. فلو تقدم مرفوع الفعل على الفعل لتحول المرفوع إلى مبتدأ خبره جملة فعلية، والرتبة محفوظ كذلك بين الضمير ومرجعه.

أما فى الرتبة الحرة غير المحفوظة فكل واحد من طرفيها صالح أن يتقدم أو يتأخر بحسب المقاصد الأسلوبية. ومن هنا كانت الرتبة غير المحفوظة مسرحًا للتنظير البلاغى فى باب التقديم والتأخير. ولعل هذا هو المقصود بمصطلح "الترتيب" الذى ورد فى النص الذى جاء فى أول هذا الكلام مأخوذًا من كتاب الوساطة للقاضى الجرجانى، أو لعله جزء مهم من فكرة ترتيب عناصر النص فى صورته العامة التى تتجاوز النظر إلى الجملة الواحدة. فالترتيب مصطلح نقدى يقابل مصطلح الرتبة فى النحو.

والرتبة النحوية غير الرتبة المنطقية، ومن ثم قد يشتمل التركيب على رتبة نحوية صحيحة مع الترخص فى الرتبة المنطقية. أنظر إلى قوله تعالى: "ثم دنا فتدلى" تجد الرتبة النحوية قائمة بين فعلين بواسطة الفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب، ولكنك إذا نظرت إلى رتبة الأحداث من الناحية المنطقية وجدت أن الدنو يترتب على التدلى ولا يسبقه، ولكنه ذكر قبله بسبب ما تطلبه الفاصلة. ومثله ما نجده فى قوله تعالى: "ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون"، إذ إن الترتيب المنطقى هو فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم. فجاء عكس الرتبة المنطقية لرعاية الفاصلة أيضًا. وهناك صورة أخرى من التصرف فى الرتبة لغرض أسلوبى، وتلك هى التى نراها فى قوله تعالى: "ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله" أى وابتغاؤكم من فضله بالنهار، وكذلك "فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا "أى فيبسطه فى السماء ويجعله كسفا كيف يشاء مع فهم الواو فى" ويجعله "بأنها على معنى" أو "ومثله قوله جل شأنه: "فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجة" فالحمل بيحيى لا يكون إلا بعد الإصلاح.

والرتبة النحوية غير الرتبة الكمية التى تقضى بتقديم أقصر ألفاظ الباب الواحد كالخبرين والحالين والمفعولين إلخ على اللفظ الأطول منهما، فإذا كانت لدينا جملة

اسمية ينعدد فيها الخبر وكان بعض الأخبار أطول من بعض فإن الرتبة الكمية تقضى بتقديم الخبر الأقصر وتأخير الأطول فإذا كان زيد يحسن قرض الشعر وكان فى الوقت نفسه كاتبًا فسبيلنا إلى التعبير عن هذا المعنى أن نقول: "زيد كاتب يحسن قرض الشعر" ولا نقول: "زيد يحسن قرض الشعر كاتب". غير أنه إذا دعا داع من ضرورات الترتيب أن يتم الترخص فى الرتبة الكمية فلا مانع من تقديم الأطول على الأقصر. من ذلك ما نراه فى قوله تعالى: "الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما"، إذ تقدمت الحال الطويلة (وهى جملة "ولم يجعل له عوجا") على الحال القصيرة (وهى لفظ "قيما"). والسبب فى ذلك أن لفظ "قيما" من شأنه ألا ينفصل عن تفسيره الذى جاء بعده مباشرة بقوله تعالى: "لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا" فهذا هو تفسير لفظ "قيما"، فلو أن هذا اللفظ تقدم بمفرده لكان فى ذلك فصل بين المفسر والمفسر ولكان من الصعب إدراك العلاقة بينهما. أما إذا تقدم اللفظ وتفسيره معا فإن الأمر سيئول إلى تقديم أطول الحالين ويرتد الأمر إلى عكس ما تقضى به الرتبة الكمية. وعلى كل حال تعد هذه الرتبة الكمية على أهميتها رتبة أسلوبية جمالية أولاً ذات أثر نحوى ثانيًا.

والثالث من عناصر الرصف هو الربط. ووظيفته إحكام العلاقة بين عناصر من الجملة لا تجمع بينها علاقة التضام، أو تجمع بينها فيكون التضام والربط مجتمعين من قبيل تضافر القرائن. والربط أنواع: ربط بالإحالة وربط بالمطابقة وربط بالأداة ألخ. والإحالة إشارة الدال إلى المدلول بصورة ما من صور اللفظ. وهذه الإشارة اللفظية متنوعة ومتعددة، فمنها إعادة الذكر والضمير والإشارة والموصول وأل والوصف. مثال إعادة الذكر:

* "إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى".

* "وإن منهم لفريقا يبوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون".

* "وبالحق أنزلناه وبالحق نزل".

* "قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير". فالألف واللام فى لفظ "الملك" المذكور اولا معناها الجنس ومن ثم يفيد هذا اللفظ بعد التكرار معنى الجنسى أيضًا ولو لم تتم الأفادة والمذكورة لتعدد معنى الملك بين الإبتاء والنزع فلم يأت الربط بالتكرار. وفى كل ذلك لا يصبح الضمير بديلاً لإعادة الذكر.

وثمة نوع من إعادة الذكر وظيفته إنعاش الذاكرة يعرف باسم التكرار، ويكون عند افتتاح الكلام بشيء طال الكلام بعده حتى أصبح تذكره يحتاج إلى شيء من إنعاش الذاكرة وهنا يلجأ المتكلم إلى تكرار مطلع الكلام ليربط به اللاحق بالسابق وذلك كما يلى:

* "ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين".

* "ولو شاء الله ما أقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد".

* "ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم".

* "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

* "فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين".

وواضح أن إعادة الذكر هى الأصل فى الإحالة على عكس ما رآه النحاة، وينوب عنها غيرها كالضمير والإشارة إلخ.

والضمائر أنواع: منها ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب. فأما المتكلم والمخاطب فلا حاجة بهما إلى مرجع؛ لأن مرجعهما الحضور نفسه. وأما ضمير الغائب فهو فى قوة الاسم الظاهر ومن ثم يصبح الاسم الظاهر مرجعًا له فى سياق الكلام. وقد بالغ النحاة فى الاعتداد بقوة الشبه بين إعادة الذكر وعود الضمير إلى مذكور سابق فى كلتا الحالتين فقالوا إن أصل الإحالة وأصل الربط أيضًا هو عود الضمير. وربما دعاهم إلى هذا القول أن الضمير قد يعود إلى منصيد غير مذكور كما فى قوله تعالى: "اعدلوا هو أقرب للتقوى" أى فالعدل أقرب للتقوى، وقوله تعالى: "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة" أى على ظهر الأرض، وهى لم يرد لها سابق ذكر. فلما لم يذكر اسم ظاهر ليكون مرجعا للضمير فى مثل هذه الشواهد قالوا إن الضمير هو أصل الإحالة. ولعل الداعى إلى العدول عن إعادة الذكر إلى استعمال الضمير أداة للربط أن إعادة الذكر قد نؤدى إلى اللبس، ففى قوله تعالى: "ونادى نوح ابنه" لو كان التركيب (ونادى نوح ابن نوح) لكان هناك احتمالان فاسدان أحدهما أن نوحا المذكور ثانيًا غير نوح المذكور أولاً. والاحتمال الثانى أن يكون لفظ "ابن" صفة لنوح الأول منصوبا على نية قطع الصفة فيكون نوح الثانى هو أبا نوح الأول. فلما استعمل الضمير فى الربط بديلاً عن الاسم الظاهر تحققت قرينتان للدلالة على المعنى: أولاهما عود الضمير والأخرى صيغة النداء بقوله تعالى: "يا بنى اركب معنا" فأُمِن اللبس. وقد يبدأ الربط بإعادة الذكر ثم يتحول الكلام إلى الربط بعود الضمير كما فى قول الشاعر:

نفس عصام سودت عصاما   وعلمته الكر والإقداما

فالضميران فى علمته وصيرته بالإضافة إلى ذكر النفس مضافة إلى عصام جعلت عصاما فى الحالتين رجلاً واحدًا.

نصل عند هذه النقطة إلى الإحالة بالإشارة. ومع أن الأصل فى الإشارة أن تفيد الحضور المادى أو العهد الذكرى نراها فى معظم أحوالها صالحة لمعاقبة ضمير الفصل للغائب. ففى قوله تعالى: "لباس التقوى ذلك خير" يمكن لضمير الغائب أن يحل محل الإشارة فيكون الخبر فى هذا الشاهد "هو خير". وفى قوله تعالى: "الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا" يمكن لضمير الفصل أن يحل محل الإشارة أيضًا، والتقدير "هم شر مكانا". بل إن الإشارة والضمير قد يجتمعان فى شاهد واحد كما فى قوله جل شأنه: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية". والمقصود بإفادة الإشارة للحضور المادى أنك قد ترى شخصًا لا تعرفه ماثلاً أمامك فتسأل عنه بقولك: "من هذا؟"، فلا يمكن فى هذه الحالة أن يحل ضمير الغائب محل الإشارة أى فتقول: "من هو؟" إلا مع افتراض وجود المرجع، كأن تفترض أن مخاطبك قد قال مثلاً: "أخيرًا وصل!" فتبنى افتراضك هذا على كلام المخاطب عند ظهور الشخص المذكور. وأما إفادة الإشارة للعهد الذكرى فذلك عند سبق كلام جرى قوله، فعند الانتهاء من قوله وإرادة استئناف كلام آخر تشير إلى الكلام السابق بقولك "هذا" أى انتهى الكلام الذى كنا نقوله، ونود أن نضيف ما يلى. وذلك كالذى نراه فى قوله تعالى: "هذا وإن للطاغين لشر مآب" إذ جاءت الإشارة لتدل على ما سبق من قوله تعالى: "هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ماله من نفاد". عندئذ جاءت الإشارة إلى هذا الكلام الذى يشرح حال

المتقين، ثم جاء استئناف الكلام لشرح حال الطاغين مبدوءًا بحرف العطف على ما سبق: وواضح أنه كان يمكن العطف بدون الإشارة بلفظ "هذا" فيكون الكلام متصلاً لا مستأنفًا أى أن اسم الإشارة "هذا" دل على إرادة الاستئناف فلا يكون للربط.

وقد تكون الإحالة بالموصول وذلك عند إرادة وصف المرجع بصفة تدل على مدح له أو ذم. وكما صحت معاقبة ضمير الغائب للإشارة تصح هذه المعاقبة أيضًا للموصول، وهذه المعاقبة هى التى دعت البلاغيين لتسمية هذه الظاهرة "الإظهار فى موطن الإضمار" يقصدون بالإظهار ذكر الموصول وبالإضمار تقدير الضمير. ومن شواهد ذلك:

* "ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون" أى ثم نقول لهم.

* "وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله" أى وقعدوا.

* "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله" أى قالوا.

* "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا" أى أجرهم.

* "أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار" أى تنقذه.

* "من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين" أى عدو لهم.

* "وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين" أى فساء مطرهم.

وكما يكون المدح أو الذم باستعمال الموصول يكون أيضًا باستعمال وصف الممدوح أو المذموم بأمور يحمد بها أو يذم، فيكون ذلك من قبيل إعادة الذكر بلفظ آخر، كما فى قوله تعالى:

* "إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله" أى مسهم.

* "الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان" أى فقاتلوهم.

* "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا" أى فمالهم.

* وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر" أى فقاتلوهم.

* "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين" أى صدوركم.

* الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت" أى فى خلقه. وقد تكون الإحالة بأل المفيدة للتعريف، وهى إما أن تدل على الجنس المطلق مع إبهام كل فرد من أفراده نحو "الرجل أقوى من المرأة" فلا تكون رابطة وإما أن تدل على الجنس النسبى كما فى قوله تعالى: "ونهى النفس عن الهوى" أى نفسه عن هواها، وإما أن تدل على العهد الذكرى كما فى قوله تعالى: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى" أو العهد الذهنى كما فى قوله تعالى: "النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم" أى هذا النبى، أو الحضورى فلا تكون فى هذا السياق الأخر رابطة.

وهنا نصل إلى الربط بالمطابقة وهى تكون فى مجالات خمسة هى الأفراد وفرعاه

والتكلم وفرعاه ثم التعريف والتنكير ثم التذكير والتأنيث ثم العلامة الإعرابية. فالمطابقة تقوى ارتباط أحد العنصرين بالآخر لما يقوم بينهما بالمطابقة من شبه. وأشهر مجالات المطابقة فى النحو العربى ما بين الضمير ومرجعه وما بين الصفة والموصوف (ويدخل فى نطاق ذلك المبتدأ والخبر والحال وصاحب الحال لأن الخبر وصف للمبتدأ فى المعنى ومثله الحال وصاحب الحال) فإذا قلنا: الطالبان المجتهدان ينجحان فثمة مطابقة فى التثنية والغيبة والتعريف والتذكير والعلامة الإعرابية. غير أن بعض المؤشرات الأسلوبية قد تحل محل المطابقة فى الكلام فتكون مقبولة مثل الالتفات من الإفراد إلى الجمع عند تعظيم المخاطب، ومن الخطاب إلى الغيبة، وكالتغليب الذى يسمح بجمع عنصرين مختلفين تحت صفة واحدة نحو "وكان أبواه مؤمنين" (أى مؤمنًا ومؤمنة)، أو وصف النكرة بالمعرفة بعد تخصيصها بصفة نكرة نحو "ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده" ونحو "وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته" أو قطع الصفة عند أمن اللبس. وهذه المؤشرات كلها معروفة ومقبولة عند النحاة وإن خالفت المطابقة.

ومن وسائل الربط الأدوات الداخلة على الجمل ومثلها حروف المعانى الداخلة على المفردات وما فى حكم ذلك. فهناك أدوات تدخل على الجملة لإفادة التأكيد أو النفى أو الاستفهام أو الشرط أو النهى أو القسم أو التعجب أو الأمر باللام والمضارع. وقد تنقل الأداة من معنى إلى معنى آخر وقد تنقل المفردات إلى معانى الأدوات، وقد تتعلق الأداة بمعنيين كإفادة "لا" النفى ودخولها على اسم الجنس، وقد تتعلق الأداة بأداة أخرى كالعطف بأم بعد الهمزة مذكورة كانت أم مقدرة. وقد تصلح الأداة لنوعين من التضام كحروف العطف التى تصلح لعطف المفردات والجمل، أو تتعلق بإعراب معين كحروف الجر والنواصب والجوازم وهكذا نرى تنوع الربط بالأدوات وحروف المعانى، فيتضح لنا أثرها فى الربط وأثر الربط فى الرصف.

دعنا عند هذه النقطة نذكر مثالاً تطبيقيًا لسوء الرصف ببيت من الشعر يقول صاحبه (وأظنه المتنبى):

فأصــــبحت بعــــد خــــط بهجـــتها كــــأن قفــــرا رســــومها قلمـــــا

وبإعادة رصف البيت يصبح:

فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها

فإذا تتبعنا سوء رصف البيت وجدناه بسبب ما يلى:

أولاً: من حيث التضام:

* فصل بين المضاف والمضاف إليه (بعد بهجتها) بأجنبى هو الفعل (خط).
* فصل بين الفعل الناسخ وخبره (أصبحت قفرا) بالأداة (كأن).
* فصل بين الفعل ومفعوله (خط رسومها) بعدد من الألفاظ الأجنبية.
* فصل الأداة ومدخولها (كأن قلما) بألفاظ أجنبية أيضًا.

ثانيًا: من حيث الرتبة:

* قدم خبر "كأن" عليها.
* قدم بعض خبر "كأن" (وهو لفظ رسومها) على اسمها.

ثالثًا: من حيث الربط:

* لم يعد هناك مجال للكلام فى الربط بعد فساد التضام.

ومن هنا ساء الرصف وأصبح المعنى صعب المنال.

التضام وقيود التوارد

كشف النحاة العرب عن صلات خاصة تربط بين بعض الأبواب النحوية وبعضها الآخر، وعرف ذلك منهم أحيانًا بالتصريح، كما فى قولـهم: "الـمضاف والـمضاف إليه كالكلمة الواحـدة" وأحيانًا بالتلميح كإضافـة لفظ فاعـل إلى الفعل بقولـهم: "زيد فاعل ضرب"، وكذلك "صاحب الـحال" و"خبر الـمبتدأ" ونحو ذلك مما يشـير إلى فهمهم للعلاقـة الـخاصة بـين الفعل والفاعل وبين الـحال وصاحبها إلخ. وكذلك عرف النحاة علاقة التنافى بين بعض الأبواب وبعضها الآخر، إما لأسباب معجمية كقولـهم: لا يـخبر بالزمان عن الـجثة، وإما لأسباب وظيفية كقولهم لا يوصف الضمير ولا يضاف، ولا يدخل حرف الـجر على الفعل، ولا حروف التنفيس على الأسماء، وهلم جرا.

ولقد حاولت فى كتابى: "اللغة العربية ـ معناها ومبناها" أن أكشف عن قيمة هذه الظاهرة "ظاهرة التضام" فى النحو العربى، فاتضح لى أنـها واحدة من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوى، شأنـها فى ذلك شأن العلامة الإعرابية والـمطابقة والربط بالضمير أو الحرف والرتبة والأداة والنغمة فى الكلام المنطوق. ومن هنا أعطيت هذه الظاهرة لفظها الاصطلاحى: "التضام" وقسمتها إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ **التلازم**: لقد جعل النحاة لكل فعل فاعلاً، فإذا لم يظهر الفاعل قدروا له ضميرًا مستترًا، وجعلوا للموصول صلة هى جملة تشتمل على ضمير يعود على

الموصول، وربطوا بين المضاف والمضاف إليه حتى جعلوهما متلازمين، وجعلوا حرف الجر مفتقرا إلى مـجروره وأنهما متلازمان، وفرضوا أن تدخل إنّ على اسمها فلا يفصل بينهما فاصل إلا أن يكون ظرفًا أو جارًا ومـجرورًا لهما معنى الـخبر. وكل حالة من هذه الـحالات تتمثل فى تلازم طرفين أطلق النحاة عليهما لفظ "المتلازمين"، وأفضل فى بعض الـحالات أن اسمى كلا من الـمتلازمين ضميمة" للآخر. ولقد ترتب على فهم النحاة للمتلازمين أفـكار منهجية متعددة لتناول الـمفاهيم النحوية. من هذه الأفكار فكرة **"الحذف"**، إذ لا ينسب الـحذف إلا لضميمة (أى لأحد عنصرين متلازمين). فـإذا ذكر أحد ركنى الـجملة دون الآخر فالـذى لـم يرد ذكره مـحذوف، وإذا لـم نتبين مفعولى "علم" بعدها بسبب وجود "أن" وما دخلت عليه، فليست أن وما دخلت عليه أصليين فى هذا الـموضع، وإنما جاءا ليسدا مسد مفعولى علم. وإذا لـم نجـد نائبًا عن الفاعل بعد الـمبنى للمجهول كما فى قوله تعالى: "ونفخ فى الصور" تصيدنا له مصدرًا من مادة الفعل وقلنا إنه النائب عن الفاعل، أو بعبارة أخـرى: رأينا هـذا الـمصدر مستحقًا للذكر ولكنه لـم يذكر.

والفكرة الثانية المترتبة على القول بالتلازم هى فكرة **الفصل**، إذ إن من صور التلازم ما يكون من حق المتلازمين معه أن يتجاورا فى نطاق الضميمة، فإن فصل بينهما فاصل لم يكن ذلك الأمر مقبولاً إذا كان الفاصل أجنبيًا عنهما. أما إذا كان الفاصل غير أجنبى فالأمر يقبل مع تسجيل ملاحظة الفصل بوصفها رخصة لا قاعدة. فمن المقبول أن نفصل بين إن واسمها بخبرها الظرف أو الجار والمجرور (لأن الخبر ليس أجنبيًا عنهما) نحو: "إن فى الدار لزيدا"، ولكن ليس من المقبول أن نفصل بأجنبى بين حرف الـجر ومـجروره، وهذا هو موقف النحاة من قول الشاعر:

سـراة بنـى أبـى بكـر تـسامى   علـى كـان المسـومة العـراب

والفكرة الثالثة المرتبطة بالتلازم هى استتار الضمير الذى لم يظهر فى حالة إسناد الفعل. وقد فرقوا بين الاستتار والحذف، فجعلوا الاستتار خاصًا بضمائر الرفع المتصلة فقط، وأطلقوا لفظ الحذف على غياب ما غاب من ضمائر الرفع المنفصلة، وضمائر النصب والجر بأنواعها والأسماء الظاهرة والأفعال والأدوات. ويلاحظ أن مفهوم الاستتار لا يعنى الانعدام. وإنما يعنى الوجود مع الاختفاء. وقد أصاب النحاة فى هذا التفريق، لأننا فى جميع حالات الاستتار الثمان يوجد الدليل على خصوص الضمير ماثلاً فى صيغة الفعل الذى أسند إلى هذا الضمير، إما من خلال المطابقة كما فى "زيد قام" أو "زيد يقوم" و"هند قامت" أو "هند تقوم" أو بدلالة حرف المضارعة نحو "أقوم" و"نقوم" وإما بتخصيص صورة الفعل بإسناد معين نحو "قم". ولكن دعاة المنهج الوصفى يودون أن يتناسوا وجود الضمير بحسب هذا المنطق السابق وأن يتكلموا بدلاً من ذلك عن السبب لا عن المسبب فيقفوا عند المطابقة وحرف المضارعة وخصوص الإسناد لا عند الضمير الذى استتر لهذه الأسباب. فمذهبهم ظاهرى، وكذلك كان ابن مضاء القرطبى.

والمفهوم الرابع المرتبط بالتلازم هو مفهوم **"الرتبة"** إذ لا نكاد نجد متلازمين فى اللغة العربية إلا بينهما رتبة إما محفوظة وإما غير محفوظة، وهذه الرتبة غير المحفوظة نفسها تحفظ عند خوف اللبس. فالرتبة محفوظة بين الفعل وفاعله، والفعل ونائب فاعله، والموصول وصلته، وبين المتضايفين، وبين الحرف ومدخوله، والتابع والمتبوع. وهى غير محفوظة بين المبتدأ والخبر بحسب الأصل، وبين الفاعل والمفعول، وبين الفعل المتعدى ومفعوله، وهلم جرا حتى ليبدو أن الرتبة من خصائص التلازم فى النحو العربى.

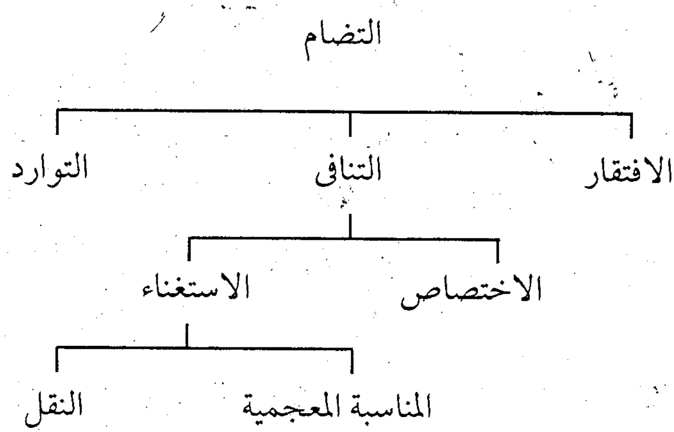
ومما له ارتباط بالتلازم مبدأ **"التقدير"**، على الرغم من أن التقدير فى النحو ليس مقصورًا على ما غاب من عنصرى التلازم. فقد نجد تقديرًا للعلامة الإعرابية والمحل الإعرابى وعود المعدول به إلى أصله وهلم جرا وهذا لا صلة له بمبدأ التلازم ولكن تقدير لفظ غائب من الفاظ الجملة دليل على أنه أحد عنصرين

متضامين وأن العنصر الآخر مذكور ووظيفته الدلالة على وجوب تقدير الآخر الغائب. وتمتد فكرة التقدير على كل ما سبق من الأمور، فهناك تقدير الحذف وتقدير الفصل وتقدير الاستتار وتقدير الرتبة وتقدير الإعراب إلخ. وهكذا يبدو أن مبدأ التلازم يكشف عن تجاذب عنصرين وعن سعى إلى ضم اللفق إلى لفقه، حفاظًا على المعنى النحوى أو إبانة له بالرجوع إلى الأصول الثابتة التى جردها النحاة.

ب ـ **التنافى**: وإذا كان التلازم قرينة وجودية فإن التنافى قرينة عدمية. ويرتبط هذا التنافى بفكرة أساسية هى ما يمكن أن نطلق عليها "السبك" (أى حسن توالى عناصر الجملة). فالتلازم يؤدى إلى حسن السبك، والتنافى يحول وجوده دون صحة التركيب ودون إمكان المعاقبة (أى حلول عنصر لفظى مكان عنصر آخر). فإذا كان لدينا عبارة مثل: "كتاب زيد" فإن لفظ كتاب فى هذا التركيب الإضافى لا يعاقبه (أى يحل محله) فعل ولا ضمير ولا أداة شرط ولا تنفيس ولا تحقيق إلخ، إذ يمتنع أن تحل الألفاظ المذكورة فى هذا الموضع. وإذا تخطينا الصورة إلى المعنى وأردنا الاحتفاظ بفكرة الإضافة المحضة امتنع على الوصف أيضًا أن يعاقب لفظ الكتاب. ومن هنا تصبح "قاتل زيد" ذات معنى مختلف عن معنى "كتاب زيد"؛ الأولى تشتمل على الحدث والزمن، والثنية تدل على الملكية. وكذلك تمتنع معاقبة حرف الجر للكتاب. ومعنى هذا ببساطة أن هناك تنافيًا بين كل من الفعل والضمير والأداة من جهة وبين موقع المضاف إليه من جهة أخرى، أو بعبارة أخرى: يمتنع أن يكون الفعل والضمير والأداة فى موقع المضاف، أو بعبارة ثالثة: ينبغى للمضاف أن يكون اسما أو وصفًا ويمتنع فيه ما عدا ذلك. وهذه العبارة الأخيرة هى الصيغة المفضلة فى التعبير عن القواعد النحوية. أى أن النحاة فضلوا أن ينصوا على الواجب، وندر فى كلامهم أن ينصوا على الممتنع، ربما لأن النص على الممتنع يتطلب التطويل فى صياغة القاعدة، واختصار القواعد مطلوب لذاته. فإذا قالوا إن "قد" تدخل على الماضى

والمضارع فتلك عبارة أخصر وأوقع وأسهل على الذاكرة من قولهم: يمتنع فى "قد" أن تدخل على الأمر وعلى الأسماء والضمائر والحروف كما يمتنع ورودها فى الجمل الإنشائية إلخ؛ وإذا قالوا: إن "إلا" تدخل على المستثنى فذلك أخصر من النص على عدم دخولها على ما عداه. ومع ذلك نجد فكرة التنافى فى النحو، وهى الوجه الآخر لمبدأ التلازم، تمثل قرينة دالة على المعنى النحوى، أو على الأصح وجها من أوجه قرينة التضام، مثلها مثل الأوجه الأخرى وهى: الافتقار والاختصاص والتنافى والمناسبة المعجمية.

ج ـ **التوارد**: المقصود بالتوارد جواز تجاور اللفظين إما على سبيل الاختصاص وإما على سبيل الاستغناء. فموقع التوارد من مخطط التضام يبدو على النحو التالى:



والمقصود بالاختصاص أن تتعدد احتمالات الألفاظ الدالة على معنى بذاته كحروف النفى مثلاً ولكن بعض هذه الألفاظ يختص بمدخول بعينه كاختصاص "لم" دون أخواتها بالدخول على المضارع من الأفعال، واختصاص النواسخ بالدخول على الجملة الأسمية، واختصاص بعض الأفعال اللازمة بأحد حروف الجر وسيلة للتعدية إلى مفعول به. أما من حيث المقصود بالاستغناء فهو أن اللفظ غير مفتقر ولا متناف ولا مختص، ولكنه فى هذه الحالة لا يخلو من حيث موقعه فى

السياق إما أن يكون بينه وبين ما يليه مناسبة معجمية وإما أن يكون منقولاً من معناه الأصلى إلى معنى آخر. ففى الحالة الأولى يصح أن يقال: "فهم التلميذ الدرس" ولا يصح أن يقال: فهم الماء والهواء؛ لأن الفعل "فهم" يتطلب فاعلاً يناسبه فى معناه المعجمى (أى عاقل صالح للفهم). وذلك هو المقصود بالمناسبة المعجمية، وعكسها هو المفارقة المعجمية. ومن شأن هذه المفارقة المعجمية أن تفسد المعنى كما رأينا فى "فهم الماء والهواء"، إلا إذا كانت نتيجة لما يسمى: "النقل". والمقصود بالنقل أن يتم إخراج اللفظ من موقعه فى القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم ويعامل معاملة لفظ من ألفاظ قسم آخر. يحدث هذا النقل لأداء وظيفة نحوية حينا ووظيفة بلاغية حينا آخر. فأما نحويًا فمثاله نقل "إذ" من الظرفية إلى المصدرية فى "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا" (أى بعد أن هديتنا)، ونقل "إلا" من الاستثناء إلى الاستدراك فى: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى" (أى لكن تذكرة لمن يخشى). وقد أعتد النحاة بظاهرة النقل فى بابى اسم العلم والتمييز دون غيرهما. وأما فى البلاغة فحسبنا أن نقرأ تعريف المجاز إذ يقول: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى".

تلك هى قضية التوارد فى مفهومها العام الذى يضع التوارد بكافة صوره فى موضع المؤشر الأسلوبى، ومن ثم يربطه بالمفاهيم التداولية وأهمها مفهوم "سياق الموقف"، وهو مفهوم يشمل كل الظروف المحيطة بالنص ماديًا ومعنويًا. فإذا تأملنا ارتباط التوارد بالمفاهيم التداولية وحاولنا أن نطبق هذه المفاهيم على الافتقار والتنافى وجدناها لا تنطبق عليهما، وعرفنا أن التوارد هو ملاذ الإبداع فى أسلوب الخطاب، لا من خلال ما ذكرنا من شأن الاختصاص، بل من خلال ما يتمتع به التوارد من جواز إجراء النقل من جهة، ثم من خلال اتصاله بفكرة سياق

الموقف من جهة أخرى. فالنقل يعين على اختيار المبنى، والموقف يعين على إجادة المعنى.

لقد عبر البلاغيون العرب عن مفهوم الموقف بلفظ "المقام"، ولكن هذا اللفظ لا يدل على فكرة دينامية متحركة يتمتع بها ويدل عليها لفظ "سياق الموقف"، بل يدل على حال ثابتة تتغير عليها الأحداث وهى لا تتغير. لاحظ مثلاً عبارات من قبيل: مقام المدح، ومقام الرثاء إلخ، إذ يتغير الموقف بتغير الممدوح ويظل المقام ينتظر ممدوحًا آخر وموقفًا آخر. ذلك أن سياق الموقف يشتمل على كل الظروف المحيطة بالنص ماديًا ومعنويًا. فمن عناصره المتكلم والسامع (أو السامعون) والعلاقة بينهما والنص المنطوق والمناسبة التى حدث فيها النطق والأثر الذى ترتب على هذا النطق إلخ فإذا سألك سائل عن الوقت احتمل هذا السؤال عددًا من المعانى المختلفة بحسب الموقف. فإذا كان السائل عابر سبيل فالمعنى هو مجرد الاستفهام فلك أن تجيب عنه دون أن يرد على ذهنك معنى آخر، أما إذا كان السائل معك فى انتظار شخص أو حدث فإنك تفهم من السؤال معنى استبطاء وصول الشخص أو حدوث الحدث. وإذا كان هذا السائل فى زيارتك فسوف تفهم من السؤال أنه يريد الانصراف. هذا هو الفرق بين المقام وسياق الموقف. وبناء على هذا الفرق لا يصلح مصطلح "المقام" أن يسلك فى عناصر التوارد. ويمكن فى ضوء هذا الفهم أن نقول إن القاعدة النحوية التى صيغت فى ضوئها الجملة المذكورة، أى البدء بعلامة استفهام بعدها اسم مستفهم عنه هى قاعدة غير مرتبطة بسياق موقف معين (إلا أن يكون الموقف هو إعداد هذا البحث). ومن هنا كانت القاعدة منتمية إلى نحو الجملة لا إلى سياق الموقف. أى أن دخول أداة الاستفهام على اسم مستفهم عنه يعد قاعدة صادقة مهما تغير سياق الموقف. أما ما تقدم من ذكر الاستبطاء وإرادة الانصراف فإن ذلك ينتمى إلى نحو النص لا إلى نحو الجملة. بهذا نستطيع أيضًا أن نفهم الفرق

بين المناسبة المعجمية بين عناصر الجملة وقد سبق ذكرها فى الجدول الإيضاحى لعناصر التضام وبين المناسبة السياقية بين النص وسياق الموقف وهى التى يترتب عليها قبول النص كاملاً أو عدمه.

ومعنى التوارد أن يصلح لفظ ما أن يرد فى صحبة لفظ آخر لمناسبة بينهما فى المعنى؛ فإذا قلنا: "جاء الربيع" فإننا نستطيع أن نضع فى مكان "جاء" أفعالاً أخرى مثل: "حل" أو "وفد" أو "أتى" بحسب الاختيار؛ فهذه الأفعال جميعًا صالحة أن ترد مع لفظ "الربيع"، وسنجد أن تواردها مع هذا اللفظ أمر اختيار يرتبط بأسلوب المتكلم فى اختيار اللفظ المناسب لسياق الموقف. وكذلك نستطيع أن نجعل فى مكان الربيع أى اسم آخر يصح فى معناه أن يكون مناسبًا للإتيان أو الوفادة. ومعنى هذا أن الجانب الذى يتعلق بالقاعدة النحوية من هذه الجملة هو جانب التلازم بين الفعل والفاعل فلو لم يذكر أحدهما لدعت القاعدة إلى تقديره، وهذا أمر لا يترتب على سياق الموقف. وأما الجانب الخاص بالتوارد فلا يتعلق بالفعل والفاعل فى عمومها، وإنما يتعلق باللفظين "جاء" و"الربيع" بخصوصهما. وإذا كان الأمر يتعلق بالألفاظ لا بالأبواب فذلك أمر أسلوبى لا نحوى. من هنا كان التوارد قائمًا فى وسط المسافة بين النحو والأسلوب، وكان عونًا على أمن اللبس كما سنرى. ولأن التوارد مرتبط بسياق الموقف لابد أن يخضع لطائفة من القيود سواء فى حال قربه من النحو أم فى حال ارتباطه بسياق الموقف. وسنحاول فيما يلى أن نشرح المقصود بقيود التوارد.

١ ـ **لا حذف إلا بدليل**: هذا ما قاله النحاة، فإذا وجد دليل الحذف أمكن تقدير المحذوف. وفى ذلك يقول ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد من عندكما

وفى جواب كيف زيد قل دنف ... فزيد استغنى عنه إذ عرف

وإنما جاز أن نكتفى بقولنا: "زيد" دون إيراد العبارة التامة: "زيد عندنا" لأننا عرفنا المحذوف (وهو "عندنا") من الدليل الذى دل عليه فى السؤال السابق على الجملة التى اشتملت عليه (وهى "من عندكما"). فحين ورد لفظ "عند" فى السؤال استغنى عنه فى الجواب، وكذلك أمكن أن نحذف لفظ "زيد" من الجملة التامة: "زيد دنف" لأن هذا اللفظ نفسه ورد فى السؤال القائل: "كيف زيد" فكان دليلاً على المحذوف. وهكذا قدم السياق لنا دليلاً أمكن أن نعتمد عليه فى حذف أحد المتواردين. ومعنى أن الدليل قيد أنه لولاه ما جاز الحذف، لأن الحذف بلا دليل يؤدى إلى اللبس.

٢ - الإفادة قيد للابتداء بالنكرة: من قواعد النحاة ما عبر عنه ابن مالك بقوله:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة   ما لم تفد كعند زيد نمرة

والمعروف أن المبتدأ هو موضوع الكلام، والنكرة غير معروفة على وجه التحديد، والمجهول لا يصلح موضوعًا للكلام، لأن الكلام عنه خلو من الفائدة. ومن ثم جعل النحاة الجملة بعد النكرة صفة لها تعين على تخصيصها والقرب بها من التعريف. ولم يجعلوها حالاً منها لأن المجهول لا حال له (أى أنه لا ينسب إلى حال معينة). والابتداء بالنكرة فى عمومه مؤد إلى اللبس لهذا السبب. ولكن ثمة أنواعًا من السياق عدها النحاة من قبيل المبتدأ والخبر لأن النكرة فى هذه الأنواع تحمل قدرًا من التخصيص يقربها من التعريف. فإذا كان القصد فى أساس الكلام هو التعميم فخير ما يناسب المبتدأ فى هذه الحالة أن يكون نكرة كما فى قوله تعالى: "وكل فى فلك يسبحون". وقد توصف النكرة فيلحقها التخصيص كما قلنا، وقد يتقدم عليها ظرف أو جار ومجرور فتكون كالفاعل لما تعلقا به، وقد تضاف إلى نكرة أخرى أو توصف بها كما فى قوله تعالى: "ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده" وقول المصلى عند إقامة الصلاة: "وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته"، وقد تكون

جوابًا عن سؤال فتصبح مفيدة فى ضوء هذا السؤال مثل: "من عندك؟" فتقول: "رجل" أى رجل عندى، وهلم جرا. فقيد التوارد بين لفظ النكرة ولفظ الخبر هو الإفادة.

٣ ـ **سياق الموقف قيد لتوارد الحرف مع الفعل اللازم**: يقسم النحاة الفعل إلى متعد ولازم ويقولون إن اللازم يتطلب حرفًا من حروف الجر يصل به إلى مفعوله. وليس كل حرف صالـحًا لفعل بعينه، فمن الأفعال ما يضام حروفًا خاصة ترد معه، ومنها ما يصلح لطائفة منها، ومنها ما يصلح لها جميعًا. وإنما يكون توارد الفعل والحرف مقيدًا بالسياق فى جميع الحالات. فإذا أخذنا الفعل "رغب" مثلاً أدركنا فارق المعنى بين اقترانه بالحرف "فى" أو "إلى" أو "عن"، مما يدل على أن كل واحد من هذه الحروف يرد مع هذا الفعل فى سياق بعينه. وإذا أخذنا الفعل "جلس" وجدناه صالـحًا للتوارد مع طائفة كبيرة من الحروف كما يبدو فيما يلى: جلس منه مجلس التلميذ ـ جلس إليه يومًا كاملاً ـ جلس على كرسيه ـ جلس فى منزله ـ جلس بمنزله ـ جلس معه لساعة من الزمن ـ جلس حتى الملل ـ جلس كى يتعلم ـ جلس وقارعة الطريق ـ جلس كالسيد من عبيده ـ جلس عن تعب شديد ـ وهلم جرا. حتى الظروف تتخصص مع الأفعال فيتقيد تواردها معها. فنحن نقول: "جلس عند باب البيت" ولا نقول: "جلس حول البيت". ومغزى كل هذا أن هناك قيودًا على توارد الأفعال اللازمة مع الحروف والظروف، وأن هذه القيود ترجع فى جملتها إلى السياق.

٤ ـ **الإفادة قيد على إضافة "أى" إلى المعرفة**: وفى ذلك يقول ابن مالك:

ولا تـــــضف لمفـــــــرد معـــــــرف
أيـــــا وإن كـــــــررتها فأضـــــف
أو تـــنو الاجـــزا واخصـــصن بالمعـــرفة
موصـــولة أيـــا وبـــالعكس الـــصفة

وإن تكن شرطًا أو استفهامًا
فمطلقا كمل بها الكلاما

فالإفادة تتحقق بالتكرار لأن التكرار يجعل المكرر كأجزاء الشيء الواحد، فتصبح "أى" كأنها دخلت على نية التجزئة، فتقع تحت قول ابن مالك السابق: "أو تنو الاجزا"، وبذا تكون على معناها الأصلى. وإذا كانت موصولة فهى غير مضافة إلى معرفة على الحقيقة، بل هى مضافة إلى صدر جملة (إن صح هذا التعبير) أى إلى مبتدأ حذف خبره. أما إذا كانت للشرط فإن مدخولها يكون جملة الشرط كلها وليس هو المعرفة التى أضيفت إليها فحسب، وكذلك الحال فى الاستفهام. وهكذا تتحقق الإفادة فى جميع الأحوال. أما إذا لم تتحقق الإفادة على النحو السابق فإن إضافة "أى" إلى المعرفة ممتنعة. وواضح أن الإفادة هنا مرتبطة بالسياق، وارتباط القاعدة بالسياق دليل على أنها قاعدة فرعية، وأن الأصل فى "أى" أن تضاف إلى النكرة، وأن لتواردها مع المعرفة قيودًا.

٥ ـ **للإخبار بالزمان عن المادة قيود:** وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ابن مالك بقوله:

ولا يكون اسم زمان خبرا عن جثة وإن يفد فأخبرا

ذلك بأن كلا من الخبر والحال والنعت وصف لصاحبه فى المعنى، وأن الأصل فى كل منها أن تأتى بصيغة الوصفية (أى بصيغة اسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة إلخ) وإذا كان المبتدأ يتطلب وصفًا من حيث اللفظ والمعنى كما ذكرنا فإن الزمان لا يحقق هذا المطلب للمبتدأ الحسى. ولذلك لم تكن جملة "زيد اليوم" مفيدة كإفادة "زيد عندك"، لأن "عند" ظرف مكان، والمكان حسى بنبئ عن علاقة حسية. ومن ثم تكون جملة "زيد عندك" فى قوة قولك: "زيد مجاور لك". أما الزمان فهو وعاء الأحداث وليس كالمكان وعاء للأجسام. ومن ثم رأينا الزمان

يصلح أن يكون خبرًا للمصدر كما فى قولك: "الامتحان غدا"، لأن المصدر اسم الحدث. وهذه النقطة بالذات هى مناط الإفادة التى تتحقق أحيانًا فى الإخبار بالزمان عن الجثة؛ إذ قد يكون اسم الجثة على تقدير مضاف محذوف، وهذا المضاف مصدر، فيكون الإخبار فى الحقيقة عن المصدر المقدر. فإذا قلنا: "الليلة الهلال" أو "اليوم خمر وغدا أمر" فإن التقدير: الليلة طلوع الهلال، واليوم شرب خمر وغدا حدوث أمر. ولكن هذه الإفادة لا تتحقق دائمًا، وإنما تخضع لقيود التوارد.

٦ ـ **توارد الفاء مع جواب الشرط**: ليس كل جواب شرط صالحًا للاقتران بالفاء. وليس كل جواب شرط مستغنيًا عن الفاء. دعنا أولاً نتأمل فى تركيب جملة مثل: "إن يقم زيد يقم عمرو" لنجد أننا إذا ألحقنا الفاء بالجواب هنا تغير معنى الفاء إلى العطف، وبذلك تصبح الجملة ناقصة تتطلب الجواب. وكذلك الأمر فى "إن قام زيد قام عمرو". ثم دعنا ننظر بعد ذلك إلى جملة مثل: "من جاءنى فله هدية" مع تصور حذف الفاء من الجواب، فلو حذفت الفاء هنا لتحولت جملة الجواب إلى معنى الحال، وبذلك تصبح الجملة ناقصة أيضًا تتطلب الجواب. من هنا وضع النحاة "قيود توارد" للفاء نظمها بعضهم لبيان ما يستدعى دخول الفاء من الأجوبة، فقال:

اسمية طلبية وبجامد وبما ولن وبقد وبالتنفيس

فأيما جملة من هذه التى وردت فى هذا البيت وقعت موقع جواب الشرط وجب اقترانها بالفاء.

٧ ـ **"حتى" لا تجر إلا آخرًا أو متصلا بالآخر**: وهذا هو تواردها مع مجرورها. فلا يقال: "قرأت الكتاب حتى لم أفهم موضوعه"، وإنما يقال: "قرأت الكتاب حتى فهمت موضوعه". فالفهم يصلح أن يكون غاية للقراءة دون عدم الفهم. وفى هذا القيد ربط بين القاعدة والسياق.

هذه أمثلة قدمتها لبيان قيود التوارد في إطار القواعد الفرعية في النحو. وليس هذا هو المجال الرئيسى لقيود التوارد. فالمجال الواسع لملاحظة سلوك الكلمات فى ضوء قيود التوارد هو حقل البلاغة، والبيان من بين فروعها بصفة خاصة. فالمعروف أن هذه الكلمات ذات معان أصلية أعطيت لها بأصل الوضع، يضاف إلى ذلك أن كل لغة تشتمل على حقول مختلفة من الدوال يتناسب كل حقل منها مع الدوال من حقل آخر فترد هذه مع تلك فى نطاق الجملة وتابى التوارد مع دوال حقل غيره. وقد سبقت الإشارة إلى هذه الفكرة من قبل مع بيانها بمثالين هما: فهم التلميذ الدرس" و"فهم الماء الهواء". ولعل هذه الظاهرة تكشف عن أن المعجم الذى حالت المناهج اللغوية الحديثة بينه وبين أن يكون نظامًا كما كانت الأصوات والصرف والنحو هو فى الحقيقة نظام يشتمل على أنظمة فرعية هى هذه الحقول التى يتفاعل بعضها مع بعض كما تتفاعل الأنظمة الثلاثة السابقة بعضها مع بعض(*).

فالذى يبدو لى أن الحقول الكبرى فى المعجم هى: المسميات، والأحداث، والعلاقات. وكل منها يشتمل على حقول فرعية، فالمسميات مثلاً منها حقل الأحياء والجوامد ومن الأحياء العاقل وغير العاقل ومن غير العاقل الحيوان والنبات، ومن الجوامد الصلب والسائل إلخ. وكل حقل من هذه الحقول يناسبه حقل من الأحداث دون غيره فالإنسان يتكلم ويفهم ويعمل ويقرأ وغيره من المسميات لا يستطيع ذلك ومن هنا نصل إلى حقل العلاقات وهو يقتصر على علاقتين هما: المناسبة والمفارقة، وتحت كل منهما علاقات فرعية تعبر عنها الحروف والأدوات كالسببية والاستدراك والإضراب والاستثناء إلخ. فإذا نظرنا إلى جملة مثل: "جلس زيد على الكرسى" وجدنا "جلس" تنتمى إلى حقل الأحداث، ووجدنا "زيد" و"الكرسى" ينتميان إلى حقل المسميات، ثم وجدنا أن اللزوم الذى فى "جلس" والاستعلاء الذى فى "على" من قبيل العلاقات.

(*) هذا تصحيح لفهم وضع المعجم الذى سبق فى الكلام عن منهج النحاة العرب وقد سبق. (انظر ص ٣٦)

هذا النوع السابق من العلاقات يفهم فى نطاق النحو. وهناك نوع آخر من العلاقات لا يمثل نظامًا لأنه يقوم بين المفردات المعجمية لا بين الحقول. فقد يكون بين الكلمتين علاقة الترادف أو علاقة التضاد أو التناقض أو العكس أو الكلية أو البعضية أو مجرد المغايرة إلى غير ذلك مما لا يمكن ضبطه فى عجالة مثل هذا المقال. ومن التشابك بين العلاقات النحوية والمعجمية تنشأ شبكة وثيقة الاحتباك من احتمالات التعبير ومحاذيره، بعض حلقاتها واضح المعالم، وبعضها يحتمل الترخص على نحو ما شرحنا فى كتاب: اللغة العربية ـ معناها ومبناها، وكذلك فى كتاب البيان فى روائع القرآن.

فأما من الناحية النحوية فإن كل حقل من الأحداث يناسبه حقل من المسميات، فالقول (وهو حدث) يسند إلى لفظ من حقل المسميات الناطقة (وهذا هو المقصود بقول البيانيين: إسناد اللفظ إلى من هو له). ومن هنا يصح أن يقال: "قال زيد" ولا يصح أن يقال: "قالت الصخرة" ولا "قالت المروءة". وللركوب وهو حدث أيضًا حقل يناسبه من المسميات، فلا يصح أن يقال: "ركبت السماء" ولا "ركبت البئر". ومن حق النوم أن يسند إلى من يصح منه النوم، فلا يصح أن يقال مثلاً: "نام الحرف على القلم". ولكن مشكلة التباين بين الحقول تجد حلاً لها أحيانًا فى ظاهرة "النقل" التى سبقت الإشارة إليها عند شرح الجدول الإيضاحى لقرينة التضام. وقد أشار النحاة إلى فكرة النقل فى بابى اسم العلم والتمييز، فقال ابن مالك فى اسم العلم:

ومـــنه مـــنقول كفـــضل واســـد وذو ارتجـــــال كـــــسعاد وادد

وقال فى باب التمييز:

واجـــرر بمـــن إن شـــئت غـــير ذى العـــدد

والفاعـــل المعنـــى كطـــب نفـــسا تفـــد

كما أشار إليها البيانيون فى تعريفهم للمجاز بقولهم: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". والقصد من هذا النقل إسناد اللفظ إلى غير من هوله دون تورط فى مخالفة شروط التضام، وذلك بواسطة الانتفاع بفكرتى العلاقة والقرينة. ففى قوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى" كانت العلاقة هى المشابهة والقرينة أن الضلالة ليست سلعة فتشترى والهدى ليس ثمنًا فيدفع. والمجاز هو الذى مكن الشاعر محمود حسن إسماعيل من أن يقول:

سمعت فى شطك الجميل ما قالت الريح للنخيل

وهو الذى مكن المتنبى من أن يقول فى ملك الروم:

ويمشى به العكاز فى الدير تائبًا

وقد كان يأبى مشى أشقر أجردا

وهو الذى يبرر أن تسيل النفس كما يسيل الماء فى قوله أبى تمام:

تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل

ففى البيت الأول استعارة تبعية فى الفعل "قالت"، أو مكنية فى قرينة التبعية وقد بررتها فى الحالتين علاقة المشابهة التى اخترعها الشاعر إما بين هزيم الريح فى الأولى وإما بين الريح نفسها وبين إنسان يقول فى الحالة الثانية. وفى كلتا الحالتين امتنع اللبس من أن يتسرب إلى الفهم بسبب قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى. وهذه القرينة هى التى شرحناها منذ قليل بقولنا: من حق القول أن ينسب إلى مدلول ناطق. وسيقول البيانيون فى عبارة: "يمشى به العكاز" إنها مجاز عقلى لإسناد الفعل إلى غير من هو له لعلاقة بين العكاز والماشى الذى يحمله، ولقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى للجملة، وهى نسبة إرادة المشى إلى العكاز الذى لا إرادة له. وسيقولون فى إسناد الفعل "تسيل" إلى النفوس إنه مجاز مرسل وإن الذى سال فى

الحقيقة هو الدم الذى يعد سببًا فى حياة النفوس، فالعلاقة هى السببية والقرينة واضحة فى ضوء ما سبق.

ولكن مجاوزة الاستعمال الحقيقى إلى الاستعمال المجازى محدودة بما جعلناه موضوعًا لهذا المقال أى بما سميناه: "قيود التوارد". فعلى الرغم من أن المتكلم أو الأديب هو الذى يخترع علاقة المشابهة، وهى علاقة ذاتية تخييلية، فهو غير كامل الحرية فى هذا المجال. ومن هنا نقرأ القصة الشهيرة عن أبى تمام حين قال:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة   بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

فأرسل إليه أحد نقاده بغلام يحمل قدحًا فارغًا ويقول له: سيدى يقرئك السلام ويطلب منك أن تملأ له هذا القدح من ماء الحياة. فقال أبو تمام: أبلغ سيدك أننى لن أملأ القدح حتى يأتينى بريشة من جناح الذل (يشير بذلك إلى قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة"). ولو كان علم البيان معروفًا على عهد أبى تمام لكان نصيبنا الحرمان من هذا الرد الذكى، ولكن رد أبى تمام فى صورة تنبيه للسائل إلى مراجعة القاعدة البيانية التى تبرر هذا الأسلوب. أما المفارقة المعجمية التى لا تجد ما يبررها من صور النقل فتلك هى الداعية إلى رفض ما يقال من عبارات إحالة مثل: "الشمال الجنوبى" أو "أعزب يحب زوجته" أو "أحمر مائل إلى الحمرة. ومن ذلك بيت حفظناه ذات يوم يقول:

إن الكسائى وأمثاله   يرقون بالنحو إلى أسفل

مثل هذه المخالفات لقيود التوارد لا يمكن تبريرها ولن ينشأ للدفاع عنها علم كعلم البيان.

وحدة البنية واختلاف المقاربات

مقدمة:

تتوحد بنية نظام اللغة وتتعدد النماذج التحليلية التى يعرض الباحثون من خلالها هذا النظام. وإنما أتى تعدد هذه النماذج من قبل الأسس النظرية التى يبنى عليها هؤلاء الباحثون أعمالهم. فمنهم من ينطلق من بداية فلسفية فيرى اللغة كيانا فلسفيا، ومنهم من يبدأ من المنطق فيراها فكرا منطقيا، ومنهم من يخضعها للدين فيسخرها له، ومنهم من يراها كائنا طبيعيا ينمو ويضمحل، ومنهم من يراها مظهرا لتصورات ذهنية فلا تخضع للوصف ولا للتقعيد، وإنما يقال عنها ما يَخْضَع للوصف وللتقعيد.

ويتجلى اتحاد البنية واختلاف المقاربة فى عدد من الأمثلة التى منها ما يتصل باللغات الأوزبية التى أخذت نموذج درسها عن ما وضعه نحاة اللاتينية، ثم تحولوا عن هذا النموذج اللاتينى إلى نماذج أخرى تخضع لتطور الدراسات اللغوية الحديثة. وإذا نظرنا إلى النماذج المختلفة التى بناها اللغويون للغة الإنجليزية فى الوقت الحاضر وجدنا عددا من هذه النماذج يسود جنبا إلى جنب فى أوساط اللغويين الأمريكيين وإن خضع مجموع النماذج على اختلافها للفكرة التوزيعية أو تفرع عنها. أما فى الدراسات العربية فقد اختلف النموذج الكوفى عن النموذج البصرى، وجاء هذا الاختلاف فى مجال الأصول كما جاء فى مجال الفروع. فلقد اختلفت المدرستان البصرية والكوفية حول عدد من الأصول مثل: "القليل لا يعتد

به" و"الأصل فى حروف الجر ألا تعمل مع الحذف" و"لا يجوز إضافة الشىء إلى نفسه" و"عوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال" و"الحمل على الجوار كثير فى كلامهم"... الخ. ومن شاء أن يظفر بحشد من أمثلة اختلافهم حول الأصول فليلتمس ذلك فى كتب الخلاف. وأشهرها كتاب الإنصاف لابن الأنبارى، وكتب معانى الحروف والادوات مثل: مغنى اللبيب لابن هشام والجنى الدانى للمرادى ورصف المبانى للمالقى. وقد أضاف كتابى: "اللغة العربية معناها ومبناها" نموذجا آخر إلى نماذج النحو العربى سنعرض له فيما بعد بالتفصيل على قدر ما تسمح المسافة المخصصة لذلك فى هذا العرض.

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة من بين هذه النماذج ما دامت تختلف فى مآخذها وتتباعد كبعد ما بين التأويل وظاهر النص. وإن كفاءة أى واحد من هذه النماذج إنما تنبع من قربه من الوفاء بالشروط العلمية التى تعارف عليها الباحثون مثل الموضوعات المتمثل فى الخضوع لمبدأ الحتمية وتجريد الثوابت، ثم التماسك المتمثل فى الاعتماد على التقسيم والحرص على عدم التناقض، وأخيرًا الاقتصاد المتمثل فى التقعيد والاستغناء بالأقسام عن الخوض فى المفردات. تلك هى خصائص العلم المضبوط، أو "الصناعة" كما تسمى فى تراثنا العربى. والنحو صناعة كما يقول النحاة، فلابد أن تتحقق له الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد. وقد يؤدى اختلاف المقاربات إلى أن يتحقق له بعض الشروط المتقدمة دون بعض؛ فقد يتحقق له الأكثر دون الأقل، أو الأقل دون الأكثر، ومن هنا تختلف النماذج قربا وبعدا عن الصورة المثالية للنموذج فتتفاوت حسنا وسوءا (أى من حيث ما يسمونه elegance:) ومما يوضح التفاوت فى تحقق هذه الشروط ما نعرفه من فارق بين النحو وفقه اللغة. فالنحو صناعة لأنه يتناول ثوابت الأفكار والأقسام؛ وفقه اللغة ليس من قبيل الصناعة، لأنه يبحث فى المتغيرات ومفردات الظواهر؛ إذ يتناول علاقة اللفظ المفرد باللفظ المفرد والظاهرة المفردة بالظاهرة المفردة. كما يتناول علاقة اللفظ المفرد بالمعنى المفرد، أما المعجم فإنه من خلال الاستشهاد يتناول علاقة اللفظ المفرد بالاستعمال. ثم يعتمد فى رؤيته لأصل الوضع وأصل الاشتقاق على نظام

الأصوات ونظام الصرف، وفى رؤيته للحقول المعجمية على الإرهاص بتركيب السياق. هذه المناسبات المذكورة تجنح بالمعجم إلى أن يكون نظاما لا أن يكون مجرد رصيد من المفردات.

فإذا وضعنا هذه الحقائق نصب أعيننا علمنا أن اللغة العربية التى وصفها النحاة القدماء لابد أن تبقى عندما يتناولها المحدثون بالبحث هى البنية التى وصفوها فى الماضى بذاتها فى الوقت الحاضر دون أن تتأثر باختلاف النماذج والمقاربات بين الماضى والحاضر. وسأحاول فى الصفحات التالية أن أعرض النموذج البصرى الذى لخصه كتاب سيبويه، ثم أعرض نموذج كتاب اللغة العربية ـ معناها ومبناها ١٩٧٣، ثم أنتهى إلى عرض النموذج التحليلى مطبقا على اللغة العربية مأخوذا من كتاب Aspects لنوعام تشومسكى ١٩٦٥. وبذلك أرجو أن أضرب المثل لمحاولات إعادة وصف اللغة العربية فى ضوء علم اللغة الحديث.

النموذج البصرى:

بنى النموذج البصرى على أسس منهجية معينة يمكن تلخيصها على النحو التالى:

١- الكلمة. ومن ثم كانت هى النواة التى دارت حولها الدراسات الصرفية والمعجمية. أما فى الصرف فقد حددت صيغها واصولها وزوائدها وما يلحقها من الإجزاءات المستخدمة من أجل طلب الخفة من إعلال أو إبدال أو نقل أو قلب أو حذف أو زيادة... إلخ. والمعروف أن النظام الصوتى قد أمد الصرف بكثير من الحقائق التى استعان الصرف بها فى دراسة الكلمة. وإنما وقع أختيار النحاة على الكلمة دون الصوت المفرد ودون المقطع دون المتلازمين لأن الكلمة بحكم تعريفها لفظ مفرد (بخلاف المتلازمين) يدل على معنى مفرد (بخلاف الصوت والمقطع). وهكذا يبدو أن فكرة الإفراد هى التى اعانت على بناء الجملة على الكلمات دون غيرها من وحدات التحليل. أصف إلى ذلك أنها تمثل صيغة مفردة مجردة، وانها صالحة لأن تلحق بها الزوائد، وأنها مسرح لقرينة

الإعراب التى كانت أهم ما عنى به النحاة. فالإعراب عندهم أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل فى آخر الكلمة. وإذا كانت أواخر الكلمات تختلف بحسب المعانى فلا شك أن الكلمة تصلح لأن ينسب إليها استقلال فى بنية اللغة لا يمكن أن ينسب مثله إلى الصوت أو المقطع. بل لا يمكن أن ينسب مثله إلى المتلازمين؛ لأن الإعراب لا ينسب إليهما معا، ومن ثم لا يصلحان معا كما رأى النحاة أن يكونا وحدة تحليلية قائمة بذاتها. ثم إن الكلمة مع ذلك يمكن تقديمها وتأخيرها كما يمكن أن تضامّ الكلمات الأخرى أو تنفصل عنها. وبذلك كله يتحقق وجودها النظرى بوصفها وحدة تحليلية.

٢- وللكلم عند البصريين أقسام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، وأن التقسيم مبنى على أساسين أولهما اختلاف المعنى والثانى اختلاف المبنى. فأما من حيث المعنى فالاسم ما دل على مسمى والفعل ما دل على حدث وزمن والحرف ما دل على معنى فى غيره. وأما من حيث المبنى فالأمر واضح فى قول ابن مالك:

بالجـــر والتنويـــن والنـــدا وأل ومسنـــد للاســـم تمييـــز حصـــل

بتـــا فعلـــت وأتـــت ويـــا افعلـــى ونـــون أقبلـــن فعـــل ينجلـــى

سواهما الحرف كهل وفـى ولم ... ...

ومع التسليم بأن مثل هذا التقسيم ينبغى أن يأخذ فى اعتباره المعنى والمبنى معا على حد ما صنع النحاة البصريون يحسن أن نشير هنا إلى أن النحاة أحسنوا اختيار المبدأ ولكنهم قصروا بعض الشيء عند التطبيق؛ لأن الاسم فى تقسيمهم اشتمل على أمشاج من الكلم بينها اختلاف مهم جدا من حيث المبنى؛ إذ لا يدل كل اسم عندهم على مسمى؛ لأن المصدر يدل على الحدث، والوصف يدل على موصوف بالحدث، والضمير يدل على مطلق حاضر أو غائب، والظرف يدل على اقتران حدثين، وأسماء الأفعال تدل على استعمال إفصاحى إنشائى للغة. وهكذا نجد أن هناك طوائف من الأسماء لا تدل على مسميات. أضف إلى ذلك أن الحرف لا يدل على معنى فى غبره وإنما يدل على علاقة من العلاقات الرابطة لأوصال الجملة. فله

معنى وظيفى يعرف به ويساق له وينسب إليه. وحسبنا أن نعلم أن النحاة أنفسهم نسبوا المعانى إلى الحروف، وأن نقرأ قول ابن مالك:

على للآستعلا ومعنى فى وعن　　　بعن يجاوزا عنى من قد فطن

... ... الخ

والأمر من حيث المبنى كذلك يبدى لنا بعض المفارقات. فالضمائر لا تقبل التنوين، وبعضها لا يقبل النداء، ولا تدخل عليها "أل"، وإن دخل عليها حرف الجر لم تظهر عليها علامة الجر. وكذلك الحال فى الظروف وأسماء الأفعال. ولقد عد النحاة النواسخ من بين الأفعال وهى غير متصرفة تصرفا تاما فى معظمها وبعضها يأبى علامات الأفعال. وهذا وغيره مما يمكن الاطلاع عليه فى كتاب: "اللغة العربية ـ معناها ومبناها ص ٨٢-١٣٢.

٣- حين لاحظ النحاة عدم اطراد صور الاستعمال أدركوا أن محاولة بناء القواعد على أمور غير مطردة أمر غير مفيد بل غير ممكن. فكيف يتبادر إلى ذهن من لا يعرف العربية أو أن الميم التى يسمعها فى نطق لفظ "ينبغى" مثلا أصلها النون. وأن الأستعداد لنطق الباء بعدها جعلها تأتى فى صورة الميم؟ وكيف له أن يعرف أن هذا النوع من الإرهاص بنطق الصوت التالى أدى إلى ما يشبه ذلك فى ألفاظ مثل: "ينفع" و"ينظر" و"ينقل"؟ بل كيف يتصوران الأفعال الدالةعلى الأمر مثل:

"استخرج" و"ق" و"ره" تحتاج فى فهمها إلى إجراء تحول عن أصل ما؟ بل كيف يمكن له أن يضع لفظ "دنف" فى "زيد دنف" فى مفهوم حوار واحد مع لفظ "دنف" فى جواب "كيف زيد"؟ من هنا كان لابد أن يلجأوا إلى مبدأ الطرد فى تناول مادة الدرس، وأن يجردوا الأصول وقواعد العدول.

كان ذلك هو الحل. فلقد اخترع النحاة أصل الوضع وبنوا النحو على هذا التأصيل(استصحابا أو عدولا) فالذى يقرأ باب الإدغام فى كتاب سيبويه يجده يتكلم عن الأصول والفروع، فيعد الأصول تسعة وعشرين ويجعل لها فروعا تصلح

فى قراءة القرآن، وفروعا أخرى لا تصلح لذلك. وهذه الأصول هى أصول وضع الحروف التى جودها النجاة والتمسوا معرفتها عن طريق ذوق الحرف كما يسميه الخليل؛وهذا الأصل هو الفونيم فى عرف الغربيين.

ولكل كلمة أصل وضع إما أن تستصحبه (أى تبقى على صورته) كما في"ضرب" وإما ان يعدل بها عنه كما فى" ق" وهى فعل أمر من (و ق ى).

وربط النجاة بين العدول عن الأصل وبين " طلب الخفة" وجعلوا تنفيذ هذا العدول يتم بواسطة إجراءات بعينها هى الإعلال والإبدال والقلب والنقل والحذف والزيادة... الخ وربطوا بين كل إجراء من هذه وبين بيئة صوتية معينة ووضعوا القواعد الضابطة لذلك. دعنا نضرب مثلا لهذه الإجراءات وللقواعد التى تحكم كلا منها، وليكن المثال هو لفظ" لتبلونّ":

الأصل.لتبلوونَنّ: هناك قاعدة تقول: **توالى الأمثال مكروه**. وهى تنطبق على النونات الثلاث فى أخر هذا اللفظ. فيجب حذف إحدى هذه النونات.

هناك قاعدة تقول: **حذف مالا معنى له أولى**. فإذا نظرنا إلى هذه النونات وجدنا هذه القاعدة تصدق على نون الرفع دون النون المشددة الدالة على التوكيد. وهكذا تحذف نون الرفع وتصبح الكلمة (لتبلوونّ) مع بقاء النون المشددة كما هى.

هناك قاعدة تقول: **يمتنع التقاء الساكنين**: فإذا نظرنا إلى مد الواو وسكون أول التشديد وجدنا ساكنين يلتقيان أولهما واو الفاعل والثانى أولى النونين المكونتين للتشديد فإذا اردنا حذف الواو وجدنا لها معنى هودلالتها على الفاعل. غير أننا فى الوقت نفسه نجد قاعدة أخرى تقول: **لا حذف إلا بدليل**.

فإذا التمسنا دليلا يدل على جواز حذف أحد العنصرين وجدنا قبل الواو ضمة تدل عليها فحذفنا الواو لالتقاء الساكنين. وهناك يصبح اللفظ" لتبلون" ويكون قد عدل به عن أصله.

ولكل جملة أصل وضعها كما يفهم من تعريف الجزولى للكلام بانه هو: " للفظ

المركب المفيد بالوضع" فإذا عرفنا أن الجزولى كان يقصد تعريف الجملة أدركنا أن الجملة لها صورة مجردة فى الذهن عند النحاة قد يطابقها الا ستعمال فتكون مستصحبة وقد لا يطابقها فتكون عندئذ معدولا بها عن هذه الصورة الأصلية. وتتكون الصورة الأصلية للجملة على النحو التالى:

١ـ الجملة الاسمية: مبتدأ وخبر.

٢ـ الجملة الفعلية: فعل وفاعل(أونائب فاعل).

٣ـ الجملة الشرطية: أداة شرط ومعها شرط وجواب.

٤ـ جملة الأمر: صيغة الأمر ومعها ضمير إما متصل أو مستتر.

٥ـ جملة النهى: أداة نهى ومعها مضارع بعده ضمير متصل أومستتر.

وهكذا يصبح أصل الوضع أمرا ثابتا مشتملا على عناصر منها الإظهار والذكر والاتصال والرتبة على عكس ما يجرى على الجمل المستعملة من أضمار أو حذف أو فصل أو تقديم أو تأخير إلى غير ذلك من ظواهر العدول عن الأصل. ولولا ما جرده النجاة من أصل الوضع ما كان من الممكن لهم أن يبنوا قواعد مطردة لا يمكن تحقيقها فى الاستعمال اللغوى الحقيقى الذى يحول طلب الخفة دون اطراده. وكانت دعوى الطرد فى منهج النجاة سببا فى طعن بعضهم على ما خالف الأصول من أساليب الاستعمال، كالذى حدث بين ابن أبى اسحق الحضرمى وبين الفرزدق.

كان من الطبيعى مع افتراض العدول عن الأصل أن يكون هناك رد إلى الأصل ليكون ذلك من مبررات الطرد. فإن كان المعدول به عن الأصل حرفا سمى العدول إدغاما أو قلابا أو إخفاء... الخ. وإن كان المعدول به جملة سمى العدول إضمارا أوردا لإصل أو تقديما أو تأخيرا... الخ.

ويتم الرد إلى الأصل فى ضوء قواعد كالتى سبق ذكرها فى كلامنا عن عبارة" لتبلونّ"، وحين يتعلق الرد بالمعنى يسمى: " التأويل" أى جعل الفرع غير المطرد يئول إلى أصله.

٤ـ وكذلك جعل النجاة للقاعدة أصلاو سموه: " أصل القاعدة" ، وجعلوه صالحا لأن يعدل عنه إلى قواعد فرعية بشرط أمن اللبس. مثال ذلك أن القاعدة العامة تقول: الأصل فى المبتدأ التعريف وفى الخبر التنكير. ولكن هذه القاعدة يعدل عنها إذا أمن اللبس. يقول ابن مالك:

ولايجوز الابتدا بالنكرة — مالم تفد كعند زيد نمرة

ولا يكون اسم زمان خبرا — عن جثة وإن يفد فأخبرا

وهذان مثالان من عدد عظيم من حالات العدول عن القاعدة عند أمن اللبس. وهكذا إذا وقعنا على تركيب لا تنطبق عليه القاعدة الأصلية فإن امن فيه اللبس توقعنا خضوعه لقاعدة فرعية عدل بها عن أصل الوضع، وعرفنا أن مبرر الاعتراف بهذا العدول يرجع إلى وضوح المعنى وليس إلى المبنى، ومن هنا نعد الرد إلى الاصل هنا من قبيل التأويل. أما إذا كان تبرير تركيب ما راجعا إلى المبنى فإن النحاة يسمون ذلك" تخريجا" لاتاويلا. من ذلك مثلا ما دار حول قولة تعالى:" ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير" . قرأ عيسى بن عمر بنصب الطير واحتج بأن الطير معطوف على محل المنادى. أما غيره من النجاة فمع اعترافهم بقراءة النصب قالو إن هناك قراءة أخرى بالرفع، وإن الطير المنصوبة لايمكن عطفها على محل المنادى لتشابه أحكام المنادى وأحكام تابعه. والمعروف أن المنادى إذا اقترن بأل فإنه لايقبل أن تسلط عليه"يا" وإنما تتوسط" أيها" بينهما. فهذا النوع من التبرير من قبيل التخريج.

٥ـ ولقد بنى النجاة نحو هم على الاعتداد بقرينة واحدة هى قرينة الإعراب واقاموا عليها نظاما متكاملا أطلقوا عليه: " العمل النحوى" أو." العوامل النحوية"

وقسموا العوامل إلى لفظية ومعنوية، كما قسموا الإعراب إلى ظاهر وتقديرى ومحلى، وأخضعوا الظاهرة كلها لأصل الوضع. فالأصل فى الإعراب أن يكون بالحركة، أما غيرها فهو فرع عليها، وعدول عن أصلها. والأصل فى الإعراب أن

يكون للأسماء، وإعراب المضارع من قبيل العدول ومن ثم احتاج إلى علة هى مشابهة اسم الفاعل. كما أن بناء الأسماء احتاج إلى علة الشبه بالحرف، لأنه عدول عن أصل إعرابها.

لقد ظهر بين النجاة من ألقى ظلال الشك على صلة الإعراب بالمعنى، زعم أن ارتباط الإعراب بالمعنى يقع فى تأصيلات النحاة. ذلك هو قطرب الذى لاحظ توسع الشعراء فى رعاية الضرائر فنسب الحركة الأعرابية إلى طلب الخفة لا إلى رعاية المعنى. غير أن ارتباط الأعراب بالمعنى يجد شواهد صحة القول به لا يُحْصَى فى الكتاب والسنة وكلام الفصحاء من العرب. ويكفى أن نورد القليل من هذه الشواهد على صواب هذه الصلة (صلة الإعراب بالمعنى).

قال تعالى: "﴿ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ ﴾"

قال صلى الله علية وسلم: "**إن قعر جهنم لسبعين خريفًا**"

قال الفرزدق:

وعض زمان يابن مروان لم يدع … من المال إلاّ مسحتا أو مجلف

قالت العرب: " خرق الثوب المسمار" (برفع الثوب ونصب المسمار).

ومعنى هذا أن قطربا لم ينكر وجود الإعراب نفسه. ولو أنكره لقام القرآن الكريم المتواتر بإعرابه والشعر الذى لايستقيم وزنه إلا مع الإعراب شاهدين على خطل رأيه ووضوح باطله. ولو لم يرتبط الإعراب بالمعنى ماكان هناك فارق بين" هذا كاتب ساخر" (برفع ساخر) وبين " هذا كاتب ساخرا" (بنصب ساخرا). ومعنى هذا أن الإعراب قرينة من قرائن المعنى النحوى، لامراء. وأن الذى دعا قطربا إلى الوقوف هذا الموقف يمكن تفسيره على نحو أخر كما سنرى فيما بعد.

٦ـ ونظر النجاة إلى الزمن النحوى فرأوا أن الأزمنة ثلاثة: ماض وحاضر ومستقبل. وربطوا بين هذه الأزمنة وبين الصيغ الفعلية المفردة ربطا تاما، حتى لقد قالوا:"

إن الفعل يدل على الحدث بلفظه وعلى الزمن بصيغته". وكأن المضى عندهم ارتبط بالبناء على الفتح وقبول ضمائر الرفع المتصلة، ومن ثم رايناهم ينسبون الزمن الماضى إلى نعم وبئس وما أفعله وهيهات بسبب تحقق البناء على الفتح فيها، وينسبونه إلى ليس لهذا ولقبولها ضمائر الرفع المتصله، وذلك على الرغم مما يبدو فى معانى هذه الكلمات من بُعد عن معنى الزمن فى أساسه، وارتباط العبارات التى هى فيها بمعنى التو واللحظة. فإذا وجدوا أن السياق ربما أدى إلى معنى زمنى غير الذ ى نسبوه إلى الصيغة ذهبوا ينسبون المعانى الزمنية إلى الأدوات، كنسبة القلب إلى" لم "، فقالوا : " لم حرف نفى وجزم وقلب"، كما نسبوا الدلالة على الاستقبال إلى" إذا" ، فقالوا : " إذا ظرف لما يستقبل من الزمان"، ونسبوا قدرًا من الدلالة على الحضور إلى" قد" . وهكذا حبسوا الدلالة الزمنية فى النحو العربى فى هذا النطاق الضيق بسبب انشغالهم بالمفردات وبناء النحو عليها دون نظر إلى أهمية العلاقات السياقية. وسنرى بعد قليل أن الزمن فى اللغة العربية أغنى بكثير مما تصوره النحاة.

نموذج كتاب اللغة العربية(١٩٧٣):

مثلى ومثل البصريين فى مسالة أقسام الكلم كمثل رجلين أرادا وصف بنية قرية وما بها من مجموعات سكنية وطرق يخترق هذه المجموعات. فأما أحد الرجلين فإنه فى مروحية تقف به ساكنة فى جو هذه القرية. وأما الأخر(أقصد شخصى المتواضع) ففضل أن يجوس خلالها ليراها عن قرب ويرى طبيعة نظامها ووظائف هذا النظام. ولقد وجد هذا الشخص الأخر أن ما رأه الأخرون هو ثلاث كتل من المبانى يحمل فى داخله تقسيما فرعيا يختلف من حيث شكله ووظيفته حتى لقد بدا التقسيم الثلاثى فى نظره مدعاة للبس. وهنا كان الحل فى نظره إعادة التقسيم على النحو التالى:

اسم ـ وصف ـ فعل ـ ضمير ـ ظرف ـ خالفة ـ أداة.

أقام البصريون تقسيمهم على أساس من عبارة بعث بها على بن أبى طالب إلى أبى الأسود الدؤلى يقول فيها: " الكلم اسم وفعل وحرف" ثم قال له: " انح هذا

النحو يا الأسود" . أما التقسيم السباعى الذى ارتضيته فقد بدأ بالاستقراء المنهجى المنبى على أسس من المعنى والمبنى والذى انتهى إلى الاستقلال عن أسس التقسيم البصرى ونتائجه. وهناك بعض مبرراته.

١ـ أن ما سماه البصريون" الاسم " يشتمل" فى الواقع على أمشاج من الكلم يختلف سلوك كل منها عن سلوك الأخر. فإذا كانت الأسماء تعرّف بأل فإن الأوصاف(اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ التفضيل والمبالغة والصفة المشبهة) لا تكسب من" أل" تعريفا، لأ ن"أل" التى معها ليست للتعريف وإنما هى موصولة والوصف صلة لها. وإذا كانت الأسماء ذات دلالة على المسمى فإن الضمائر(والمقصود بها الموصولات والإشارات وضمائر الأشخاص) تدل على مطلق غائب أو حاضر، ولا تقبل بعض العلامات الشكلية التى تقبلها الأسماء، وتقبل الانتظام فى جداول بحسب التكلم والخطات والغيبة والأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث على عكس الأسماء.وهى تبدو أحيانا فى صورة مشبعة وفى أحيان أخرى فى صورة مضعفة، فإذا أضعفت اتصلت بالكلمة كما تتصل حروف الجر(كالباء واللام) بالكلمة. ومما ألحقه البصريون بالأسماء الظرف (انظر المقصود بالظرف فى الكتاب المذكور) وهو لا يدل على مسمى،(بل يدل على زمان أو مكان) ولا تتصل به " أل" ولا يقبل علامة الجر ولا التنوين والنداء، وهكذا.

٢ـ وإن ما سماه البصريون " الفعل" يبدو أيضا فى صورة مرقعة تحتاج إلى كثير من العناية والنظر. لقد اشتمل على التعجب والمدح والذم ولا دلالة لها على الزمن. ورصدوا للفعل علامات يأباها الكثير مما عدّ وه من قبيل الأفعال؛ فقد نسبوا الفعل إما إلى التعدّى وإما إلى اللزوم وليس فى ما سبق دلالة على تعدّ أو لزوم، وهلم جرا مما قد يرى بتفصيل أتم فى كتاب: اللغة العربيةـ معناها ومبناها(١٩٧٣).

٣ـ لم يدرك النجاة المعنى العام الذى تندرج تحته الأدوات جميعا(وهو معنى الربط والدلالة على العلاقة)، فساقوا للحرف تعريفا لا يكفى فى حد الحرف بخاصّة

وحد الأداة بعامة، إذ قالوا:" الحرف ما دل على معنى فى غيره" دون أن يذكروا طبيعة المعنى ولا طبيعة ما سوى الحرف. ومن ثم نجد أنفسنا أمام تعريف غير جامع ولامانع. أما أنه غير جامع فلأن النواسخ (وسوف نعدّها من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو النسخ، وأما أنه غير مانع فلأن الظروف الجامدة المبنية(وهى ليسب من الأدوات) تدل على معنى فى غيرها وهو اقتران حدثين.

لهذا قام نموذج كتاب اللغة العربية۔ معناها ومبناها(١٩٧٣) باقتراح تقسيم جديد للكلم إلى:

اسم ـ ووصف ـ وفعل ـ وضمير ـ وظرف ـ وخالفة ـ وأداة.

أظهر النموذج نواحي الخلاف بين كل قسم من هذه الأقسام وبين الأخر على أسس من المغنى والمبنى. وهذا التقسيم السباعى جزء لا يتجزأ من نظام اللغة العربية كما يتصوره النموذج. والمعروف أن النظام تجريد صامت ساكن غير متحرك . وأن هذا الإطار الذى يرتبط به الاستعمال يقوم من الاستعمال مقام المغنوى من الحسى، أو مقام الساكن من المتحرك، أو علاقة ما بين القانون والسلوك الفردى. والمعروف أن الاستعمال اللغوى بحكم ما له من دينامية ومن خضوع للموقف الذى يحدث فيه التكلم لا يمكن ان ينطبق تمام الانطباق على أى نموذج يمكن للباحث فى اللغة أن يجرّده تجريدا. ومن هنا ينبغى لصاحب النموذج بعد إنشاء الإطار العام للنظام أن يفسّر الظواهر المتعارضة مع هذا التأطير، وهى ظواهر المؤشرات الأسلوبية والعدول عن أصل الوضع وما إلى ذلك من مواقع ورود الوصف أو الفعل أو الظرف، وأن الوصف قد يردمورد الاسم، وان الفعل قد يرد مورد العلم. من هنا وجدت من الضرورى أن أشير إلى ظاهرة النقل التى اعترف البصريون بها فى موقعين أحد هما فى باب اسم العلم (ومنه منقول كفضل وأسد) والثانى فى بات التميز (والفاعل المعنى كطب نفسا تفد) وتوقفوا دون الكشف عن انتشارها فى النحو العربى طولا وعرضا، وفى البلاغة العربية أيضا كما فى المجاز والاستعارة، وفى استعمالات أخرى كنقل العام إلى الخاص والعكس ومن الكلى إلى الجزئى والعكس ومن اللغوى إلى الاصطلاحى وهلم جرا.

أما ما أضافه نموذج كتاب" اللغة العربية- معناها ومبناها" إلى ما تقدّم فهو أنه كشف عن نقل اللفظ من القسم الذى ينتمى أليه من افسام الكلم إلى قسم أخر ليدل بعد الانتقال على معنى غير الذى كان له من قبل. ولم يكن هذا النقل خاصا للمفردات دون تراكيب الجمل من معناه الأصلى إلى معنى أخر مادامت هناك قرينة تدل على المعنى الجديد للجملة كما يكون الأمر مع المفرد. مثال نقل المفرد فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ فالمعروف أن " إذ" من حيث تقسيم الكلم ،ظرف لما مضى من الزمان، ولكنها هنا نقلت إلى معنى الأداة المصدرية فأصبحت بمعنى" أن". ومن ذلك أيضا أن "إلا" وهى أداة أستثناء قد نقلت إلى معنى الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ . ومن أمثلة نقل نمط تركيب جملة خبرية ولكنه نقل إلى إنشاء الدعاء.

وهناك فكرة أخرى كان لابد من أن يشتمل عليها نموذج اللغة العربية- معناها ومبناها هى فكرة تعدد المعنى(الوظيفى والمعجمى) للمبنى الواحد. ولم يكن النجاة يجهلون هذا الأمر، بدليل أنه يمثل العمود الفقرى لبعض المؤلفات النحوية مثل مغنى اللبيب لابن هشام والجنى الدانى للمرادى ورصف المبانى للمالقى، وأنها أوضح ماتكون فى المعاجم إذ لا تكاد تجد كلمة مفردة ذات معنى واحد غير متعدد. لكن النجاة لم يعطوا هذه الظاهرة حقها من العناية ولم يمنحوها ما تستحقه من الاهتمام فيما عدا إشارات لم يقصد بها التنظير كقول ابن مالك:

بعض وبينّ وابتدئ فى الأمكنة ... بمن وقد تأتى لبدء الأزمنة

وزيد فى نفى وشبهه فجر ... نكرة كما لباغ من مفر

فقد عد لحرف"من" عددا من المعانى التى تتوقف دلالتها على كل منها على القرينة.أما مفردات المعجم فحسبنا أن نذكر ما يمكن أن يدل عليه لفظ مثل "ضرب" من المعابى التى يتوقف إدراكها على سياق النص، مثل: ضرب زيد عمرا

ـ ضرب الله مثلاـ ضرب له موعدا ـ ضرب له قبةـ ضرب عليه ضريبة ـ ضرب فى الأرض ـ ضرب عددا فى عدد أخر ـ ضرب أخماسا فى أسداس، وغير ذلك من الأمثلة. وأرجو أن يكون الفرق بين ما أقصده بالمعنى الوظيفى والمعنى المعجمى واضحا من خلال ما قدمته من أمثلة.

فى رأى هذا النموذج أن اصل الاشتقاق ليس المصدر كما قال البصريون ولا الفعل الماضى المجرد كما قال الكوفيون بل هو الأصول الثلاثة التى تستعمل فى مداخل المعاجم ومن شانها ان تكون مفرقة لا متصلة حتى لا يفهم من اتصالها أن المقصود بها لفظ مكوّن منها. وأعجب لعبقرى مثل الخليل ابن احمد أذ نراه وهو أبو المعجميين يجعل الحروف المفرّقة اصلا لمفردات معجمه ثمّ نراه وهو وأس البصريين يقول إن اصل الاشتقاق هو المصدر. ولو أن الذين جردوا أصل الاشتقاق اعترفوا بان الأصل هو هذه الحروف الثلاثة(وقد سلموا بانها ترمز لفاء الكلمة وعينها ولا مها)

لكانوا اصدق مع أنفسهم؛ لأ ن كل التحليلات الصرفية بقوم على افتراض أن هذه الحروف الثلاثة هى أصول الاشتقاق. وحسبنا أن نتأمل المقصود بمصطلحاتهم مثل: المجرد والمزيد والصحيح السالم والمهموز والمثال والناقص واللفيف وفى اعترافهم بأن التثنية والتصغير تردّ الأشياء إلى أصولها. بل إن الأصول الثلاثة يعتدّ بها حتى فى مجالات تقع خارج نطاق الصرف كقواعد الإملاء مثلا إذ تفرق بين الألف اليائية والواوية فى الكتابة وهلم جرا.

والنحو شبكة من العلاقات السياقية التى تقوم كل علاقة منها عند وضوحها فى السياق مقام القرينة المعنوية التى تتأخى مع القرينة اللفظية فى إيضاح المعنى. هذه القرائن المعنوية هى: الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة، ولكل منها صور علا ئقية متعدّدة. فأما تعدد صور الإسناد فتتضح من تباين العلاقات بين عناصر تركيب الجملة الاسمية والجملة الفعلية والجملة الوصفية. ولعل عبارة" الجملة الوصفية" بحاجة إلى شئ من الإيضاح، فالمعروف أن من شان الاسم أن

يكون مسندا إليه ومن شأن الفعل أن مسند ا، أما الوصف فقد يكون دالا على الأمرين فى موقع بعينه كما فى قولك: جاء الحسن وجهه. فالحسن مسند إليه بالنسبة إلى" جاء" وهو فى الوقت ذاته مسند بالنسبة إلى " وجهه" فالجملة فى هذه الحالة الأخيرة جملة وصفية. والجملة وصفية أيضا فى" أقائم زيد" ؟

وأما تعدد صور قرينة التخصيص فتبدو فى امور منها التعدية وهى قرينة المفعول به والغائية وهى قرينة المفعول لأجله والمعية قرينة المفعول معه والظرفية قرينة المفعول فيه والتأكيد(قرينة استبعاد قصد المجاز) عن المفعول المطلق غير المشارك للفعل فى الاشتقاق. والملابسة قرينة الحال والإخراج قرينة الاستثناء والتفسير قرينة التمييز.

أما النسبة فهى قرينة الإضافة، وهى المعانى التى تستفاد من حروف الجر وقد يربو عددها على الثلاثين فى كتب النحو، وتكون الإضافة على معنى أى حرف منها وليس على معنى اللام ومن وفى دون غيرها كما قال ابن مالك:

والثانى اجرروانومن أوفى إذا لم يصلح الاذاك واللام خذا

لما سوى ذينك ... ...

فقد تكون الإضافة على معنى" عن" نحو: تجا وز الحد أو معنى"على" نحو ركوب الحصان أو معنى" إلى" نحو بلوغ المدينة أو معنى"الباء" نحو ضرب العصا، وهلم جرا.

وأما التبعية فقرينة قوامها الربط بين عنصرين من عناصر الجملة تجعلهما يقفان على نفس المستوى إزاء نواة الجملة. والمقصود بالنواة العنصر الذى يفيد الحدث فى الجملة(الفعل أو الوصف أو المصدر المضاف أو المتعدى). وهذه القرينة تشمل النعت والتوكيد والنسق والبدل والبيان، ولا ترتبط بإعراب معيّن وإن ارتبطت بالمطابقة فى الإعراب.

بقيت قرينة المخالفة، وهى تدل على معنى إنشائى كان يمكن أن يخضع لقاعدة

من قواعد الإسناد الخبرى ولكنه حين لم يقصد به الإسناد الخبرى أدت مخالفة المعنى الإنشائى للمعنى الخبرى إلى مخالفة فى الإعراب ينسب الممعنى الإنشائى بحسبها إلى المخالفة. قارن مايلى ولاحظ أثر المخالفة:

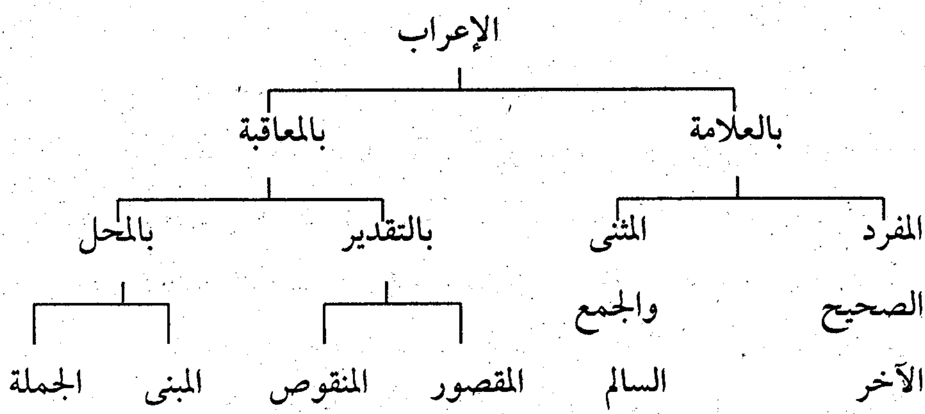
جملة ذات إسناد:	عبارة غير إسنادية:
ماأحسن زيد (برفع زيد على الفاعلية)	ماأحسن زيدا نصب على معنى التعجب
نحن العرب(مبتدأ وخبر)	نحن العرب نكرم ضيفنا(اختصاص)
فصبر جميل(على تقدير مبتدأ)	صبرا جميلا(إغراء)
عليكم خطؤكم (خبر مقدم ومبتدأ)	عليكم أنفسكم (أمر وإنذار)
سقي لك ورعى(مبتدأ وخبر)	سقيا لك ورعيا(مدح ودعاء)
كم عمةٍ لك يا جرير(للآخباروالكثير)	كم عمةً(بنصب عمة للاستفهام)
العمل العمل(بالرفع مبتدأ وخبر)	العمل العمل (بالنصب إغراء)

ولقد أجهد النحاة أنفسهم فى محاولة تخريج معظم الطائفة الإنشائية من هذه الأمثلة من خلال وجوب الحذف (وهو ينتمى إلى القرائن اللفظية)، ولم يروا أن القرائن اللفظية كما يوحى اسمها عناصر مبنوية ينتمى بعضها إلى الأصوات كعلامات الإعراب وبعضها إلى مبانى الصرف كقرينة البنية. إن الفرق بين هاتين الطائفتين يكمن فى المعنى، وليتهم سبقوا اصحاب أصول الفقه إلى فكرة" مفهوم المخالفة".

وينتمى القسم الأخر من القرائن الى السياق النحوى كالربط بقسميه(الإحالة والمطانقة) والتضام والرتبة. وسنحاول فيما يلى أن نشرح طبيعة كل واحدة من هذه القرائن.

١- القرينة الأولى هى العلامة الإعرابية، وقد سبقت الإشارة إلى موقف النحاة من الإعراب واعتدادهم به قرينة وحيدة والكلام عن غيره من القرائن حين تدعو المناسبة إلى ذلك فقط. هذا على الرغم من أن علامة الإعراب لا تظهر على المقصور ولا على المنقوص ولا على المبنى ولا على الجملة ذات المحل، ومن

شأن ذلك أن يجعل العلامة محدودة الفائدة. من هنا نشأت فكرة المعاقبة للمقصور والمنقوص وفكرة المحل الإعرابى للمبنى وللجملة الفرعية. وبدا الأمر على هذه الصورة.



فإذا كان الإعراب يصلح قرينة لفظية (أى أنه يعتمد فى دلالته على لفظ أو علامة ما) فإنه لا يعد كذلك بالنسبة لقسط كبير من المواقع السياقية، وهى مواقع التقدير والمحل، وهما الذان يعاقبان العلامة الإعرابية (أى يحلان محلها عند غيابها).

٢- والبنية الصرفية قرينة يقدمها الصرف للدلالة على المعنى النحوى، وتبدو أهميتها فى مجال الكشف عن المعنى النحوى عندما يكون الباب النحوى مشروطا بشرط بنائى خاص، كاشتراط بناء الفعل للمفعول بالنسبة لنائب الفاعل واشتراط الجمود للتمييز والمصدرية للمفعول المطلق، وكدلالة "انفعل" من الناحية الصرفية على المطاوعة ومن الناحية النحوية على اللزوم. فهى فى الحالة الأولى قرينة بنية وفى الثانية قرينة علاقة نحوية من نوع قرينة التخصيص، وهلم جرا. فهنا تكون البنية وهى صرفية قرينة على المعنى النحوى.

٣- والربط (اى إيجاد التماسك بين عناصر السياق) قرينة نحوية أيضًا، وهو يتم بإحدى طريقتين:

أ ـ بالإحالة وهى تكون بطرق متعددة ذكر النحاة بعضها ولم يذكروا البعض الآخر. فقد ذكروا من وسائل الإحالة تكرار اللفظ وتكرار المعنى وعود الضمير والإضمار و"أل" المتصلة بلفظ سبق ذكره الخ. ولكنهم لم يذكروا الربط بالموصولات (من وما وأى) نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾، وقولة تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

ولم يذكر وانعت المرجع بلفظ من الفاظ المدح أو الذم، كما فى قوله تعالى: وجل شأنه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أى فى وجوههم وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أى رأيتهم وقوله تبارك اسمه: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ أى فقاتلوهم. وقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى صدوركم. ولم يذكروا من وسائل الربط تكرار أول النص إذا طالت الشقة بين الرابط وبين المرجع كما فى قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ب ـ الطريقة الأخرى للربط هى المطابقة، ولها خمسة مجالات:

الشخص (التكلم والخطاب والغيبة)

العدد (الإفراد والتثنية والجمع)

النوع (التذكير والتأنيث)
التعيين (التعريف والتنكير)
الإعراب (وقد سبق القول فيه).

وواضع أن الربط لا يعتمد على مبنى واحد كالذى مر بالنسبة للإعراب والبنية، وإنما يتطلب عنصرين أو أكثر ليحكم الرابطة بين هذه العناصر فى السياق فيصبح السياق سهل الفهم.

٤- والرتبة بين عنصرين من عناصر النظام إما محفوظة لا تتخلف فى الاستعمال، فيعرف بها المعنى النحوى، وإما غير محفوظة بمعنى أن الأصل فى نظام اللغة أن تكون مراعاتها أحيانا وسيلة لصحة التركيب كما تكون حريتها وسيلة لإبداع مؤشرات أسلوبية. أى أنها كما تكون شرط صحة تكون وسيلة لإبداع الجمال. من هنا وجدنا التقديم والتأخير يمثل بابا مهما من أبواب البلاغة.

٥- والمقصود بالتضام أن يكون أحد عنصرين من عناصر اللغة طالبا لعنصر آخر أو قابلا لصحبته أو رافضا لها؛ من هنا نشأت المصطلحات الثلاثة: التلازم والتوارد والتنافى. فالمقصود بالتلازم افتقار اللفظ إلى لفظ آخر يلازمه فلا يرد بدونه كافتقار حرف الجر إلى مجرور والموصول إلى صلة له، ويشمل ذلك أيضا ما يعرف بالاختصاص كاختصاص "لم" بنفى المضارع. والمقصود بالتنافى عكس ذلك كعدم جواز الإخبار بالزمان عما يفيد دلالة على شىء مادى إلا عند أمن اللبس أما التوارد فإن المقصود به المناسبة المعجمية بين عناصر سياق الجملة. فلا تقبل عبارة مثل: "السماء تحتنا" لأن التوارد يلخص العلاقة بين نظام النحو وبين الحقول المعجمية، كما أن بعض الكلمات يحدد لها الاستعمال مدخولا معينا بحسب العرف لا بحسب القاعدة، فليس فى قواعد اللغة مثلا ما يحول دون إضافة لفظ"جلالة" إلى أى مضاف إليه ذى جلالة، ولكن العرف حدد المضاف إلية بلفظ"الملك" فيقال: "جلالة الملك كما أن العرف حدد بعض المركبات الإضافية والوصفية مثل: حنان الأم ـ الأم الوؤوم ـ العالم العلامة. ولكلمة" صاحب" عدد محدود من صور الإضافة مثل: صاحب الجلالة ـ

صاحب السمو ـ صاحب المعالى ـ صاحب الفخامة ـ صاحب السعادة صاحب الفضيلة ـ صاحب النيافة الخ. واحب أن اشير هنا إلى أن تشومسكي قد كشف عن جانب مهم فى علاقات التوارد لم يخطر من قبل على بال أطلق عليه مصطلح: "قيود التوارد" selective restriction " وقد ربط تشومسكى بين هذا المفهوم وبين المناسبة المعجمية ولم يربطه بالصواب النحوى.

ولعل الرتبة والتضام من أوغل القرائن فى النظرية التوزيعية لأن موقع المبنى عند التوزيعيين هو مناط التوزيع وهو إنما يكون تحديده بواسطة الرتبة والتضام وما قد يعرض لهما من معاقبة substitution (أى استبدال عنصر بأخر). ويذكر للنجاة العرب أنهم كانوا على ذكر من قيمة المعاقبة وفائدتها فى الكشف عن المعنى. وكان من عباراتهم الشائعة قولهم: إن هذا العنصر يعاقب ذاك أو لا يعاقبه. فالحرف" قد" مثلا يعاقب" سوف" ولكنه لا يعاقب" إن" الساكنة النون. هذا ما يقال فى شأن الرتبة والتضام، أما الربط فإنه يلقى أكبر اهتمام ورعاية من المشتغلين بلغويات النص فى زماننا هذا تحت عنوان coherence .

٦ـ وهناك قرينة الأداة. وكان يمكن لها أن تحتسب فرعا من قرينة البنية لأن الأداة مبنى على أى حال، لكن الأداة كما تكون قرينة على معنى مدخولها المفرد تكون قرينة معنى الجملة. وهناك نأتى مرة أخرى إلى فكرة المعاقبة لنقول مثلا إن حرف الجر" فى" لايعاقب " قد" لأ ن كلا منهما يدخل على مدخول مختلف، ويحل مواقع لا يحلها الأخر، أو بعبارة التوزيعيين: يختلف توزيعيا عن صاحبه. وهناك جمل فى العربية تتعين لها أدوات خاصة بها لتكون الأداة قرينة الحملة. وإنه ليبدو أن اختصاص الجملة بالأداة وكون الأداة قرينة على معنى الجملة هو الأغلب الأعم فى العربية؛ لأننا لا نكاد نجد جملة(فيما عدا الإثبات والأمر بالصيغة) تخلو من أن تتقدمها الأداة. فهناك أدوات تتقدم جملة النفى وجملة التأكيد وجملة الاستفهام والأمر باللام والنهى والعرض والتحضيض والتمنى والترجى والنداء والشرط الامتناعى والشرط الإمكانى والقسم والتعجب

الخ. وقد يحدث أن تحذف الجملة كلها حين يدل دليل عليها وتبقى الأداة وحدها نائية عن الجملة المحذوفة، وقرينة عليها بحكم ما بينهما من التضام، كما يظهر من عبارات مثل إلام؟ ـ علام؟ ـ ولو! ـ وإن... الخ.

٧ـ وهناك أيضا قرينة النغمة فى الكلام المنطوق، وهى قرينة مهمة لم يقلل من أهميتها عند النحاة إلا أنهم كانوا يعرفون الفصحى فى صورتها المكتوبة الصامتة. ولكننا عندما نلجأ إلى استعمال الفصحى ونتخذها وسيلة من وسائل التعبير الشعرى أو الخطابى أو المسرحى أولسينمائى تبدو قيمة النغمة من جديد فى أجلى صورها لفهم المقصود. فقد تحذف أداة الاستفهام من الجملة المنطوقة فتقوم النغمة بالدلالة على معنى هذه الجملة المنطوقة؛ كان يقوم أحد بإخبارك بواسطة الكلام المنطوق عن تطاول أحد الأشخاص على رجل معروف بالحلم ويصل المتكلم إلى نقطة من نقاط تمام المعنى فتسأل المتكلم وأنت تعجب من حلم المخاطب الجليم: " ولم يغضب" ؟ مع حذف همزة الاستفهام من أول الجملة، أى: أولم يغضب؟ وإنما أمكن حذف الهمزة فى القرآن الكريم وظل المعنى مع الحذف واضحا فى مواضع متعددة منها قولة تعالى على لسان موسى: " وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدّت بنى إسرائيل" ؟ أى أو تلك نعمة. ومثل ذلك ما فى سورة محمد(عليه الصلاة والسلام): " مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه... ... كمنهو خالد فى النار" ؟ أى أمثل الجنة كمثل من هو خالد فى النار؟ ومن ذلك أيضا قول الكميت:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولعبا منى، وذو الشيب يلعب؟

أى أوذو الشيب يلعب؟ وقول عمر بن أبى ربيعة:

ثم قالوا تحبها؟ قلت بهرا ... عدد الرمل والحصى والتراب

أى أتحبها؟

٨ ـ وهناك قرينة السياق بكل ما يشتمل عليه من الأمور الأسلوبية والتداولية. وتتضح قرينة السياق فى تحديد معنى "إن" الساكنة النون من قول الشاعر:

أنا ابن أباة ألضيم من إل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

ذلك أن ماسبقت الإشارة إليه من تعدّد المعنى للمبنى الواحد يجعل للمعنى هنا ثلاثة احتمالات: النفى ـ والشرط ـ والتخفيف من إن المشدّدة. وإذا نظرنا إلى صدر البيت وجدنا الشاعر يفخر بأبائه وعشيرته، ولو قلنا إن"إن" نافية لوقعنافى التناقض بين الفخر فى صدر البيت ونفيه فى عجزه. ولو قلنا إنها شرطية لو قعنا فى هراء اشتراط صدق الدعوى التى فى صدر البيت بضرورة صدقها فى عجزه. فلم يبق لنا إلا أن نقرر أن " إن" مخففة من الثقلية (على معنى تاكيد الدعوى)، وأن المعنى هو: وإنّ مالكا كانت كرام المعادن:

* * *

كان ما تقدّم من كلام فى كل قرينة على حدة تمهيدا للفكرة الرئيسية فى هذا النموذج، وهى فكرة" تضأفر القرائن" . لقد منح النحاة العرب واحدة من هذه القرائن (وهى قرينة الإعراب) نصيبا من العناية عظيما أخمل ذكر القرائن السبع الأخرى، فبدا النحو العربى وكأنه إعراب خالص. وقامت على الإعراب فكرة(العامل النحوى) التى رأى فيها النحاة قمة نظريتهم ويرى هذا المنهج الذى بين أيدينا أنها أكبر خدعة جازت على ذكاء النحاة العرب على مر العصور؛ وأنها لا تصمد أمام القول بتضافر القرأئن الذى جعله النموذج الحاضر تفسير اللوصول إلى فهم المعنى النحوى، ويصلح أن يكون عنوان للنموذج كله. إن المعنى النحوى لا يستعين بقرينة واحدة مهما كان خطرها، وإنما تتضافر القرائن المتعددة على بيان المعنى. فليس الفاعل فاعلا مثلا لأنه مرفوع فقط وإنما هو كذلك لأنه:

١ ـ اسم (وهذه قرينة البنية)ولو لم يكن اسما ما صلح للفاعلية.

٢ـ مرفوع (قرينة الإعراب) ولولا الرفع ماصلح لذلك.

٣ـ تقدّمه فعل(رتبة وبنية أخرى) ولولا هما ما كان فاعلا.

٤ـ مبنى للمعلوم (بنية ثالثة) ولو كان الفعل مبنيا للمجهول ما كان المرفوع فاعلا.

٥ـ ودل على من فعل الفعل أو قام به الفعل، أى تحقق الحدث من خلاله(قرينة الإسناد).

ولو أن القارئ الكريم قرأ أسماء هذه القرائن الخمس بالترتيب لوجدها هى النعريف الذى وضعه النحاة للفاعل، غير أنهم لم يجعلوا عناصر التعريف قرائن على الفاعلية. واجتماع هذه القرائن على بيان معنى نحوى واحد(معنى الفاعل) هو الذى أسميه. تضافر القرائن أى تكافلها لبيان المعنى الواحد.

وواضح ان التضافر يغنى عن القول بالعامل النحو ى كما سبق أن أشرنا. والبديل الوحيد لقصر الاهتمام على الإعراب والتخلى عن تضافر القرائن هو أن نقيم لكل قرينة على حدة نظرية خاصة بها تضبط سلوكها؛ وذلك أمر يأباه الاقتصاد المنهجى فى البحث العلمى. وخير من ذلك أن نجعل القرائن حزمة واحدة فيكون بيان المعنى راجعا إلى اجتماعها وتضافرها، فلا فضل لواحدة منها على الأخريات بحيث تستحق تنظيرا إضافيا يحمل ذكر ما عداها. وليس الخير فى الصمت عن ما يشتمل عليه النص العربى من اثر القرائن الأخريات إلا عند الضرورة القصوى كذكرهم قرينة الرتبة عند تناولهم لعبارة: "ضرب موسى عيسى" وتقدير المحذوف من قول

الشاعر:

نحن الأول فاجمع جمو ... عــك وجهـــهم إليـــنا

أوعدم المطابقة فى قوله:

فمن يك أضحى بالمدينة رحلــه ... فإنى وقيـــار بها لغريـــب

أوحذف الرابط فى قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها ... ...

وهلم جرا. ولكنهم لم يتصوّروا تضافر القرائن من أجل بيان المعنى،ولم يجعلوه جزءا من نموذجهم.

يتفرّع على القول بالتضافر مبدأ أخر يذهب بكل ماجاء به النحاة من طعن على العرب الفصحاء، ويرد الا عتبار للقراءات الموسومة بالشاذة وذلك هو: "مبدأ جواز الترخص فى القرينة عند امن اللبس" وهو مبدأ ربما ورد ذكره فى التراث تحت عنوان: " التوسع" أو" الضرورة" أو" التوهم " أو غير ذلك من المصطلحات التى تجتمع تحت عنوان: " الرخصة" أو" الترخص" . وقبل أن نشرح المقصود بهذا المبدأ ينبغى أن نقول إ نه مقصور على كلام الفصحاء دون غيرهم، فإذا طبقه المعاصرون منا دخل فى غمار الخطأ. بهذا يكون المقصود بالتنظير لهذا المبدأ تفسيرما خالف القاعدة النحوية من نصوص التراث وليس دعوة المعاصرين لانتهاك قواعد النحو العربى.

من أصول النحو قاعدة تقول: " الرخصة مرهونة بمحلها" أى لا يقاس عليها. ويقول أبو هلال العسكرى فى كتابه: " الفروق فى اللغة" (ص٢٦): " والتوسع يلزم موضعه المستعمل فيه ولا يتعدّاه" . والمقصود بالترخص أن تكون قرينة ماهى التى تقتضى المعنى وتحدّده، ومن هنا تصبح قرينة أخرى فائضة وتدخل فى مفهوم قول ابن مالك: " وحذف مايعلم جائز" . ونحن نظفر بالترخص ونجده واردا فى مختلف القرائن فلا تنجو منه أية واحدة منها إذا كان اللبس مأمونا مع إهمالها. ومن شواهد الترخص ما يلى:

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الترخص واقع فى بنية ميكائيل)

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ (ترخص فى الرتبة"أى ناداه وهى تجرى.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (ترخص بحذف مرجع الرابط والمقصود به الأرض).

﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ (المفروض أن يكون الجواب فى هذه الجملة للشرط، ولكن تقدم القسم فى الجملة المعطوف عليها برر هذه الرخصة).

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ (الترخص تحذف حرف الجر" فى" وهذا ترخص فى التضام).وقوله تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (أى سيناء)، وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (أى على إلياس). وقوله: ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ (أى منفطرة). قوله﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (أى خاضعة).

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ (فليتربص ازواجهم).

من أراد المزيد من الشواهد القرآنية على هذه الظاهرة فليقرأ عنها فى كتابى "البيات فى روائع القرآن"

وأما فى الحديث الشريف فحسبنا أن نرى قوله صلى الله عليه وسلم: " إن قعر جهنم لسبعين خريفا" بنصب خبر إن، وقوله: " جلس إحدى عشرة نسوة من اليمن " (أى امرأة)، وقوله: " ثم أتبعه ستا من شوال" (اى ستة). وقوله صلى الله عليه وسلم: " إن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم " ، (بحذف ـ ما ـ قبل الفعل" يقتل" .

وأما فى الشعر فلنا أن نقرأ قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله   كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر" مزمل" وهو نعت لمرفوع هو" كبير".

وقول الفرزدق المشهور:

وعض زمان يابن مروان لم يدع

من المال إلا مسحتـا أو مجلـف

قول الشاعر:

ألا يا نخلة فى ذات عرق   عليك ورحمة الله السلامت

وقول الراجز: " الحمد لله العلى الجلل" (اى الأجل).

وقول:

لعن الإله وزوجها معهَا   هند الهنود طويلـة البِظر

(بتغيير رتبة الا ستثناء).

وقول الشاعر: ما أنت بالحكم الترضى حكومنه (بالجمع بين المتنافيين " أل والمضارع"). وقول امرئ القيس:

فقلـت يمـين الله أبـرح قاعـدا   ولو قطعوا راسى لديك واوصالى

(اى لاابرح).

وفى كل حالة من حالات الترخص السابقة تقوم القرائن المتضافرة بوظيفة حفظ المعنى أن يتطرّق إليه اللبس، فيظل المعنى قائما وواضحا دون أن يؤدى الترخص إلى إلحاق أي ضرر بالمعنى. ومن أدلة ذلك أنه حتى فى حالة بعض الأخطاء النحوية التى يقع فيها التلاميذ والخطباء وغيرهم يظل المعنى واضحا وتظل بقية القرائن كافية لحراسة المعنى. وقد تستمع إلى المذيع يقرأ الأخبار أو يعلق على موضوع معين فيخطئ في كلامه ولكنك مع ذلك تفهم ما يقوله. فلو كان الخطأ الذى ارتكبه بإهدار إحدى القرائن (كإهدار الإعراب مثلا) يذهب بالمعنى ما فهم كلامه أحد، ولوقع الكلام فى حدود اللبس. والذى يبدو لى أن القراءات الشاذة فى جملتها يمكن أن تفسر على أساس الترخص. وعندئذ لا تكون شاذة لأنها تبدو فى مظهر مألوف درج الكلام الفصيح على الظهور به؛ ولأن الترخص فى معظم حالاته يؤدى وظيفة

مؤشرأسلوبى هو من قبيل الإبداع، وهو من الكثرة والشيوع فى كلام العرب بحيث لا ينبغى أن يعد شذوذا، ثم لأنه مشروط فى كل حالة بأمن اللبس.ومن هنا كان يحسن للترخص ان يحتل مكانه المشروع من النظرية النحوية وألا تنقطع الأسباب بينه وبين قواعد النحو. وبخاصة أن من أصول النحاة قولهم: "الشذوذ لا ينافى الفصاحة"

أشرنا عند الكلام عن النموذج البصرى إلى أن النحاة نسبوا الزمن النحوى إلى الصيغ المفردة، فجعلوا الزمن وظيفة الصيغة وقالوا: "إن الفعل يدل على الحدث بلفظه وعلى الزمان بصيغته". ولما كانت صيغ الفعل ثلاثا عند البصريين جعلوا الأزمنة ثلاثة، وأعانهم على ذلك اتفاق بقسيمهم للكلم مع الفهم الفلسفى لمقولة الزمان . ومن هنا جعلوا الزمن النحوى إما ماضيا أو مستقبلا، وجعلوا للأول صيغة" فعل" بالبناء على الفتح وللثانى والثالث صيغتى يفعل وافعل (المضارع والأمر) ولم يتكلموا عن احتمالات الزمن بالنسبة للمصدر أو للصفات الخمس (اسم الفاعل واسم المفعول الخ) إلا فى مجرى القول عن العمل النحوى، وربما أشاروا فى معرض الكلام عن الصفة المشبهة إلى الدوام والثبوت دون نسبة أى منهما إلى الزمن (وهما منه طبعا).

أما فى نموذج اللغة العربية ١٩٧٣ فقد تمت المؤاخاة بين الزمن والجهة، وانتهى الأمر إلى نظام زمنى غنى تباهى به اللغة العربية غيرها من اللغات. وربما كان من المقبول عند هذا المنعطف أى أوضح المقصود بلفظ "الجهة". إن مفهوم هذا اللفظ أنه فى الأصل فكرة مما تشتمل عليه الدراسات اللغوية الحديثة تحت اسم aspect ولكننى عندما نظرت إلى دلالة هذا المفهوم أدركت أنه لا ينسجم تماما مع إطار الزمن النحوى فى اللغة العربية، فاجريت عليه بعض التعديل ووصلت به إلى صورة لا تطابق ما يفهمه الغربيون من هذه الفكرة. فلقد وجدت الجهة فى لغتنا تقوم بوظيفة تخصيص المعنى الإسنادى للجملة؛ أى أنها تخصص الحدث كما تخصص

الزمن. فأما العناصر التي تتصل بالحدث فهى المنصوبات (التى تدخل تحت مفهوم التخصيص) ومعها المجرورات. وأما صلتها بالزمن فسيأتى شرحها. ومعنى ذلك أنك إذا قلت: "قرأت" فقد أسندت حدث القراءة إلى نفسك بوجه عام يشمل كل مقروء وكل سبب للقراءة وكل مصاحب لها وكل مكان. فإذا ذكر الوجه الخاص (وهو المقروء أو السبب أو المصاحب أو المكان الخ) فذلك تحديد لجهة الحدث.

وأما مخصصات الزمن فهى أفكار مثل التجدد والانقطاع والثبوت والدوام والاستمرار والبساطة والمقاربة والشروع والقرب والبعد والتعوّد ويعبر عن هذه الأفكار بالنواسخ الفعلية (كان وأخواتها وكاد وأخواتها) وبعض الحروف مثل قد ولم والسين وسوف الخ. وبهذه المزاوجة بين الزمن والجهة يصبح الزمن وظيفة السياق بعد أن جعله النحاة وظيفة الصيغة. وهكذا نستطيع التفريق بواسطة الزمن بين تراكيب مثل: كان فعل وكان قد فعل وكان يفعل وقد فعل وما زال يفعل وظل يفعل وفعل وكاد يفعل وطفق يفعل ويفعل وسيفعل وسوف يفعل وسيظل يفعل الخ.

والدليل على أن الزمن النحوى وظيفة السياق أن الأوصاف الخمسة والمصدر لا ينسب إليها الزمن فى حالة الإفراد، ولكنها إذا دخلت معمعة السياق استعانت بقرائن مختلفة على الانتساب إلى زمن بعينه. ومن يقرا باب إعمال اسم الفاعل أو إعمال المصدر أو إعمال الصفة المشبهة فى كتب النحاة ويتأمل التراكيب السياقية التى ترد بها هذه المبانى يدرك اختلاف الأزمنة بين بعض صورها والبعض الآخر، ويعرف أن مرجع الدلالة الزمنية فى هذه التراكيب إنما هو قرائن السياق لا معنى الصيغة نفسها.

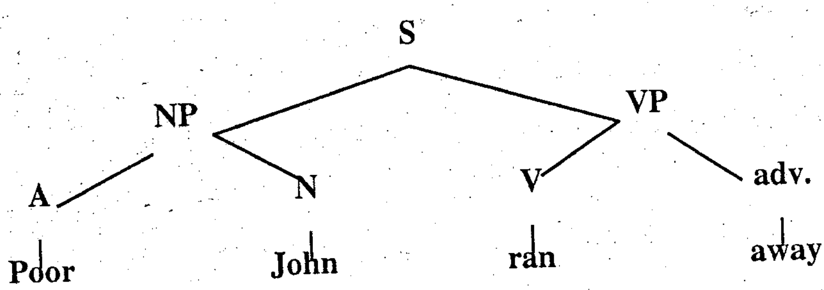
النموذج التحويلي:

رأينا كيف اختلف النموذجان السابقان فى تصورهما لنظام اللغة العربية الفصحى دون أن تتغير اللغة نفسها مما يدل على أن النماذج النحوية هى تصوّرات لأنظمة مختلفة باختلاف الباحثين فى اللغة الواحدة وليست هى اللغة نفسها أوحى

بها إلى نبى نحوى. وإذا رجعنا إلى المثل الذى ضربناه للفرق بين البصريين الذين نظروا إلى بنية القرية من الطائرة العمودية وبين رؤية كتاب اللغة العربية ١٩٧٣ أمكننا أن نقول إن نموذج النحو التحويلى كما يراه تشومسكى وأتباعه لم يدخل بيوتَ القرية ولم يكتف بالطائرة العمودية ليحلّق بها من أعلى وإنما حلق فى أجواز الفضاء ليرى عددا من القرى يستعصى على العدّ (والمثل هنا للغات الإنسانية جميعا). وليصفها بما استنبطه من الصفات المشتركة بينها جمُيعا. والرقعة الواسعة التى تضم القرى جميعها كما تبدو فى إطار المثل هى اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية، أو كما يسميها دى سوسير Le langage (وإن كان فى بعض أفكاره أقرب إلى النموذج العربى حين يستعير منه أفكارا للبنية العميقة مثل القول بالحذف والتقدير الخ) أما كل قرية مفردة فهى لغة بعينها، كالعربية أو الفارسية أو التركية. وقد حاول التحويليون أن يوجدوا نحوا عاما لهذه اللغات الإنسانية جميعا تتضح به كيفية اكتسابها واختزانها وتحويل المختزن إلى الاستعمال. والعلامة تشومسكى تلميذ لهاريس الذى هو بدوره تلميذ لبلومفيلد منشئ اللغويات التوزيعية فى أمريكا. ومن هنا يعتبر النحو التحويلى حفيدا ـ إن لم يكن ابنا مباشرا ـ للنحو التوزيعى. غير أن تشومسكى آخى بين تعاليم بلومفيلد وتعاليم همبولدت ووصفية دى سوسير ومنطقية بور روايال، وانتفع مع كل ذلك بالمنطق الرمزى وعلم النفس، وأقر على نفسه بالعقلانية فى فهم اللغة.

لقد قال بلومفيلد فى كتابه "اللغة" ١٩٣٣: "كل متكلم يعنى بالتأمل فيما يقول لابد أن يخبرنا أن Poor John ran away مركبة من مكونين مباشرين هما Poor John و ran away. وأن كلا من هذين بدوره صورة مركبة، وأن المكونات المباشرة لعبارة Poor John هى Poor و John وأن مكونات ran, away هى ran و away. وهكذا وقع بلومفيلد لأول مرة على مصطلح قدر له أن يؤدى دورا كبيرا على مسرح الدراسات اللغوية الأمريكية هو مصطلح "المكونات المباشرة" Immediate Constituents، لكنه ترك لتلاميذه من بعده أن ينمّوا هذه الفكرة ويصلوا بها إلى نتائجها الطبيعية فى اتجاه الكشف عن التراكيب النحوية الملبسة وغير الملبسة. ومن

خلال اعتماد بلومفيلد وتلاميذه فى التحليل النحوى على ظواهر الرتبة والتضام والمعاقبة والموقع جعلوا التوزيع مذهبا لهم، وعرفوا به، وسمى تلاميذ بلومفيلد عملهم باسم immediate constituent analysis أو تحليل المكونات المباشرة. وعرضوا هذا التحليل فى صور بيانية مختلفة أشهرها الشجرة التى تبدو على النحو التالى:



انتفع التحويليون بهذه الطريقة من طرق العرض، ولكنهم لم يستعملوها على علاتها، وإنما طوّروا الإفادة منها بحسب المطالب العلمية لمنهجهم. لقد قيل إن إحدى مميزات النحو التحويلى أنه يمكّننا من أن نلمح القرابة بين جمل متمايزة من حيث بنيتها السطحية. وهكذا يمكننا أن نعبّر بالتحليل النحوى عن طبيعة القرابة بين أزواج من الجمل، مثل:

ضرب زيد عمرا	ضرب عمرو
علمت زيدا	تعلم زيد
قام زيد	زيد قام.

كما يمكننا أن نستخرج بنيات عميقة متقدّمة بالوقف فى أماكن مختلفة من سياق الكلام، كما فى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إذ يمكن أن يرد على معنى هذه الآية الوقفات التالية:

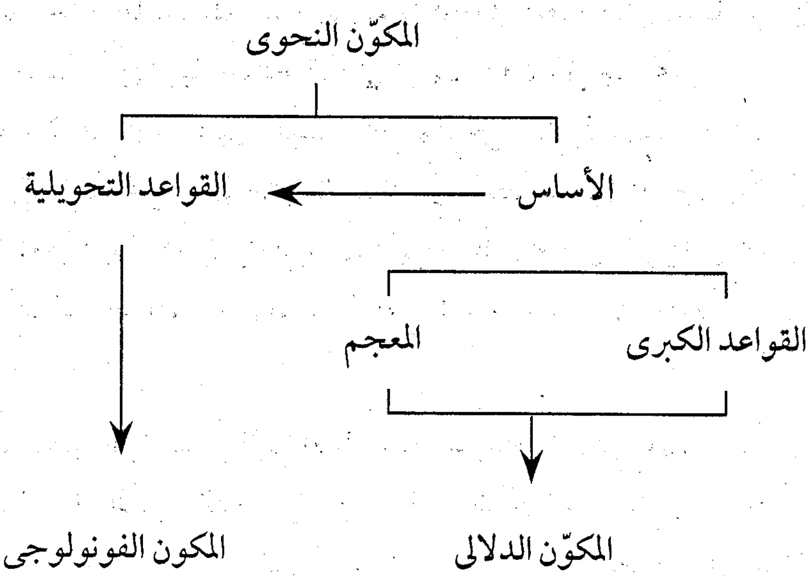
ذلك الكتاب * لا ريب فيه * هدى للمتقين*

ذلك الكتاب لا ريب * فيه هدى للمتقين *

ذلك الكتاب * لا ريب * فيه هدى للمتقين*

ذلك الكتاب (لا ريب) فيه هدى للمتقين*

كما يمكننا أن ندّعى معنيين على الأقل لعبارات مثل: "زيارة الأصدقاء تسرّ القلبَ" و"ذهبت إلى دار الكتب المصرية" و"رجا الطالب استاذه أن يقرأ النص". إذا يأتى اللبس من إضافة المصدر فى المثال الأول وتحديد المنعوت فى الثانى وتعيين مرجع الضمير فى الثالث. فإذا حللنا هذه الجمل بواسطة الشجرة السابقة فربما أدركنا إلام أضيف المصدر وإلام رجع الضمير وما المنعوت الذى وصفه النعت. وأكثر من ذلك أننا نستطيع من خلال هذه الشجرة أن نولّد من معنى الجملة بنيات سطحية أخرى تعبّر عن المعنى نفسه، مثل: مما يبعث السرور فى القلب أن يزورك الأصدقاء (أو أن تزور الأصدقاء) وزرت دارا مصرية للكتب (أو دارا للكتب المصرية) ورجا الطالب استاذه أن يسمح له بقراءة النص (أو أن يرشده بقراءة النص) الخ. غير أن التحويل لا يتم من بنية سطحية إلى بنية سطحية أخرى؛ وإنما يتولّد من البنية العميقة التى يمكن التعبير عنها بطرق مختلفة من خلال أنواع من القواعد التى شرحها تشومسكى فى كتابه: Syntactic Structure, 1965 بصورة يمكن عرضها بالشكل البيانى التالى:



أما القواعد الكبرى فإنها تحدد تخطيط البنية العميقة لجملة على النحو التالى:

الجملة تتكون من ضميمة اسمية وضميمة فعلية VP NP S

الضميمة الأمسية تتكون من أداة واسم N Def NP

الضميمة الفعلية تتكون من مساعد وفعل V Aux VP

هذا هو الجانب الأول (القواعد الكبرى) من جانبى الأساس. أما الجانب الثانى (وهو المعجم) فإنه يحدد عددا من السمات المعجمية التى تتصف بها أو توصف من خلالها مداخل المعجم؛ كأن نقول إن لفظ "الرجل" يتسم بأنه معد ودحى، إنسان. أما إذا أردنا الجنس (لا المفرد) فإننا نبدل لفظ "معدود" فنقول: "لا معدود". وفائدة هذه السمات أنها ترينا أن بعض الأفعال تتطلب فى فاعلها ومفعولها شروطا خاصة تحددها هذه السمات فمثلا الفعل "صلى" لا يكون فاعله من النبات أو الجماد أو الحيوان. والفعل "بكى" لا يكون فاعله إلا ممن يصح منهم البكاء (وهذا يذكرنا بعبارة البلاغيين: "إسناد الفعل إلى من هو له "فإذا اكتفينا بالقواعد الكبرى والسمات المعجمية فلن نصل بها إلى المفردات المعجمية بذاتها، لأنها ليست أكثر من مجموعة من القواعد والمطالب المجردة. ومن ثم نحتاج إلى عنصر دلالى يعيننا على أن نختار المعانى المنسوبة إلى البنية السطحية. وفى الوقت ذاته تعمل مجموعة أخرى من القواعد التحويلية على أن تستعين بالعنصر الفونولوجى من هذا النموذج لنصوغ البنية السطحية المعبرة عن تلك البنية العميقة. وقد تطلّب هذا المنهج أن تحدد الضمائم التى تعبر عنها هذه القواعد تحديدا مجردًا مثل (VP و NP) وأن تصاغ قواعد لاستبدال الضمائر بالأسماء وقواعد لإدماج الجمل الفرعية فى تكوين الجمل الأصلية.

لقد جعلت الغاية التى يسعى إليها الإلمام بهذا النموذج أن نرى كيف يمكن أن يتم وصف بنية اللغة العربية الفصحى من خلاله. والذى يحسن بنا أن نفعله من أجل التمهيد لهذا النوع من العرض أن نحدد الضمائم (أى العناصر التركيبية

للجملة) فى لغتنا العربية الفصحى لنعرف ما المقصود بمصطلحات مثل الضميمة الاسمية (أو المركب الاسمى) والضميمة الفعلية (أو المركب الفعلى). وأول ما ينبغى أن نقوله أن صورة الضميمة الاسمية قد تبدو فى أحد الأمور التالية:

الأسم المفرد ـ الضمير ـ المتضايفين ـ الموصول وصلته ـ الموصوف وصفته.

أما المقصودة بالضميمة الفعلية فهو:

المكوّن الفعلى (الفعل أو أحد الأوصاف الخمسة أو المصدر) وما فى حيّزه ـ المركب الفعلى (مجموع الفعل وما يتعلق به).

أما الجملة الفرعية فقد تقدّم لها أنّ أو أن أو ما المصدرية أو غيرها من الأدوات المصدرية أو الموصول. وقد تكون الجملة بدون مقدمة ولكنها حالة محل المفرد من نوع ما يسميه النحاة: "الجمل ذوات المحل".. واحب أن أشير إلى أن المصدر الصريح سيلقى معاملة خاصة؛ فإذا وقع المصدر الصريح دون مطل أو إضافة عوامل معاملة الاسم المفرد، أو إذا وقع مضافا أو ممطولا (أى ذا فاعل أو مفعول) فإنه يعامل معاملة المصدر المؤول من حرف وجملة. وأما الضمير فشرط استبداله من الاسم أن يتحد الاسم الذى حل الضمير محله فى الصورة مع مرجع الضمير، وهذا ما يسمونه: **Lexical Identity** أو التحقق المعجمى. أما إذا تحققت الإشارة إلى ما يشير إليه المرجع فإنهم يسمون ذلك: **Relationai Identity** التحقق العلاقى أو الإشارى.

وينبغى أن نعود هنا إلى الإشارة إلى أن التحليل العميق ينتهى بذكر اقسام الكلم من أداة واسم الخ، وأن خصوص الأداة أو الاسم أو المكون الفعلى يعتمد على تطبيق قيود التوارد المعجمية التى أشرنا إليها عند قولنا: لا يسند الفعل(يبكى) إلا إلى من يصح منه البكاء، ثم على العنصر الدلالى الذ ى يمدنا بالمعانى الضرورية للبنية السطحية، ثم على قواعد التحويل، ثم العنصر الفونولوجى الذى يعبر بالألفاظ عن هذه المعانى. أما العنصر الذى تحكمة الشروط النحوية(كالتعدى

واللزوم الخ) أو القيود المعجمية(كالإنسان والمعدود وغيره) فإنه يعد عنصرا مركبا مكونا من عدد من الخصائص والقرائن النحوية. وتتدرج هذه الخصائص فى الأهمية بحسب ضرورتها للمعنى. فالشروط النحوية إذا لم تراع فإن العبارة تظل قابلة للصحة إذا كان الخروج عن المعنى الأصلى يمكن قبوله إذا عد من قبيل المجاز. مثال ذلك:

١- ضرب زيد عمرا تعبير صحيح ومناسب

٢- قد زيد عمرا تعبير خطأ للجمع بين متنافيين (قد والاسم)

٣- جلس زيد عمرا خطأ ايسر ولكنه قائم بسبب وجود مفعول للفعل اللازم

أكل زيد عمرا التركيب مقبول نحويا ولكنه مخالف لقيود التوارد المعجمية، ويصح تفسيره بالمجاز؛ أذ يمكن للمعنى أن يكون: "غمطه حقه"

وهكذا يبدو أن النموذج التحويلى يمكن أن يطبق على اللغة العربية فى الجانب النحوى، بل يمكن القول إن هذا النموذج من ناحية القول بالبنية العميقة مطابق تماما لما اشتمل عليه النموذج البصرى من حيث القول بالحذف والتقدير والتأويل. وقد خطر لى أن أرسم شجرة لكل جملة على الطريقة التحويلية لبيان بنيتها العميقة؛ ولم أرد أن أثقل على القارئ بإيراد تفاصيل القواعد التحويلية التى يمكن التعبير بها عن بنية كل جملة، وبخاصة لأن بعض هذه القواعد يشتمل على رموز منطقية إن سهلت قراءتها فمن الصعب إبرازها فى الكلام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يلزمنى أن أعرّب هذه الرموز وهذا التعريب يتطلب قدرا كبيرا من الآناة والروية.

المصطلح النقدى بين العرفية والارتجال

اللغة نظام عرفى مكون من أنظمة فرعية، هى النظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى. وكل من هذه الأنظمة يشتمل على مكونات نظامية تخضع لأصول وقواعد. كل هذه الأنظمة تتضافر من أجل الوصول إلى إنتاج أداء مطرد فى حقل الاتصال اللغوى. ولو نظرنا إلى قرائن المعنى لوجدنا بعضها ينتمى إلى النظام الصوتى كالعلامة الإعرابية، ووجدنا البعض الآخر ينتمى إلى النظام الصرفى كبنية الكلمة، والبعض الثالث ينتمى إلى العلاقات النحوية كالافتقار والاختصاص والموقع والمناسبة والارتباط السياقى بين مكونات السياق. واللغة أداة اتصال سمعى أو بصرى، ومن ثم كان من قرائن المعنى أيضًا نغمة الكلام وحركات الأعضاء كالإيماء والتقطيب وحركات اليدين إلخ. والاتصال اللغوى موقف اجتماعى أركانه المرسل والمستقبل والنص والوقائع المصاحبة. وهكذا تضاف قرينة أخرى إلى قرائن المعنى هى سياق الموقف بأركانه المذكورة. فيستدل على المعنى المقصود بغرض المرسل واستجابة المستقبل وبالنص والوقائع المصاحبة ونتيجة الاتصال. أضف إلى كل ما سبق قرينة أخرى عبر عنها علماء تفسير القرآن الكريم من قبل بقولهم: القرآن يفسر بعضه بعضا، وعرفها المعاصرون باسم آخر هو "التناص". وربما كان من قبيلها أيضًا ما قاله علماء الحديث النبوى الشريف والفقهاء: من أن السنة تفصل ما أجمله

القرآن. واللغة أداة اتصال سمعى أو بصرى، ومن ثم كان من قرائن المعنى أيضًا نغمة الكلام وحركات الأعضاء كاليد والوجه والرأس والكتفين إلخ.

والأدب نص ذو وظيفة اتصالية. والاتصال موقف اجتماعى له عناصر لا يتحقق إلا بها، وهى المرسل والمستقبل والنص وسياق الوقائع المصاحبة. وهكذا تضاف قرينة أخرى إلى قرائن المعنى هى سياق الموقف بأركانه المذكورة، فيستدل على المعنى المقصود بغرض المرسل وحالته وموقف المستقبل من الرسالة، ثم سياق النص وسياق الوقائع وأخيرًا نتيجة الاتصال.

ولا يكون العرف إلا اجتماعيًا يوحد رؤية مشتركة لجماعة ما، ولكن هذه الجماعة قد تكون شعبًا كاملاً وقد تكون فئة من شعب ذى فئات متعددة. فالشعب كيان اجتماعى يتعارف على استعمال لغة مشتركة فيتفق على خصوص مبانيها ومعانيها بصورة يمكن أن يعبر عنها النحو والمعجم. وقد يكون التعارف فى حدود جماعة خاصة من هذا الشعب كجماعة المشتغلين بنشاط علمى محدد أو مهنة أو بقعة جغرافية ما إلخ. ونحن نرى كيف يميز الناس بين لغة العلم ولغة الأدب، وبين لغة المثقفين ولغة العوام، وهكذا. ويميز الناس أيضًا بين الخطاب الدينى والخطاب التجارى الذى يسمعونه لدى إجراء البيع والشراء، وبينهما وبين الخطاب السياسى الذى يستعمل فى الانتخابات العامة ونحوها. وقد يختلف اللفظ الدال على الشىء الواحد باختلاف المناسبات، مما يبرر القول بأن كل مناسبة منها لها مفرداتها الخاصة register للدلالة على هذا الشىء الواحد. فمفردات التهنئة مثلاً غير مفردات التعزية، ومفردات الاستقبال غير مفردات الوداع، ومفردات كلام الأديب بحسب الاتصال العادى غير مفرداته فى النص الأدبى. من كل ذلك يتضح الفرق بين عرف وعرف.

وإذا أردنا أن نعرف شيئًا عن المعنى الاصطلاحى فسوف نجد من الضرورى أن نلقى نظرة على المقصود بالمعنى فى عمومه وعلى أنواعه وأقسامه. فقد يكون المعنى عرفيًا وقد يكون ذهنيًا وقد يكون انطباعيًا. فأما العرفى فقد ينتمى إلى

العرف العام أو إلى العرف الخاص. وأوضح ما يمثل العرف العام هو المعجم الذى يضم الألفاظ التى تعارف عليها المجتمع ويحدد معانيها ويعددها ويضع بعضها معاقبًا لبعض فى موضعه أو يجعله مجازًا عنه، وكل ذلك فى نطاق الصياغة الأسلوبية. فمثال تعدد المعنى المعجمى ما يلحظه المرء فى الشواهد التالية:

ضرب الأب ابنه	ضرب الله مثلاً	ضربُ المسافر فى الأرض
ضرب له قبة	ضرب له موعدًا	ضرب أخماسًا فى أسداس
ضرب النقود	ضرب الهاتف	ضرب ٥ فى ٦
وهلم جرا		

أما تعدد المعنى الصرفى والنحوى فمثاله معنى صيغة "فاعل". من المعلوم أن دلالة اسم الفاعل إنما هى الحدوث والتجدد، وأن دلالة الصفة المشبهة هى الدوام والثبوت. فإذا سمعنا عبارة مثل: "كان قائمًا يصلى" فهمنا من لفظ" يصلى "أن لفظ قائمًا اسم فاعل لأن الصلاة ستنقضى بعد قليل؛ أما إذا قرأنا قوله تعالى: "أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت" فإن قيامه سبحانه على النفوس دائم مستمر، وبذلك نفهم أن لفظ قائم صفة مشبهة.

والمعاقبة وضع لفظ فى موضع لفظ آخر بحيث ينتقل من معناه الأصلى إلى معنى اللفظ المتروك. مثال ذلك ما نراه فى قوله تعالى: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى" حيث نجد "إلا" تدل على معنى "لكن". وقوله تعالى: "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" حيث تدل "إذ" على التعليل لا على الظرفية، أى ولأنهم لم يهتدوا به.

أما المجاز فهو ترخص فى المناسبة المعجمية بين مفردات النص. فأصل الإفادة أن يناسب بعض مفردات السياق بعضا فلا يجوز مثلاً أن يقال: ضحك الحجر

الماء، لأن الحجر ليس من شأنه أن يضحك ولأن الضحك لا ينتج الماء، ولأن "ضحك" فعل لازم، أى أن بين المفردات هنا مفارقة معجمية. ولكن المجاز يعتمد عند الترخص فى المناسبة على علاقات بين اللفظ المستعمل واللفظ المقصود تجعل اللفظ المستعمل كأنه تتحقق فيه المناسبة المعجمية. وعندئذ تبدو المسألة وكأنها صورة من صور المعاقبة التى سبق ذكرها منذ قليل. فإذا قرأنا قوله تعالى: "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى" لاحظنا أن الضلالة لا تصلح سلعة وأن الهدى لا يصلح ثمنًا، وعند تأمل الآية نجد أن المقصود هو مطلق الاستبدال وأن "اشتروا" عاقب "استبدلوا" (أى حل محله) لأن الشراء عمل من قبيل الاستبدال، فبينهما مشابهة خففت مَنَ وقع المفارقة المعجمية.

كل ما سبق من تناول المعنى كان يدور حول العرف العام. أما من حيث العرف الخاص فإن ما يلحق اللفظ من تعدد المعنى إنما يعود إلى تعدد الأعراف. فلو نظرنا إلى مصطلح "فاعل" مثلاً لوجدنا معناه يختلف فى عرف النحاة عنه فى عرف علم الجريمة وعنهما فى علم المنطق. فالفاعل فى عرف النحاة اسم مرفوع تقدمه فعل مبنى للمعلوم ودل على من فعل الفعل أو قام به الفعل. وهذا اللفظ فى عرف المناطقة ضد القابل، وفى عرف المرافعات مرتكب الجريمة.

* * *

الفرق بين المعنى العرفى وبين المعنيين الذهنى والانطباعى أن المعنيين الآخرين فرديان لا عرفيان. والمقصود بالمعنى الذهنى ما يستنبطه الفهم من دلالة الأحداث والمواقف والقرائن الحسية إيجابًا أو سلبًا. مثال ذلك ما يستنبطه رجال المباحث الجنائية من تأمل الأوضاع فى موقع الحادث بعد وقوعه، وما يشتمل عليه سياق موقف الاتصال من الإيماءات وحركات الأعضاء والإشارات، وما كشف عنه الأصوليون مما أطلقوا عليه مصطلح: "مفهوم المخالفة"، وما يردده

نقاد النصوص من عبارة "ظلال المعنى". وليس منه مفهوم إشارات المرور ولا إشارات الأعلام بين السفن لأن هذين النوعين من الإشارات يخضعان للعرف الخاص.

والمقصود بالمعنى الانطباعى ما يحسه المرء عند تعرضه لرؤية منظر يثير فى نفسه إحساسًا معينًا من رضى أو سخط أو رقة أو قسوة إلخ. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة: ٢٧٣). فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى توجيه الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يسألونها تكريمًا لعفتهم عن السؤال. ويقول جل شأنه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن: ٣٩ - ٤١) فمعرفة المجرمين بسيماهم تغنى عن سؤالهم. هذا هو الجانب البصرى من المعنى الانطباعى. أما الجانب السمعى من هذا المعنى فمثاله ما يثيره الإيقاع والتنغيم فى نفوس جمهور المشاهدين لحفلات الغناء والموسيقى، وما نجده من راحة نفسية عند قراءة القرآن الكريم أو الاستماع إلى من يقرأ. ذلك بأن للقرآن إيقاعًا لا تخطئه الأذن، ويبلغ هذا الإيقاع فى بعض المواقع فى النص القرآنى درجة من الوضوح لا يغفل عنها إلاّ من لا إحساس له. من ذلك ما نجده فى قوله تعالى:

وتأكلون التراث	أكلا لما،
وتحبون المال	حبا جما،
حتى إذا دكت الأرض	دكا دكا،
وجاء ربك والملك	صفا صفا،

هذان المعنيان الأخيران (الذهنى والانطباعى) يختلفان عن المعنى العرفى من وجهة نظر ظروف الاستعمال؛ فمجال المعنى الذهنى مثلاً هو أسلوب التفكير، ومجال المعنى الانطباعى هو الإحساس الفردى. وإذا كان العرف من قبيل الثوابت فالأسلوب من قبيل المتغيرات، وإذا كان العرف مفهومًا اجتماعيًا فإن الأسلوب سلوك فردى، وإذا كان العرف قيدا على حرية المتكلم فإن الأسلوب نزوع إلى التحرر من هذا القيد، وإذا كان الالتزام من مطالب العرف فإن التحرر من مطالب الإبداع الأسلوبى. من هنا اختلفت الأساليب قربًا وبعدًا عن استصحاب الأصل وإيغالا فى الترخص فى القواعد والتراكيب سعيًا إلى التأثير فى الانطباع أكثر من السعى إلى الإفادة. فالأسلوب الشخصى مزيج من الاستصحاب والترخص سواء فى اللفظ أو فى المعنى. فأما فى اللفظ فإن الترخص يكون فى القرائن اللفظية بتجاهل وظيفة الأداة أو البنية الصرفية أو إهمال الافتقار أو الاختصاص أو المناسبة المعجمية بين مفردات النص أو الرتبة أو المطابقة بين لفظ ولفظ أو الربط بواسطة الإحالة. وأما الترخص فى المعنى فبالإيحاء والإيماء والمعانى الهامشية وأنواع المجازات إلخ.

دعنا نستشهد أولاً لأنواع الترخص اللفظى لنرى أن الترخص ليس فى الشعر والنثر الفنى فقط، وإنما هو فى آيات القرآن الكريم وفى الحديث الشريف كذلك. فمن الترخص فى قرينة الإعراب قول امرئ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر "مزمل" وحقها الرفع. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩). برفع "الصائبون" وحقها النصب. وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن قعر جهنم سبعين خريفًا" بنصب سبعين وحقها الرفع. هذا عن الإعراب، أما الترخص فى الأداة بحذفها فمثاله قوله

تعـالى: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (البقرة: ١٢٤) أى (أو من ذريتى؟)، واستعمال الأداة فى غير معناها كاستعمال "إذ" حرفًا مصدريًا فى قـوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) أى (بعد أن هديتنا). وكذلك استعمال الأداة فى معانٍ متعددة كاستعمال "إن" إما لإفادة الشرط أو النفى أو التأكيد، كما فى قول الشاعر:

أنـا ابـن أبـاة الـضيم مـن آل مالـك وإن مالـك كانـت كـرام المعـادن

فالأداة هنا للتوكيد. ويمنعها أن تكون للنفى دفع التناقض، وأن تكون للشرط دفع تحصيل الحاصل. وقد تحملت الأداة صورًا أخرى تستعصى على الحصر لا داعى لذكرها فى هذه العجالة.

أما البنية الصرفية ومـا يناسبها من صـورة الكلمـة المفردة فبحسبنا أن نشير إلى قـوله تعـالى: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠) وكذلك: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ٢)، أى إلياس وسيناء. والشاهد على، إهمال الافتقار حذف صلة الموصول فى قول الشاعر:

نحـن الأولى فاجمـع جمـو عـك ثـم وجههـم إليـنا

أى الأولى يتحدونك، وفى البيت التالى رخصة فى الرتبة تتمثل فى الشطر الثانى منه وذلك بذكر العاطف والمعطوف قبل أن يذكر المعطوف عليه:

ألا يـا نخلـة فـى ذات عـرق علـيك ورحمـة الله الـسلام

فـالأصل (عليـك السلام ورحمة الله). ومـن الترخـص فى الـرتبـة أيـضًا قـوله تعـالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ (هود: ٣٨)، أى سخروا منه وهـو يصنع الفلك. وكذلك قـوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (هـود: ٤٢) أى نادى وهى تجرى.

والشاهد على الترخص فى الاختصاص قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧) بتضمين "استحبوا" معنى "فضلوا"، وتعديتها بحرف الـجر مع أن من شأنـها أن تتعدى بنفسها. ويبدو الترخص فى الـمناسبة المعجمية فى كل ما تشتمل عليه النصوص العربية من صور الـمجاز والاستعارة، ويؤيـد ذلك تعريف الاستعارة الذى يقول: "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة الـمعنى الأصلى". فإذا قلنا: (ألقى الأسد خطابا فى جنوده) فالمعنى الأصلى للفظ الأسد هو الحيوان الـمفترس المعروف، والمعنى الآخر هو القائد والعلاقة بينهما هى الشجاعة والقرينة الخطابة ونسبة الـجنود إلى الأسد، وكل ذلك يشتمل على المفارقة المعجمية لا على المناسبة المعجمية.

أما الترخص فى الرتبة فيتضح فى قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (هود: ٣٨) أى سخروا وهو يصنع الفلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (هود: ٤٢) أى نادى وهى تجرى. والشاهد على الترخص فى الـمطابقة قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)، إذا لم تقولا طائعتين. ومن شواهد الترخص فى الربط بالإحالة الإضمار لغير مذكور سابق كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (فاطر: ٦١) أى ظهر الأرض. ومثله ما فى قول الشاعر:

يقولــون لى فــيك انقــباض وإنمــا رأوا رجــلاً عــن موقــف الــذل احجمــا

فالقائلون لم يسبق ذكرهم ولكن هذا القول لا يكون إلا من أصحابه فلا لبس ولا غموض.

* * *

كان ذلك شأن الترخص فى القرائن اللفظية، أما القرائن المعنوية (الذهنية والانطباعية) فمجالها توجيه الدوالّ غير العرفية إلى إحداث مؤثرات أسلوبية موجهة إلى مستقبل النص فى قنوات اتصالية معينة كالحكاية والإيحاء والإيماء ونحو ذلك. من ذلك ارتجال مفردات تدل بجرسها على ظلال المعنى المراد كالذى نجده فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ (الدخان: ٤٣ ـ ٤٤). فهذه الشجرة لا وجود لها فى عالمنا هذا لأنها ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٤ ـ ٦٥)

أى أن اللفظ مرتجل لما فيه من دلالات صوتية. فالكلمة مركبة أولاً من الزاى والقاف للدلالة على ارتباطها بالفعل "زق" فى قولنا: (زق الطائر فرخه) ودلالته على الإطعام، ثم إن الإطعام هنا تصحبه صعوبة الإساغة للطعام وبلعه، ويعنى ذلك بقاء اللقمة فى الفم قريبا من مخرج القاف مدة أطول مما ينبغى بدليل تشديد القاف وهو أطول من الإفراد، وطول الواو التى بعدها، مما ينسجم مع الدلالة على صعوبة البلع وتأخره. وأخيرًا تأتى الميم وفى نطقها ضم الشفتين وهو وضع لا يكون البلع إلا مصاحبًا له. فالأمر كله من قبيل المعنى الانطباعى.

أما الاستعمالات الأخرى للقيم الصوتية فمن أمثلتها ما فى قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨) إذ جاء الفعل "أثاقلتم" بالثاء المشددة بدلاً من توالى التاء والثاء فى "تثاقلتم" بقصد الدلالة على المكث والتباطؤ الذى يومئ إليه ما يمتاز به طول رخاوة الثاء المشددة. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف: ٩٧) بحذف التاء من "استطاعوا" فى معرض خرق السور الحديدى لأن التسلق يتطلب جهدًا أقل من جهد الخرق. ومن ذلك استعمال ظاهرة التفخيم للدلالة على التأكيد كما فى قوله تعالى فى معرض الكلام عن خلق الأرض: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات: ٣٠) ولكنه عند القسم جاء بالفعل نفسه بتفخيم الدال حتى

تحولت إلى طاء، وذلك إذ يقول: ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (الشمس: ٦). أضف إلى ذلك ما نجده بين كلمات النص ذوات المعانى المختلفة من جناس عند تجاورها فى السياق كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وكذلك: ﴿ وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا ۝ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الكهف: ٥٣)، ومثله قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة: ١٠٩) إذ يتوالى فى السياق لفظان على صورة (فِنْهار فانهار)، وقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧)، وهلم جرا.

وقد تنصب الخيارات الأسلوبية على المعنى بصور مختلفة للفظ الواحد؛ فلو أخذنا لفظ "أُمّ" مثلاً لهذا التعدد فى المعنى الأسلوبى لوجدنا ما يلى:

١ ـ المعنى الإشارى الأصلى الذى يتحقق بتعريف لفظ "أم".

٢ ـ المعنى الاستدعائى الذى يشتمل على الفروع التالية:

* المعنى اللزومى الذى يشمل الحمل والولادة.

* المعنى الأسلوبى الذى يشمل تعديل لفظ "أم" إلى ماما ومامى إلخ.

* المعنى العاطفى الذى نلمحه فى عبارة: "مصر أمنا".

* المعنى الانعكاسى المنفر كالشتائم المشتملة على لفظ الأم وكوصف الخمر بأم الكبائر.

* المعنى التواردى الذى تظهر به الكلمات التى ترد مع لفظ "أم" مثل: لبن الأم وحنان الأم والأم الرؤوم.

٣ ـ المعنى البؤرى الذى تتحد معه بؤرة الاهتمام بمضمون اللفظ بواسطة أمور

منها التقديم والتأخير والتأكيد والتكرار كما فى حديث: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك، إذ صارت الأم بالتكرار فى بؤرة الانتباه.

نفهم من هذا أن غاية النقد هنا هى تحديد القيمة من خلال الحس والانطباع (الحدس)، وأن الحس يركز على المعطيات التى تدركها الحواس فى الاتصال كما يحوم الحدس حول الإيحاء والرمز والإيماء والمعانى الهامشية المختلفة. ذلك بأن الناقد فى نهاية الأمر مخاطب بالنسبة لصاحب النص، ولكنه مخاطب من نوع خاص. ومن شأن المخاطب أن يفك شفرة الرسالة التى صدرت عن المتكلم ليصل إلى مقاصدها المغيبة، ولكنه حين يفعل ذلك يعيد صياغتها بالحس والحدس. أما الحس فمرجعه إلى الملاحظة والتأويل. وأما الحدس فمرجعه إلى الانطباع الفردى. وفى الحالتين كلتيهما لا يأمن الناقد أن يسىء فهم مقاصد المتكلم نظرًا لما يطبع التراكيب اللغوية من إمكان اللبس، وما يطبع التأويل والتأثر من عدم الخضوع للضبط والمعيار. فأما أن تراكيب اللغة عرضة للبس فواضح من أن المصدر المضاف قد تكون إضافته إلى فاعله أو إلى مفعوله، فإذا قلنا مثلاً: زيارة الأصدقاء تسعد النفس فلسنا ندرى من النظر إلى التركيب فقط ما إذا كان الأصدقاء هم الزائرين أم المزورين. وإذا قلت: زرت ابن عمى فى بيته لم يدر السامع من مجرد التركيب ما إذا كان البيت لابن عمى أو لعمى. وقد يختلف معنى المنطوق عن معنى المضمون كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)؛ فالمنطوق نهى عن الموت والمضمون أمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت. وقد يكون المنطوق إخبارًا والمضمون تكليفًا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨). وأما أن الحدس يستعصى على الضبط فدليله سوء التفاهم فى الاتصال.

* * *

سبقت الإشارة إلى أن الـمصطلح النقدى ينتمى إلى عرف خاص هو عرف الدائرة التى تستعمله. والعرف الـخاص نوع من العهد الذهنى الذى يخصص الـمدلول. فأنت إذا عزمت على الـخروج فسألك أحد أفراد أسرتك: إلى أين أنت ذاهب؟ فقلت: إلى الكلية. فـإن السائل سيفهم من إجابتك أنك تشير إلى الكلية التى تنتمى إليها، وليس إلى غيرها من كليات الـجامعة. وذلك لما بينك وبينه من فهم مشترك لـمعنى اللفظ عند إطلاقه. ذلك الفهم الـمشترك هو العهد الذهنى الذى تنسب إليه "ال" العهدية فى هذا الـمثال. والأمر شبيه بذلك إذا قلت: أنا ذاهب إلى الصلاة، فـإذا كنت مسلمًـا فهم السامع من اللفظ معنى وإن كنت غير ذلك فهم منه معنى آخـر يشمل هيئة الصلاة ومكانـها وذلك بالعهد الـذهنى أيضًا. وكما اختلف العهد الذهنـى فى فهم "الصلاة" نراه يـختلف فى فهم "الفاعل" فى عـرف النحاة عنه فى عرف الـمناطقة وعنهما فى الـمرافعات. وهـذا هو الـمقصود بالعرف الـخاص الـذى لولاه لتطرق اللبس إلى اللفظ الاصطلاحى.

واختلاف نوعى العرف هو السبب فى اهتمام علماء السلف عند التعريف بالمصطلح بذكر الفرق بين معنييه (لغة واصطلاحا)، فأنت ترى فى شرح المعنى الاصطلاحى للصلاة مثلاً قولـهم: "الصلاة لغة الدعاء. قال تعالى: وصل عليهم (أى ادع لهم) إن صلاتك سكن لهم. واصطلاحًا أقوال وأفعال مـخصوصة". ومعنى هذا أن اللفظ قد انتقل من العرف العام وهو الذى تستعمل اللغة بحسبه فى الحيات اليومية إلى عرف يجمع بين طائفة من الناس يشتركون معًا فى اهتمامات خاصة.

غير أن ما التزم به السلف من ذكر الـمعنى العرفى العام للمصطلح أمر لا لزوم له. لأنه لا يلزم أن يكون الـمصطلح منقولاً عن الاستعمال العرفى العام، بل يمكن له أن يكون مرتـجلاً. وفى المصطلحات المستعملة فى التراث نفسه نجد ما هو

مرتـجل. يقول الـجاحظ فى البيان والتبيين (١/ ١٥٣): "ولأن كبار الـمتكلمين ورؤساء الناظرين كانوا فوق أكثر الـخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء؛ وهم تـخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لـها من كلام العرب تلك الأسماء، **وهم اصطلحوا على تسمية ما لـم يكن له فى لغة العرب اسم**، فصاروا بذلك سلفًا لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولـذا قالوا: العرض والـجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكروا الـهذية والـهوية والماهية وأشباه ذلك".

وأكثر من ذلك أن ارتـجال المصطلحات لا يلزم فيه أن يكون الـمصطلح من مفردات الـمعجم. بل إن الرياضيات والـمنطق الرياضى ونحوهما من فروع العلم تستعمل الرموز دون مفردات الـمعجم، وحسبنا أن ننظر إلى دلالة (س) و(ص) على كميات مـجهولة، وكذلك ما تدل عليه الرموز الـمنطقية التالية:

إما وإما	(v)	النفى	ـ	دالة المحمول	F
دالة القضية	F (x)			سور كلى	X
التكافؤ	(=)				
عضو فى	(E)	اتحاد مجموعتين	U		
		مجموعة فرعية	C		
يتنافر مع	/				

وليس واحد من هذه الرموز عرفا عاما أو واحدة من مفردات اللغة تحول بها الاصطلاح إلى الاستعمال العرفى الخاص. ولا مشاحة فى الاصطلاح.

وينبغى أن لا يتعدد مدلول المصطلح فى عرف خاص بعينه كعرف النحاة أو النقاد، وإلا كان هذا التعدد سببًا فى البلبلة والتردد فى الفهم. فمثال تعدد المعنى للمصطلح النحوى الواحد ما يلى:

١ ـ المفرد:

* ما ليس مثنى ولا جمعا.

* ما ليس مضافًا ولا شبيهًا بالمضاف.

* ما ليس جملة ولا شبه جملة.

* ما ليس مشددًا.

٢ ـ الجامد:

* ما لم يشتق من غيره كالأدوات والضمائر إلخ.

* الفعل الذى يأتى على صورة واحدة، كعسى وليس.

٣ ـ الصفة:

* النعت.

* الوصف (وصف فاعل أو مفعول أو الصفة المشبهة والمبالغة والتفضيل).

وهذا التعدد فى معنى المصطلح عيب منهجى يستحق التصويب.

وعكس ذلك ما نراه فى مصطلحات النحو؛ إذ يتحد القصد ويتعدد المصطلح. من ذلك ما يمكن أن يوضع تحت عنوان اصطلاحى واحد هو "الإغناء" أو "المعاقبة"، ولكنه وضع تحت العديد من المصطلحات على النحو التالى:

١ ـ حروف الجر ينوب بعضها عن بعض	أى يغنى
٢ ـ ينوب المفعول به عن الفاعل	" "
٣ ـ كل وبعض ينوبان عن المفعول المطلق	" "

٤ ـ الفاعل يسد مسد الخبر	" "
٥ ـ الحال تسد مسد الخبر	" "
٦ ـ أنّ وما بعدها سدت مسد مفعولى ظن	" "
٧ ـ "يا" حلت محل "ادعو"	" "
٨ ـ "ما" نافية بمنزلة "ليس"	" "
٩ ـ منصوب التعجب مشبه بالمفعول به	" "
١٠ ـ ضمن معنى الفول دون حروفه	" "
١١ ـ تنوين العوض	الإغناء
١٢ ـ "ترك" أغنى عن "ودع"	" "

وليست البلاغة بعيدة عن فكرة تعدد المصطلح. خذ مثلاً المصطلحات التالية:

المعاظلة ـ المبالغة ـ الحشو ـ الأزدواج ـ الإشارة ـ الإضمار ـ التضمين ـ التعريض ـ وغير ذلك من المصطلحات. أما ما يصعب تحديد معناه من مصطلحات البلاغة والنقد الأدبى بصفة أعم فمنه الجهامة والكزازة والرونق والدماثة والطلاوة والحلاوة والفجاجة والتعوص والإيغال، كما يتراوح الاستعمال النقدى بالنسبة لمصطلحات مثل الصناعة واللغة واللهجة مما يجعل القارئ عاجزًا عن الفهم الدقيق لما يقال. حاول مثلاً أن تحدد فهما دقيقًا لقول صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه (ص ٣١٠) وما بعدها: "فيه جهامة سلبته القبول، وكزازة نفرت عنه النفوس. هو خال من بهاء الرونق وعذوبة المسمع، ودماثة النثر، ورشاقة العرض. وفد حمل التعسف على ديباجته، واحتكم التعمل فى طلاوته، وخالف التكلف بين أطرافه، وظهرت فجاجة

التصنع فى أعطافه، واستهلك التعقيد معناه، وقيد التعوص مراده". فكل ذلك يطعن فى عرفية المصطلح وفى ضبط معناه وفائدة الاعتماد عليه فى الإفهام، لأنه بـهذا يصبح من ألفاظ العرف العام الذى يستعمل المفردات فى الاتصال اليومى غير الفنى.

أضف إلى ذلك أن المشتغلين بنشاط لغوى أو نقدى واحد قد لا يتفقون على مصطلح واحد للمفهوم الواحد، وربما شاع ذلك فى غير حقلى اللغة والنقد من الدراسات الإنسانية. وذلك ما لوحظ فيما نراه من عمل المشتغلين من العرب بتعريب اللسانيات الـحديثة من اختلاف الـمصطلح مع وحدة الـمفهوم، واستقلال كل منهم بمصطلحه الذى يصوغه نتيجة للترجـمة أو التعريب أو الارتـجال. وقد لا يكون ذلك مقصورًا على الدارسين من العرب، ذلك أن مصطلحات اللسانيات فى إنجلترا مثلاً أكثر مـحافظة وعرفية من المصطلحات الأمريكية. وكثيرًا ما يصف الدارسون الإنجليز بعض المصطلحات الأمريكية بأنـها ارتـجال neologism. بل إن تعدد الـمذاهب الأمريكية أدى إلى انفراد أتباع كل مذهب بصوغ مصطلحاتهم الخاصة.

والفرنسيون أيضًا ربما عددوا الـمصطلح من أجل الدلالة على الـمفهوم الواحد. ففى مقال للأستاذ عبـد السلام الـمسدى عنوانه: "مساهـمة الألسنية فى تـحديد الأسلوب الأدبى" (جاء فى العدد الثانى من سلسلة الدراسات الأدبية فى معرض تناول "قضايا الأدب العربى". مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ـ الـجامعة التونسية)، عرض فيه لتعدد الـمصطلح لدى عدد من الأساتذة الفرنسيين للدلالة على مفهوم "الواقع الأصل"، فكان ذلك كما يلى:

Lusage ordinaire	الاستعمال الدارج	ـ	فونتانياى
Lusage habtuel	الاستعمال المألوف	ـ	"

Lexpression simple	التعبير البسيط	-	"
Lexpression commune	التعبير الشائع	-	"
Le parl individuel	الكلام الفردى	-	بالى
Letat neuter	الوضع الحيادى	-	ماروزو
Le degree zero	الدرجة الصفر	-	"
Le norme generale	النمط العام	-	سبتزر
L usage normal	الاستعمال العادى	-	"
L usage courant	الاستعمال السائر	-	ويليك/ و فارن
L usage moyen	الاستعمال المتوسط	-	ستاروبنسكى
Les norms du langage	السنن اللغوية	-	تود و روف
Le discours naïf	الخطاب الساذج	-	جماعة (مو)
L aparle innocente	العبارة البريئة	-	"
La norme	النمط	-	ريفاتار
L usage norme	الاستعمال النمط	-	دولاس

فهذه ست عشرة صياغة للدلالة على مفهوم واحد هو مفهوم "الاستعمال السائد" يقابلها اثنتا عشرة صياغة للدلالة على الترخص بالخروج عن الاستعمال السائد على النحو التالى:

L ecart	الانزياح	-	فاليرى
L abus	التجاوز	-	"

La deviation	الانحراف	-	سبتزر
La ditorsion	الاختلال	-	ويليك/ و وارن
La subversion	الإطاحة	-	بايتار
L infraction	المخالفة	-	تيرى
Le scandale	الشناعة	-	بارت
Le viol	الانتهاك	-	كوهن
La violation normes	خرق السنن	-	تودوروف
L incorrection	اللحن	-	"
La transgression	العصيان	-	أراقون
L alternation	التحريف	-	جماعة (مو)

وهذه المجموعة الأخيرة من المصطلحات الدالة على الترخص فى استعمال قرائن المعنى تقابلها مجموعة أخرى صاغها النحاة العرب من الشذوذ والقلة والندرة ولغة قوم بعينهم والضرورة الشعرية وغير ذلك. غير أن الكفاءة الاصطلاحية فى كل الأحوال ينبغى أن تجعل علاقة المصطلح بالمفهوم علاقة واحد لواحد.

الثوابت والتغيرات فى العربية

تقديم:

يعترف العلم بالتفريق بين "الثوابت" و"المتغيرات" من الأفكار ولا يختلف فى هذا الاعتراف فرع من فروع المعرفة عن غيره. ولكن الرياضة والمنطق الصورى الحديث من أكثر الفروع احتفاء بهذا التفريق، واستعمالاً له فى القواعد وعبارات النصوص، فإذا نظرنا إلى معادلة رياضية بسيطة مثل (3 + 3 = 6) أو (3 × 3 = 9) أو (9 ÷ 3 = 3) وجدنا أن الأعداد التى تعبر عنها الأرقام 1، 2، 3، 6، 9، متغيرات يمكن أن يحل غيرها محلها فتتغير تفاصيل المعادلة، ولكن يبقى طابعها العام من حيث كونها جمعًا أو طرحًا أو ضربًا أو قسمة. أما الثوابت التى إذا تغيرت ذهب الطابع العام للمعادلة ذهابًا تامًا فهى الروابط التى تعبر عنها العلامات (+، -، ×، ÷، =). وفى حساب القضايا من المنطق الصورى الحديث نجد الثوابت هى الروابط المنطقية، وهى، السلب ورمزه (-)، والوصل ورمزه (•)، والفصل ورمزه (V) والتضمن ورمزه (⊃)، وهذه الروابط تربط بين القضايا كما تربط ثوابت الرياضة بين الأعداد أما القضايا نفسها (ويرمز لكل منها بحرف هجائى مفرد) فهى متغيرات تعد من تفاصيل المعادلة وليست من خواص تركيبها، وهناك ثوابت منطقية غير هذه التى سبقت تنتمى إلى أنواع الحساب المنطقى الأخرى كثوابت حساب المحمولات وحساب الأصناف وحساب العلاقات.

وللغة أيضًا ثوابتها ومتغيراتها، فأما متغيرات اللغة فهى مفردات المعجم، فإذا أردنا أن نأتى للتلاميذ فى قاعة الدرس بمثال لجملة مكونة من فعل ماض وفاعل ومفعول به، صح لكل مفرد من مفردات الأفعال أن يقع موقع الفعل، كضرب وقرأ وسأل وزار وأكرم وأهان إلخ، ولكل مفرد من مفردات الأسماء المرفوعة أن يقع موقع الفاعل، كزيد وعمرو وبكر وخالد وعلى إلخ، ولكل مفرد من مفردات الأسماء المنصوبة أن يقع مفعولا به، لهذا لم يبن النحاة قواعدهم على المفردات المتغيرة بل تركوها لفقه اللغة ليتناولها بالملاحظة والتأمل دون نية التقعيد، وذلك على مستويات ثلاثة:

أ ـ علاقة اللفظ باللفظ، فيقارن فقهاء اللغة ألفاظ العربية بألفاظ أخواتها الساميات، أو ألفاظ لهجة عربية بألفاظ لهجة عربية أخرى، مع رصد ما يبدو لهم فى هذا المجال من ظواهر لهجية كالكشكسة والنعنعة والطمطمانية إلخ.

ب ـ علاقة اللفظ بالمعنى، ويتم لهم ذلك بواحدة من الطرق الآتية:

١ ـ التأملات الصوتية كدراسة المحاكاة (دلالة أصوات الكلمة على معناها) والتأليف (تآلف حروف الكلمة وعدم تنافرها)، والمحسنات الصوتية.

٢ ـ كتابة المعاجم الخاصة فى موضوعات مثل:

* رسائل الموضوعات كالخيل والإبل والسلاح والرحل لابن قتيبة والأصمعى.
* رسائل الترادف كأسماء الأسد وأسماء الحية لابن خالوية، والروض المألوف للفيروزبادى.
* رسائل المشترك اللفظى لأبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد.
* ما كتب فى التضاد لقطوب وابن السكيت، والانباريين والتوزى وابن درستويه وابن الدهان.
* معاجم المصطلحات العلمية للتهانوى والجرجانى وأبى البقاء والبكرى الأندلسى.

٣ ـ كتابة معاجم المعانى كالألفاظ لابن السكيت والألفاظ الكتابية للهمذانى ومبادئ اللغة للإسكافى وفقه اللغة للثعالبى والمخصص لابن سيده.

٤ ـ كتابة معاجم الألفاظ كالعين والعباب والجمهرة والصحاح والأساس واللسان والقاموس.

جـ ـ علاقة اللفظ بالاستعمال كدراسات غريب اللغة للسدوسى والسجستانى، والنضر بن شميل وأبى عبيدة والأصمعى والحربى والمبرد وثعلب وقطرب وابن الأثير وابن الخراط والهروى والمدينى وابن سلام وابن قتيبة والزمخشرى والراغب. يسخرجون ذلك من اللغة أو القرآن أو الحديث، وكدراسة الدخيل بالتوليد أو التعريب لابن سلام والدمشقى والبدراوى وابن كمال باشا والجواليقى وكدراسة المجاز كالذى كتبه أبو عبيدة والفراء والجرجانى.

أما ثوابت اللغة فهى مناط التبويب والتقسيم والتجريد والتقعيد، أو بعبارة أخرى إذا توسعنا فى مدلول الثوابت قلنا: هي مكونات ما يعرف باسم "نظام اللغة"، وهى أيضًا موضوع "النظم" الذى تكلم عنه عبدُ القاهر فى دلائل الإعجاز، ولبيان الفرق بين المتغيرات والثوابت فى اللغة يمكن أن نضرب المثل من خلال التحليل الإعرابى للجملة العربية: "ضرب زيد عمرا" على النحو التالى:

المتغيرات:

		ضرب	زيد	عمرا
الثوابت	المعنى	فعل ماض	فاعل	مفعول به
	المبنى	مبنى على الفتح	مرفوع	منصوب

فالتحليل اللغوى كله وصول إلى الثوابت من خلال المتغيرات. نحن نسمع الجملة سلسلة من المفردات المعجمية (المتغيرات) المرصوفة على نمط معين من أنماط التركيب اللغوى، وليس يكفى لفهمها (أى فهم الجملة) وتحليلها أن نقنع بهذه المتغيرات وما نعرفه من معانيها المعجمية المفردة، أى ما يشبه المعجم للفظ "ضرب" و"زيد" و"عمر" من معنى، وإنما يتحتم علينا فى التحليل أن نرد هذه

الـمتغيرات إلى ثوابتها من النظام اللغوى، فنرد كل مفرد منها إلى قبيله من المبنى وإلى وظيفته من حيث المعنى، لأن ترابط السياق لا يتم بواسطة المفردات، بل يتم بواسطة النظر إلى الأبواب التى تعبر عنها هذه المفردات. وبفهم العلاقات بين الأبواب يتضح المعنى النحوى، وهو أول بضعة من المعنى، وأقصد بالمعنى النحوى معنى الفعل الماضى والفاعل والمفعول به والجملة الفعلية الخبرية التى ترابطت أجزاؤها بعلاقتى الإسناد والتعدية، وتحصن معناها بطائفة من القرائن اللفظية كصيغة الفعل واسمية الفاعل والمفعول والرتبة بين هذه الأبواب ورفع الفاعل ونصب المفعول وما يقوم بين الفعل والفاعل من تضام (أى تلازم) وهلم جرا، فكل هذه العناصر الداخلة فى تحديد المعنى النحوى من الثوابت.

وإذا نظرنا إلى الثوابت فى لغتنا العربية وجدناها تقع فى نوعين يسمى كل منهما باسم "الأصول".

أ ـ الأصول المنهجية كما تبدو مثلاً فى كتاب الاقتراح للسيوطى بما يشمل عليه من كلام فى السماع والقياس والتعليل والتأويل، ويمكن أن نطلق على هذا النوع: "أصول النحاة"، وهى ليست موضوع كلامنا هنا.

ب ـ وثانيهما ما عرف عن النحاة باسم "الأصول الثابتة" كما تبدو مثلاً فى كتاب "الأصول" لابن السراج، ونفهم من كلام ابن مالك فى قوله:

والأصل فى الفاعل أن يتصلا والأصل فى المفعول أن ينفصلا

وقد يجاء بخلاف الأصل وقد يجى المفعول قبل الفعل

مشيرًا بذلك إلى تضام الفعل والفاعل وعدم وجود علاقة التضام بين الفعل والمفعول، ثم إمكان الفصل بين المتضامين، وإمكان تشويش الرتبة بين الفعل والمفعول ـ فالكلام هنا عن ثابتين هما التضام والرتبة، ويمكن أن نطلق على هذا النوع من الأصول "أصول النحو" وبهذا التفريق بين أصول النحو وأصول النحاة يمكننا أن نضيف أن أصول النحو أو الأصول الثابتة يشبه ما يعرفه

النحويون الأمريكيون فى منهجهم النحوى تحت اسم idealization أى الاعتماد على أصل مجرد ثابت ترد إليه الأمثلة المختلفة. فالأصل فى الجملة أن يذكر كل أجزائها، فإن غاب جزء منها اعتبر محذوفًا أو مستترًا لترد الجملة إلى أصلها. والأصل فى الصيغة الصحة. فإذا لحقها الاعلال أو الابدال ردت إلى أصلها الصحيح، (أى أن قال أصلها "قول"، وهذا من أصول النحو لا من استعمال العرب)، والأصل فى الحروف المتوالية أن يستقل كل بمخرجه فى الكلام، فإذا تجاور المثلان أو المتقاربان فأدغم أحدهما فى الآخر فهذا الادغام عارض وخارج على الأصل ومن ثم يحسن أن تلتمس له علة، أما ما جاء على أصله فلا يسأل عن علته.

ومما له مغزى أن النحاة سموا هذه التجريدات النحوية: "الأصول الثابتة"، فوصفها بالثبات ليس بعيدًا عما يقصده المحدثون بلفظ "الثوابت" التى هى عكس المتغيرات، وللثوابت النحوية ارتباط بحقائق التحليل اللغوى حتى ليصح أن نجعل كلمة "ثابت" مضافًا واسم الحقيقة التحليلية مضافًا إليه، فنقول مثلاً: "ثابت المخرج" أى الأصل الثابت للمخرج، أو نقول: "أصل المخرج" ونحن نعنى ثابت المخرج، والحقائق التحليلية التى تنسب إليها الأصول الثابتة كثيرة مشهورة تستعمل عناوين أبواب فى علوم الأصوات والصرف والنحو، ويمكن لنا أن نرى طائفة منها فيما يلى:

١ ـ المخرج.

٢ ـ طريقة النطق (الشدة والرخاوة إلخ).

٣ ـ الجهر والهمس.

٤ ـ التفخيم والترقيق.

وللحرف بالنسبة لهذه الاعتبارات أصل لا يخرج عنه إلا بالإدغام أو الإخفاء أو الإقلاب إلخ.

٥ ـ الطول والقصر (والمقصود المد والحركة، أو التشديد والإفراد).

٦ ـ الصحة والعلة (والخروج عن هذا الأصل إنما يكون بالإعلال أو الإبدال).

٧ ـ المقطع (ويرد المقطع الصوتى المنطوق إلى أصل المقطع فى نظام اللغة).

٨ ـ النبر.

٩ ـ النغمة فى الكلام المنطوق.

١٠ ـ أقسام الكلام (الأصل فى الأسماء الإعراب وفى الأفعال البناء، وهلم جرا) فكل قسم أصل بذاته.

١١ ـ الاشتقاق والجمود.

١٢ ـ المادة الاشتقاقية لاحظ عبارة: "أصل الاشتقاق".

١٣ ـ الأصول والزوائد الأصل فى الكلمة المشتقة أن تكون ثلاثية إلخ.

١٤ ـ الصيغة (قد يرد الميزان إلى أصل الصيغة فيقال فى "عِ" من وعى أن أصلها (افعل).

١٥ ـ الذكر.

١٦ ـ الشخص والعدد والنوع والتعيين.

١٧ ـ الإعراب والبناء (الأصل فى الإعراب أن يكون بالحركة، وفى البناء أن يكون على السكون).

١٨ ـ العلاقة السياقية والباب النحوى (الباب أصل تحدده القراءة كما رأينا فى قول ابن مالك منذ قليل).

١٩ ـ الربط (بالضمير أو إعادة الذكر أو الحرف أو المطابقة، ولكل من هذه أصل: فالأصل فى الضمير أن يعود على متأخر لفظًا ورتبة إلخ).

٢٠ ـ الرتبة (الأصل فيها أن تكون محفوظة).

٢١ ـ التضام (الخروج عن أصله إنما يكون بالحذف أو الزيادة أو الفصل).

٢٢ ـ الزمن والجهة (الأصل هو الزمن الصرفى، أى معنى الصيغة، والخروج عنه إنما يكون بالزمن النحوى الذى سيحدده اقتران الزمن بالجهة فى السياق).

٢٣ ـ النمط التركيبى من الجملة (أى هيكلها الذى حدده النحاة لقواعدهم وربطوه بمعنى خاص والخروج عن هذا الأصل هو إعطاء النمط معنى آخر كالدعاء بالنمط الخبرى: "بارك الله فيك" وقصد الإنكار بالنمط الاستفهامى، وهلم جرا).

٢٤ ـ المعنى المعجمى (والمقصود أن المفردات التى تشتمل عليها الجملة الأصل فيها أن تكون من مفردات اللغة، وليست كلامًا فارغًا، ومع ذلك يمكن للإعراب أن يتم مع الخروج على الأصل إذا تحققت فى الجملة الثوابت (١ ـ ٢٢) كما فى: "حنكف المحنكف بسقاحته فى الكمظ" حيث لا يتحقق المعنى المعجمى).

٢٥ ـ الأسلوب وهو ثابت من ثوابت النص المتصل، فلا يعد فى ثوابت النحو ولم يتناوله النحاة وإنما تناوله البلاغيون، أى أنه من ثوابت البلاغة، والدليل أنه من الأصول الموضوعية لا المهجية أنه يمكن عزله عن المضمون فيكون لنا شعر جميل الأسلوب بلا مضمون، أو نثر فائق التركيب الأسلوبى بلا مضمون أيضًا.

فالشعر كقول المجنون بن جندب:

محكوكة العينين معطاة القفا ... كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى متن شراك أعجفا ... كأنما ينشر فيه مصحفًا

فلا مضمون لهذا الشعر، شهد بذلك أبو زيد وقال: لا يفهم كلام المجانين إلا مجنون.

وأما النثر فإننى أسوق له النموذج التالى، وأرجو ألا أتهم بالجنون!

"أن الذى يرى بنص التاريخ المعاصر، وما تنطوى عليه تهاويل المنهجية العميقة، لابد أن تبهره أحلام الواقعية التى تمتد على روافد التاريخ، ولقد كان الإنسان فى كل لون من ألوان الوشائح الغامضة فى التطور الفيزيائى لمورفولوجيا الحياة الأسرية قائمًا بالقسط بين النية والإرادة فى تعامله مع الآخرين، وحيال مفردات الظواهر. ولئن كان المد السكونى المتاح للإنسان منظورًا إليه فى ضوء الجزر الحركى لأنواع الجهاد، لم يأت بجديد فى حقل الملاحظة والتجربة، فإن ما نسمع عنه من استقامة المحيط وحلزونية القطر ربما أفضى فى النهاية إلى حدس زمكانى أرجوانى الطابع، تلك هى هيمنات التاريخ المعاصر فى مقابل إيحاءات العلم، وهذا هو الحدس المنهجى الذى دفع المؤرخين والعلماء إلى كلمة سواء وقفت بهؤلاء وأولئك على مفترق الفكر، لا يعقلها إلا ذوو الضمائر المستوقرة وأصحاب المغامرات التطلعية فى مسالك الوعى الثقافى. أفئن صاح العلماء فى نجواهم بالحمد لظواهر الطبيعة أن أفاءت عليهم من شأبيب رفدها، أفينكر منكر بعد هذا أن التأمل من أقرب الطرق إلى القاعدة؟ كلا وألف كلا!.

انتهى النص، فهل فهمت شيئًا؟ بالطبع لا! ولكن النص على رغم ذلك ذو أسلوب طلى "رصين العبارة جزيل اللفظ.. له ماء ورونق". ومعنى هذا أن بيتى المجنون السابق والنص العابث الذى تلاهما قد تحقق فيهما من الثوابت من ١ إلى ٢٤ كما تحققت فيهما الدلالات الطبيعية، ولم يتحقق فيهما ثابت المعنى الدلالى، وهو الذى ينبغى أن يكون تحت رقم (٢٥).

لقد طفنا بك أيها القارىء الكريم فى فجاج أصول النحو حتى وصلنا، وأرجو ألا نكون أنضاء سفر إلى ما نريده من تقديم الموضوع الذى اخترناه فالذى يبدو

لنا من كل ما سبق أن الأصول الثابتة هى مناط القواعد المطردة، ولولاها لأصبح الوصول إلى الأطراد أمرًا عسيرًا. ولقد رأينا أن أقسام الكلم من هذه الأصول الثابتة، ومن ثم لا يمكن لنحو ولا لكتاب فى القواعد أن يستغنى عن تقسيم الكلم، حتى النحو التحويلى (الذى يعتبر بدعة العصر فى أمريكا وأوروبا وفى جامعات العالم الثالث أيضًا) لا يستغني عن أقسام الكلم ويسميها terminal strings على الرغم من أنه يعتمد فى التبويب النحوى على المكونات المباشرة immediate constituents للجملة وهى ما يسمى فى نحو اللغة الإنجليزية phrases.

والسؤال الذى يلح علينا بطلب الإجابة الآن هو: لماذا نقسم الكلم؟ والجواب على ذلك: لأسباب متعددة نذكرها فيما يلى:

١ـ الأصول الثابتة ١٠ ـ ١٤ فيما سبق تمثل قرينة من قرائن النحو تسمى قرينة البنية؛ وللموقع النحوى ومطالب خاصة مما يتصل بهذه القرينة. فمن أبواب النحو ما يتطلب أسما يعبر عنه، كالفاعل والمفعول، ومنه ما يعبر عنه الوصف، كالنعت والحال، ومنه ما يعبر عنه الفعل أو الضمير أو الأداة إلخ. ثم إن من أبواب النحو ما يتطلب الاشتقاق وكالحال، ومنه ما يتطلب الجمود كالتمييز (الأصل ١١).

ومنه ما يرتبط بعلاقة اشتقاقية مع عنصر آخر من عناصر الجملة إيجابًا أو سلبًا، فالمفعول المطلق مصدر من مادة الفعل، والمفعول لأجله مصدر من غير مادة الفعل (الأصل ١٢). ثم منه ما يرتبط بفكره الأصلى والزائد رقم ١٢ كارتباط التعدية بالهمز والتضعيف، وارتباط اللزوم بزيادة التاء فى "تفعلل". ومنه ما يتوقف حكمه ومعناه على الصيغة (١٤) كالفرق بين وصف "فاعل" والصفة المشبهة وصيغة المبالغة والتفضيل إلخ. كل ذلك من قبيل قرينة البنية ومعناه أن جزءًا من المعنى النحوى يتوقف على البنية الصرفية، فهذا مما يدعو إلى تقسيم الكلم.

٢ ـ هناك معان صرفية هامة لا يمكن استخراجها من السياق اللغوى ولا إدراك الفروق بينها إلا مع تقسيم الكلم، كالمسمى، والـموصوف بالحدث، واجتماع الزمن والـحدث، ومطلق الغائب والـحاضر، واقتران الـحدثين فى ظرف ما، ومطلق الربط، فلكل قسم من أقسام الكلم التى يراها القارىء فى هـذا الكتاب معناه الذى يميزه ويمتاز به بحكم ما بين الـمبنى والمعنى من رابطة لغوية عرفية واعتباطية.

٣ ـ لولا الفصل بين أقسام الكلم لكانت اللغة فريسة اللبس، من جهة أن الأقسام قد ينقل بعضها إلى استعمال بعض. فقد ينقل الفعل والوصف إلى العلمية، وقد ينقل الاسم إلى الظرفية (وهو الذى يسميه النحاة الظرف المتصرف)، وقد تستعمل المصادر كما تستعمل الأفعال كما فى "ضربًا زيدًا" وهلم جرا، فيصبح من المهم مع هذا النقل أن نضع فى الاعتبار هذه الظاهرة ليتضح لنا المعنى، ولا تختلط طوائف الكلم فى الفهم.

٤ ـ قد نرى أنه فى حدود القسم الواحد من أقسام الكلم تتعدد المبانى، وهذا التعدد واضح فى كثرة صيغ الاسم، وصيغ الوصف، وصيغ الفعل، وتعدد صور الضمير، والظرف، والأداة. وكل مبنى من هذه الـمبانى المتعددة الكثيرة يتعدد معناه الوظيفى، ويظل احتماليًا ما دام المبنى مفردًا، وهذا ما يعرف تحت عنوان: "تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد". ولكن إذا أخذ هذا المبنى مكانه من بنية الجملة وسياقها الـمتصل تعيَّن له واحد من معانيه المتعددة المحتملة. فصيغة "فعيل" مثلاً تحتمل عند أفرادها معنى المصدر كصهيل وخرير وفحيح، ومعنى فاعل كقدير وعليم، ومعنى مفعول كجريح وقتيل، ولكن عندما ترد هذه الصيغة فى صورة مثالها فى نطاق الـجملة يعلم السامع ما إذا كان معناها هذا أو ذاك من بين هذه المعانى. ولفظ "هنا" باعتباره مبنى عامًا مـجردًا هو صالح لـمعنى الإشارة ولمعنى الظرفية الـمكانية ما دام مفردًا، ويتعين له أحد المعنيين فى السياق، ولفظ "إذا" صالح للظرفية الزمانية وللشرطيـة وللمفاجـأة عند الأفـراد، ولفـظ "ما"

صالح فى الأفراد للموصولية والنفى والتعجب والـمصدرية والاستفهام والزيـادة إلخ، وهذه الظاهرة تتضح عند تقسيم الكلم لـمعرفة المقصود بعبارة "الـمبنى الواحد".

٥ ـ الإعراب قرينة نحوية هامة تكشف عن قسط من المعنى، ولا يمكن لنا أن نصل إلى الانتفاع بهذه القرينة فى النحو إلا إذا عرفنا الفارق الصرفى بين المعرب والمبنى، ولا يتأتى لنا ذلك إلا عند تقسيـم الكلم ونسبـة بعضـه إلى الإعراب والبعض الآخر إلى البناء.

٦ ـ فى القرائن اللفظية التى لا تعتبر فروعًا مباشرة للتقسيم المذكور، لا يمكن لنا أن نفهم القرينة إلا فى ضوء هذا التقسيم، فهناك عدد من القرائن يتفرع عن الأصل رقم ٢٢ مما سبق أى عن النمط التركيبى للجملة، وتتطلب مبنيين صرفيين لكل منه على الأقل. فمن ذلك قرينة الربط: فقد يكون الربط بعود الضمير فيتطلب مبنيين هما الضمير والـمرجع، وقد يكون الربط بالـمطابقة فيتطلب مبنيين متطابقين أو أكثر، وقد يكون الربط بالـحرف فيربط الـحرف بين مبنيين هما الـجواب وما تقدمه من شرط أو قسم إلخ، أو بين متعاطفين أو أكثر أو بين الـمتعلق والـمتعلق، أو بين المستثنى والمستثنى منه إلخ. ومن ذلك الرتبة وهى تتطلب متقدمًا ومتأخرًا، ومن ذلك التلازم وهو يطلب متلازمين أو متنافيين. والقرينة فى كل ذلك تقوم على أساس من تعدد البنى ومع ذلك تستلزم الكلم حتى نعرف الـمبانى التى تعددت فى هذه القرينة المركبة.

ولقد قسم النحاة القدماء الكلم إلى ثلاثة أقسام معتمدين فى تقسيمهم على المعنى حينا وعلى المبنى حينا آخر، ولكنهم لم يستطيعوا بهذا التقسيم أن يفسروا بعض الظواهر اللغوية مهمة. فمثلاً:

١ ـ اعترف النحاة بظاهرة النقل فى باب اسم العلم والتمييز فقط، ولكن طبيعة تقسيمهم للكلم حالت بينهم وبين فهم هذه الظاهرة الكبرى فى نظام اللغة العربية.

٢ ـ وفيما عدا ما قام به المالقى فى رصف المبانى والمرادى فى الجنى الداتى، وابن هشام فى المغنى (والثلاثة من عصر واحد متأخر) لا نجد لدى النحاة اهتمامًا بظاهرة تعدد المعنى الوظيفى للمبنى الواحد. وحتى هؤلاء الثلاثة الأعلام نظروا إلى المعنى من الزاوية الدلالية العامة لا الزاوية الوظيفية (من وجهة نظر دراسة القواعد) ولو أنهم قسموا الكلم بالتفصيل فلم يضيعوا أقسامًا متعددة تحت عنوان الاسم، وقسمين على الأقل تحت عنوان الفعل لكان لهم من هذه الظاهرة موقف آخر.

٣ ـ لم يفرق النحاة بين أسلوبى التعامل والإفصاح، ومرد ذلك إلى أنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا أوجه الشبه المعنوى والمبنوى بين الخوالف، فوزعوها بين الأفعال وأسماء الأفعال والأصوات.

٤ ـ ولم يفرق النحاة بين معانى الزمن الصرفى والزمن النحوى ومن ثم لم يتضح فى أذهانهم أن الزمن النحوى وظيفة السياق ومن ثم يمكن أن ينسب إلى الأوصاف والمصادر فى السياق وأن بعض ما نسبوه من الكلمات إلى الأفعال كليس وعسى خلو من معنى الزمن، ومن ثم لا يكون فعلاً بحكم التعريف.

مشروع كتابة اللغات الإسلامية بالحرف العربى

أولاً ـ أنواع الكتابة من وجهة النظر الألسنية:

١ ـ يمكن للكتابة أن تمثل الأصوات المنطوقة ساعية إلى إيضاح ما فى النطق من وقائع حركية وآثار سمعية. ومن أمثلة هذا النوع من الكتابة ما يعرف باسم: الأبجدية الصوتية الدولية (International Phonetic Alphabet).

٢ ـ ويمكن للكتابة أن تعبر عن وحدات النظام الصوتى للغة ما مع التغاضى عن الاعتداد بالوقائع النطقية ومع العناية بمطالب المعنى؛ إذ يمكن أن ينضوى عدد من الوقائع النطقية المختلفة تحت وحدة بعينها من وحدات النظام كما نرى فى شأن النونات المختلفة المخارج فى ألفاظ مثل: ينبغى ـ ينفع ـ ينذر ـ من رأى ـ ينشأ ـ ينكر ـ ينقل. فهذه النونات على اختلاف مخارجها تكتب جميعًا فى الإملاء بصورة واحدة هى "ن".

٣ ـ ويمكن أن تخضع الكتابة لعوامل أخرى جغرافية (كاختلاف الإملاء فى أمريكا عنه فى إنجلترا) أو تاريخية (كارتباط كتابة بعض الكلمات الإنجليزية المستعارة من لغات أخرى بهجائها الذى تكتب به فى تلك اللغات، كما يتضح من تصوير صوت "f" فى الهجاء الإنجليزى فى صورة) "ph" أو غير ذلك). ومن أمثلة ذلك ما نعرفه من هجاء كلمات مثل philosophy, phoneties, phonology. ومن هذا القبيل أيضًا الأصوات المتعددة التى ينطق بها ou فى اللغة الإنجليزية؛ لاحظ كلمات مثل:

١ـ Through كواد الفاعل فى "قوا" أو فى "قاموا"

٢ـ enough نون فتحع+ فاء ساكنة

٣ـ though كالنطق العامى لكمة "يوم"

٤ـ plough ألف مد+ واو ساكنة

ثانيًا ـ خصائص الكتابة العربية:

للكتابة العربية خصائص معينة نذكر منها:

١ ـ اللغة العربية لغة اشتقاقية من طبعها أن تحدد لكل طائفة من المفردات المختلفة الصيغ أصلاً اشتقاقيًا مكونًا من ثلاثة حروف تسمى "أصل الاشتقاق" ويقال لها: فاء الكلمة وعينها ولامها.

٢ ـ وفى طبيعة اللغة أن هذه الأصول تقع فى دائرة الأصوات الصامتة (أو كما يسمونها: الحروف الصحيحة)، وليس فى دائرة الأصوات الصائتة (أى الحركات والمدود).

٣ ـ من هنا كانت عناية الكتابة العربية بالصوامت أكثر من عنايتها بالصوائت. ولكنها مع ذلك تعدّ فى مجال استعمال الهجاء والإملاء من أوفى اللغات بمطالب الكتابة بحسب نظام اللغة.

٤ ـ ولم يحل هذا الاهتمام بالحروف الصحيحة دون العناية بحروف العلة، فقد وجهت العناية بهذه الحروف فى اتجاهين:

أ ـ عندما يكون أى أصل من أصول الكلمة ألفا. فلقد حرصت الكتابة العربية على التفريق بين الألف الواوية والألف اليائية فكتبت الواوية ألفا كما فى "دعا" وكتبت اليائية ياء كما فى "رمى"؛ وإقامة الاستدلال على ذلك بظهور الواو فى بعض مفردات المادة كما فى "دعوت" و"أدعو"، أو ظهورها ياء كما فى "رميت" و"أرمى".

ب ـ عندما تكون الألف فى موقع إمالة كما فى "والضحى والليل إذا سجى"، أو فى موقف صراحة الألف، كما فى مثل قاسم وصالح وطالع.

٥ ـ تتشابه صور الحروف فى الكتابة العربية فى بعض الحالات فلا يفرق المرء بين أحدها والآخر الذى يشبهه إلا بواسطة النقط. وهذا بيان لذلك:

ب ـ ت ـ ث ـ ن ـ الياء فى الوسط.

ج - ح - خ.

د ـ ذ.

ر - ز.

س - ش.

ص - ض.

ط ـ ظ.

ع - غ - إلخ

ولا شك أن هذا التشابه داع إلى اللبس فى كثير من الأحيان.

٦ ـ بناء على الخصائص الأربع الأولى لـم يـجد الـخط العربى ضرورة لإثبات الحركات فى الكتابة، ولكنه أثبت حروف المد، فترتب على ذلك ما يلى:

أ ـ احتمال الخطأ الصرفى فى نطق الحركات الداخلية لبعض الكلمات.

ب ـ احتمالات الخطأ الإعرابى فى نطق الحركات الأخيرة فى هذه الكلمات.

ثالثًا ـ دواعى السعى إلى تنفيذ هذا المشروع:

بعد هذا العرض الموضوعى لأنواع الكتابة ولخصائص الكتابة العربية أود أن أبين الأسباب الداعية إلى السعى فى سبيل كتابة اللغات الإسلامية بالحرف العربى، فأقول:

١ ـ إذا تأملنا جهود الدول الأوروبية فى سبيل نشر استعمال الحرف اللاتينى فى الأوساط الإسلامية أدركنا أن هذه الدول تسعى إلى تحقيق أمرين:

أ ـ توسيع مناطق نفوذها الثقافى.

ب ـ توليد الإحساس لدى من استجاب لهم من الأمة الإسلامية بالانتماء الثقافى إلى هذه الدول الأجنبية التى تكتب بالحرف اللاتينى ومن ثم إضعاف الانتماء إلى الأمة الإسلامية.

٢ ـ مع الاعتراف بما سبق من مظاهر القصور فى النظام الإملائى العربى (انظر على الأخص رقمى ٥ و٦ السابقين) نرى أن هذا القصور ينعكس على نظام اللغة العربية دون غيرها. أما بالنسبة للمشروع المقترح فقد يتطلب الأمر اختراع رموز كتابية لأصوات لا توجد فى العربية، وتناسب كل لغة إسلامية على حدة.

٣ ـ انتماؤنا نحن المسلمين إلى القرآن الكريم أولاً. ولا غنى لنا عن حفظه واستظهاره، والانتفاع بما يشتمل عليه من تشريعات ومن أسلوب معجز، وعن قراءاته للتعبد، وكل ذلك يدعو إلى أن يكون الحرف العربى مألوفًا لدى كل مسلم.

٤ ـ قد يسعى المسلم غير العربى إلى تعلم اللغة العربية؛ فلأن يجد الحرف العربى مألوفًا لديه أولى به، ولابد لوجود هذا الحرف أن يجعل تلاوة القرآن أيسر له منها عندما يكون هذا الحرف العربى غير موجود.

رابعًا ـ برنامج العمل المناسب لكل لغة إسلامية على حدة:

أفضل الطرق ـ فى رأيى ـ لتنفيذ هذا المشروع ما يلى:

١ ـ الكشف عن النظام الصوتى للغة المقصودة (انظر: أولاً ـ ٢).

٢ ـ البدء فى اختراع الرمز المعرّب أو تعديله (إن كان موجودًا ولكنه غير ملائم) للتعبير عما يختلف عن النطق العربى من أصوات هذه اللغة غير العربية. أما ما اتفق مع النطق العربى فيبقى معه الحرف على حاله.

٣ ـ حل مشكلة كتابة الحركات بتمثيلها فى الكتابة؛ ويمكن الاسترشاد فى ذلك بعمل معهد التعريب بالرباط.

٤ ـ كتابة نصوص مختارة بالحرف الجديد (الذى أصبح حرفًا عربيًا) لاختبار مدى كفاءة الأداء.

٥ ـ عند الوصول إلى الكفاءة المطلوبة ينبغى أن نتجنب الاتصال المباشر بالحكومات، لأن للحكومات ظروفها بسبب خضوعها لشبكة العلاقات الدولية التى قد تحول دون بلوغ الغاية المطلوبة. وإنما يكون الاتصال بالجمعيات الإسلامية المشتغلة بالتعليم لإقناعها بجدوى المشروع.

٦ ـ بعد إقناع هذه الجمعيات واستقرار الأمور شعبيًا على استعمال الحرف العربى فى التعليم، ومضىّ المدة الكافية يكون وضع جديد قد نشأ يمكن على أساسه الاتصال بالحكومات من أجل عرض المشروع.

الباب الثانى

قضايا المعنى

إبداع المعنى فى اللغة العربية
من منظور تعدد الحقول المعرفية

لعل أهم الجوانب فى دراسة الاتصال اللغوى هو جانب المعنى. ذلك بأن الاتصال يتم بواسطة الإلقاء والتلقى، ويسعى المتلقى دائماً إلى إدراك مقاصد الملقى. وقد تقوم العقبات فى سبيل إدراك هذه المقاصد فيكون ذلك سبباً فى فشل مشروع الاتصال، بل إن الملقى نفسه قد يكون سببا فى إفشال هذا المشروع، إما عن عمد وإما عن غفلة. فأما العمد فإن اللغة قد تتخذ وسيلة لإخفاء المقاصد الحقيقية للملقى وتضليل المتلقى، على نحو ما يحدث أثناء المفاوضات السياسية، أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالإلغاز والتعمية مثلاً. وأما الغفلة فقد يأتى خفاء المعنى بسبب ما ينشأ عن بعض التراكيب من اللبس الذى يكون سبباً فى تعدد احتمالات المعنى بحيث تقوم الحاجة إلى قرينة تدل على إرادة واحد منها دون غيره، كما فى قولنا: "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" إذ لا يدرى السامع من الذى زار ومن الذى سعد بالزيارة. ومثل ذلك قوله: "زرت جميع متاحف الآثار المصرية" إذ يصلح لفظ "المصرية" لوصف المتاحف كما يصلح لوصف الآثار، إلا أن تقوم قرينة على إرادة أحد المعنيين.

واللغة نظام يربط بوسائله المعينة بين ما يقال وبين طريقة فهمه، سواء كان القول سعيا إلى إيضاح القصد أم إلى إخفائه. وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام الطابع العرفى للأداء اللغوى كما يكون إخفاء القصد ألصق بالطابع الأسلوبى

الفردى. ويربط ذلك من جهة أخرى بدرجة الإعلامية فى النص؛ فإعلامية النص قد تكون فى الدرجة الدنيا كحين يتفق اللفظ فى ركنى الجملة نحو: الحق حق والباطل باطل، إذ لا يضيف الخبر شيئاً إلى ما عبر عنه المبتدأ، ومثله ما نجده فى قول أبى الحسن الأشعرى: من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أبو الحسن الأشعرى.. الخ، وذلك عندما أعلن هجره للاعتزال وانفصاله عن المعتزلة. فهذه الدرجة الدنيا من الإعلامية تفتقر إلى إعلاءٍ يرقى بها إلى الدرجة الوسطى (وهى الدرجة المثلى فى الإعلامية) ليؤولها المتلقى إلى معنى مقبول. أما الدرجة العليا من الإعلامية فهى درجة الإلغاز والتعمية، وهى تحتاج إلى خفض يهبط بها إلى مستوى الدرجة الوسطى التى يسهل بها فهمها عند ما يجرى فك شفرتها من قبل المتلقى.

وإذا كانت اللغة نظاماً فإن من شأن كل نظام أن يكون مؤلفا من وحدات متكاملة متضافرة فى أداء وظائفها. فشأن كل وحدة فى علاقتها بالأخرى هو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كاليدين تغسل إحداهما الأخرى". ولهذا التكامل والثبات فى بنية النظام كان الاطراد من ثوابت النظام. بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان آخران هما أمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى

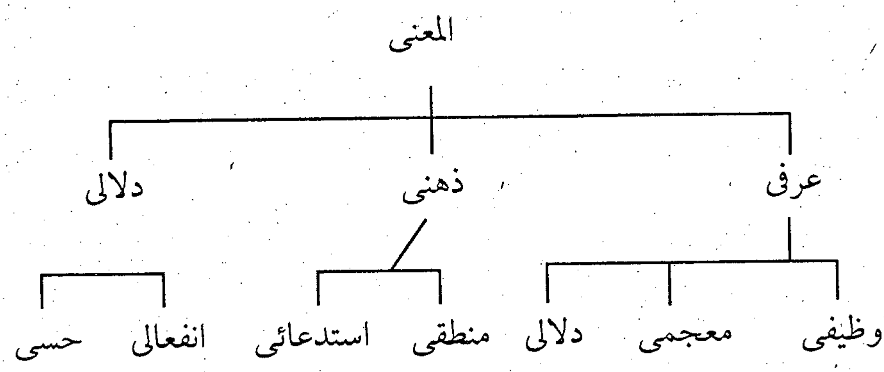
وهكذا نبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة كما يلى:

ثوابت النظام النحوى

- طرد أصل القاعدة ويكون العدول عنه
  - بقاعدة فرعية مطردة
  - برخصة
- طرد أصل الوضع ويكون العدول عنه
  - بقاعدة تصريفية مطردة
  - برخصة

وإذا كان همنا فى هذه العجالة مرتبطا بالمعنى فإننا سنوجه كل جهدنا إلى إدراك

كل هذا المعنى اللغوى، وذلك بواسطة ذكر أقسامه وطبيعة كل قسم منها، وطرق الإبداع فى حدود كل قسم من هذه الأقسام. وفيما يلى بيان لهذه الأقسام:



المعنى العرفى:

ينقسم المعنى العرفى كما يبدو فى الشكل البيانى إلى وظيفى ومعجمى ودلالى. دعنا أولاً نلق نظرة على المعنى الوظيفى لنعلم أنه ينقسم إلى قسمين: تحليل وتركيبى. ولقد ذكرنا منذ قليل أن اللغة نظام أكبر مكون من نظم فرعية بينها علاقة تكافل تجعل وظيفة كل منها تتوقف على وظائف النظام الفرعى الآخر. تلك النظم الفرعية هى: نظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو. فأما النظام الصوتى فيقوم على اتفاق الأصوات أو اختلافها فى المخارج والصفات، وليس للصوت اللغوى فى ذاته معنى ولكنه يتخذ وسيلة للوصول إلى معنى الكلمة. فالحركة الإعرابية صوت، ونون الرفع صوت، والأمر كذلك فى تاء الفاعل وألف الاثنين وواو الجماعة وتعدية الثلاثى اللازم بالهمزة أو بالتضعيف وظواهر أخرى تكون فيها الأصوات المفردة وسيلة للوصول إلى معنى من معانى النحو. عندئذ يكون الصوت قرينة من قرائن المعنى. وأوضح ما نسبت إليه صفة القرينة من الحركات ضمة الفاعل وفتحة المفعول. ومعنى هذا أن النظام الصوتى لا يقوم لذاته ولا بذاته، وإنما ليقوم بإمداد النظامين الصرفى والنحوى بقرائن للمعنى الوظيفى فى نطاق هذين النظامين، كما يعين على أداء المعنى الانطباعى الذى لم يحن وقت الكلام فى شأنه.

أما النظام الصرفى فإن نصيبه من الدلالة على المعنى يتعلق ببنية المفردات وليس بالمفردات ذاتها؛ لأن المفردات ومعانيها المفردة تقع فى نطاق المعجم أما البنية وما تدل عليه من معنى عام (حقه أن يؤدى بالحرف) فهى ومعناها يقعان فى نطاق النظام الصرفى. فإذا قلنا إن البنية التى تتمثل فى صيغة "استفعل" تدل على الطلب نحو "استغفر" أى طلب المغفرة فينبغى أن نعلم أن الطلب من المعانى العامة التى لا تقتصر على مطلوب بعينه وأن مثله كمثل دلالة اللام على التعليل ودلالة الواو على القسم. ومن هنا تكون "استفعل" قالبا يمكن أن يصاغ على مثاله عدد لا حد له من الكلمات. كذلك إذا قلنا إن المصدر يدل على الحدث فإن عدد الكلمات الدالة على الحدث (وهو معنى عام) قد يستعصى على الحصر. ومن قبيل ذلك أيضا أن كل اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد، وكل صفة مشبهة تدل على الدوام والثبوت، وأن الحال ينبغى أن تكون مشتقة ويكون التمييز جامداً ولا يصاغ التفضيل والتعجب كلاهما إلا من قول فعله ثلاثى متصرف دال على التفضيل وهو تام مثبت ليس الوصف منه على وزن أفعل ولا يستوى فيه المذكر والمؤنث.

ولقد جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير فى بنية المفردات فى بيئتى الجدول والسياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف الوظيفة التى تؤديها الكلمة المفردة، فلاحظوا ما يلى:

١ ـ ارتباط وظيفة الكلمة فى السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.

٢ ـ وارتباطها بما تفيده من دلالة على مسمى أو حدث أو زمن مجرد علاقة بين عنصرين فى السياق كدلالة حرف العطف على العلاقة بين المتعاطفين.

٣ ـ أو كون الكلمة مصوغة على قالب يمنحها معنى عاما كأن تدل على فاعل أو مفعول أو مبالغة أو تفضيل...الخ.

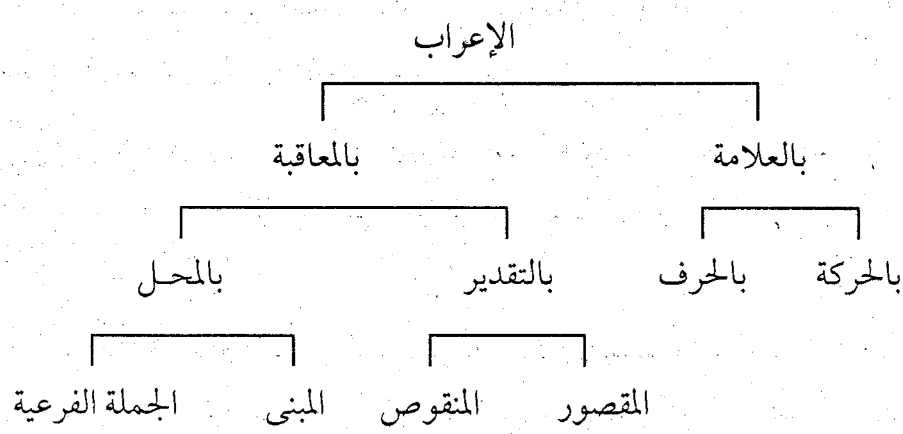
٤ ـ ولاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترناً بلفظ آخر، وأن ألفاظا تختص بالدخول على قسم بعينه من أقسام الكلم، وأن اللفظ فى السياق من شأنه نحويا أن يصاحب من هو له معجمياً.

٥ ـ ولاحظوا أن لأقسام الكلمة فى السياق رتبا بعضها ولا يختلف ويجوز فى البعض الآخر أن تخضع رتبته لمطالب الأسلوب.

٦ ـ ووجدوا أن أواصر العلاقة بين كلمة وأخرى فى السياق قد تتحقق بإعادة اللفظ أو المعنى أو بعود الضمير على مذكور سابق ونحو ذلك أو بمطابقة أحد اللفظين للآخر فى التكلم أو أحد فرعيه والإفراد أو أحد فرعيه وفى التذكير والتأنيث وفى التعريف والتنكير وفى الإعراب.

٧ ـ ووجدوا أن الألفاظ قد تذكر أو تحذف، أو تضمر أو يضمر لها أو يتصيد معناها من السياق. وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن المعنى النحوى بحاجة إلى قرائن تدل عليه فاستخلصوا من فهمهم هذا عددا من القرائن المختلفة الطابع التى تدل على المعنى، وينتمى كل منها إلى فرع من فروع النظام اللغوى كما يلى:

أ ـ فالإعراب ينتمى فى جملته إلى النظام الصوتى؛ ولكنه قد تكون له علاقة هى عنصر من عناصر الأصوات وقد لا تكون. فيبدو الأمر فى صورته العامة على النحو التالى:



والإعراب بالعلامة إنما يكون بالحركة للمفرد الصحيح الآخر، وبالحرف للمثنى والجمع والأسماء الخمسة. وأما المعاقبة فهى للمقصور والمنقوص إذ يفترض المعرب أن لفظا صحيح الآخر وقع فى الموقع الذى حل فيه المقصور أو المنقوص فما الحركة

التى يستحقها هذا الصحيح؟ حتى إذا عرف الحركة قدرها على آخر المقصور أو المنقوص. وللعنصر اللغوى المبنى كما للجملة الفرعية علاج آخر. ذلك أنهما لا يخضعان للإعراب لا بالحركة ولا بالمعاقبة، لأن المبنى لا يتغير آخره مهما تغيرت وظيفته النحوية، ولأن الجملة لا تخضع لما تخضع له المفردات من صور التغير الإعرابى. ومن هنا ينسب الإعراب إلى المحل.

ب - والبنية قرينة تنتمى إلى النظام الصرفى لتكون فى خدمة النظام النحوى بواسطة ما يكون لها من معنى صرفى عام كدلالتها على الفاعل كضارب أو على المفعول كمضروب أو المبالغة كضرّاب أو شرط جمودها كالتمييز أو شرط اشتقاقها كالحال أو دلالتها على المرة أو الهيئة... الخ.

ج - الضام، ويقع فى ثلاثة أقسام:

الأول الافتقار: ومعناه ألا يكون اللفظ صالحا للورود بمفرده، وإنما يحتاج إلى ضميمة يكتمل بها معناه، كافتقار حرف الجر إلى مجرور وحرف العطف إلى متعاطفين والموصول إلى صلة... الخ. وقد يكون الافتقار للباب لا للفظ كافتقار المضاف إلى مضاف إليه والمبهم إلى مفسر.. الخ.

الثانى الاختصاص: ومعناه أن يكون العنصر اللغوى مرتبطا من حيث وروده بعنصر ما دون غيره، كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال وكاختصاص "لم" بالدخول على المضارع.

الثالث المناسبة المعجمية: وذلك أن يرتبط استعمال اللفظ بمصاحبة ما يناسبه من الألفاظ فى المعنى. وذلك ما يشير إليه البلاغيون بقولهم: "إسناد الفعل إلى من هو له". فمن شأن الفعل "فهم" مثلا أن يسند إلى العاقل الذى يصح منه الفهم. ولا يجاوز ذلك بالنقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر إلا لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

د ـ الرتبة: وهى نوعان:

الأول الرتبة المحفوظة: كرتبة الحرف ومدخوله، والموصول وصلته، وعنصرى الإضافة، والمبهم والمفسر، والفعل والفاعل... الخ.

الثانى الرتبة غير المحفوظة: كرتبة المبتدأ والخبر، والفعل والمفعول به أو فيه أو له، ونحو ذلك. وهذا النوع الثانى هو الذى أعان البلاغيين على التنظير لمبدأ التقديم والتأخير.

٥ ـ الربط وهو نوعان:

الأول الربط بالإحالة: وذلك أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق فى سياق النص. ومن ذلك أن يعاد ذكر العنصر السابق بلفظه أو بمعناه أو بضميره أو الإشارة إليه... الخ. كما يؤدى حرف الجر وظيفة ربط المجرور بالفعل ونحوه، ويؤدى حرف العطف إلى ربط أحد المتعاطفين بالأخر، وتؤدى الأدوات الداخلة على الجمل بما لها من رتبة الصدارة إلى الربط بين ما يقع فى حيزها من مفردات الجملة، وهلم جرا.

الثانى الربط بالمطابقة: فى حقول المطابقة المختلفة، وهى: العدد (الإفراد والتثنية والجمع) والشخص (التكلم والخطاب والغيبة) والنوع (التذكير والتأنيث) والتعيين (التعريف والتنكير) والإعراب.

و ـ نغمة الكلام: ولك أن تتصور تنوع المعنى المقصود بعبارة "ما هذا" بحسب تنوع النغمة أثناء الكلام بين الاستفهام الصريح وبين الإنكار. كما أن لك أن تتصور اختلاف النغمة فى عبارة "سلام عليكم" فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (القصص ٥٥) وهى تفيد المغاضبة وبين عبارة: "السلام عليكم" التى تقال للتحية.

ز ـ السياق: وهو أيضا نوعان: سياق النص، وسياق الموقف.

الأول سياق النص: وهو أن يشتمل النص على قرينة تعين على فهم المعنى لولاها ما فهم المعنى على وجهه الصحيح. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا

عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس ٣٥) فلقد نسب بعض المفسرين معنى "ما" إلى الموصولية ليكون معنى الآية: ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم. ولكن قرينة السياق تدل على معنى النفى من جهتين: الأولى قوله تعالى: أفلا يشكرون، والثانية أن الله تعالى يقول فى سورة النمل: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ (النمل ٦٠). فالإنسان إذا أعد طعاماً لنفسه ثم أكل هذا الطعام فهو غير مطالب بالشكر، ولا يطالب به إلا إذا أكل ما أعده غيره. هذا ما يدل عليه سياق النص. أما آية سورة النمل فتدل على المعنى نفسه بطريق "التناص". والقرينة فى الحالتين تدل على أن معنى "ما" هو النفى.

الثانى سياق الموقف: عرف التراث العربى الاعتداد بهذه القرينة فى نواح متعددة. فلقد عرفها النحاة بظروف النطق، وأخيرا عرفها رواة الشعر من خلال إيراد الملابسات التى قيل فيها الشعر. ومثال الانتفاع بهذه القرينة ما ندركه عند تأمل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (يوسف ٣٥) إذ يدور فى الذهن سؤال عن سبب هذا البداء حتى نعثر على الإجابة فى قوله تعالى فى آية سابقة: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف ٣٠). فعندئذ يظن العزيز أن يوسف هو المسئول عن معرفة النسوة بهذا الخبر وقد كان العزيز أوصاه بالكتمان بقوله له: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ (يوسف ٢٩). وهكذا يكون فهم النص متوقفا على وجود قرينة سياق الموقف. وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف ٧٦) نجد أنه لولا معرفة تفاصيل الموقف لرأينا أن تصرف يوسف عليه السلام لا يتناسب مع النبوة. غير أن الأمر كما يتبين من سياق الموقف يحمل دلالة على ما يلى:

١ ـ شوق يوسف إلى أخيه الذى دفعه إلى مطالبة إخوته لأبيه بإحضاره.

٢ ـ رغبته فى الاحتفاظ بأخيه عنده بعد إحضاره.

٣ ـ تدبير مكيدة السرقة لتكون عونا على الاحتفاظ بالأخ.
٤ ـ إلصاق تهمة السرقة بهذا الأخ لأسباب عملية.
٥ ـ بعد إثبات التهمة على أخيه لم يرد أن يطبق عليه العقوبة المعروفة فى مصر لأنه (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) فسأل الإخوة عن العقوبة فى عرفهم فقالوا: "من وجد فى رحلة فهو جزاؤه". أى جزاؤه أن يؤخذ فى الرق سنة كاملة.
٦ ـ عندئذ قرر يوسف أن يلصق تهمة السرقة بأخيه لينشئ بذلك وسيلة اتصال بأسرته واستقدامها إلى مصر.

ذلك هو سياق الموقف كما يبدو من القصة فى سياق نص السورة.

دعنا ننظر الآن نظرة تطبيقية إلى القرائن النحوية التى يتضح بها معنى الجملة تمهيدا للنظر فى طرق الإبداع فى إجراء النص. فلنفرض أن عندنا جملة مثل: ذهب الرجل إلى حال سبيله، وكان علينا أن نوضح القرائن النحوية فى هذه الجملة. (أقول: قرائن النحو وهى تختلف عن قرائن النص، ولكنها تُستدعى عندما يحتاج فهم النص إليها.

١ ـ أول ما نلاحظه قرينة البنية التى تبدو فى المظاهر التالية:
أ ـ ذهب فعل فى صورة الماضى.
ب ـ الرجل اسم معروف بالألف واللام.
ج ـ إلى حرف.
د ـ حال اسم.
هـ ـ سبيل اسم.
و ـ الهاء ضمير غيبة.

٢ ـ التضام، ويبدو فى المظاهر التالية:
أ ـ الفعل يحتاج إلى فاعل، وقد تحقق له ذلك بلفظ "الرجل".
ب ـ الحرف يفتقر إلى اسم يلحقه، وقد لحقه "حال".
ج ـ كلمة "حال" لفظ مبهم يحتاج إلى ما يخصصه من وصف أو إضافة.

د ـ أضيف لفظ "حال" إلى لفظ "سبيل".

٣ ـ الرتبة، وتبدو فيما يلى:

أ ـ تقدم الفعل على الفاعل.

ب ـ تقدم حرف الجر على المجرور.

ج ـ تقدم المرجع على الضمير.

د ـ تقدم المضاف على المضاف إليه.

٤ ـ الربط، ويبدو الربط فيما يلى:

أ ـ تعلق الجار والمجرور (حال) بالفعل (ذهب).

ب ـ عود الضمير على الرجل.

٥ ـ الإسناد، وهو قرينة معنوية تفيد العلاقة بين الفعل والفاعل، أى أن الفعل صدر عن الفاعل أو قام به (أى أن الفعل وقع منسوباً إلى الفاعل).

٦ ـ الإعراب، وهو يتمثل فى أن الرجل مرفوع، وكون حال وسبيل مجرورين، كما يتمثل فى محل الضمير العائد إلى الرجل.

وبهذه العلامات (أو القرائن) مجتمعة وصلنا إلى فهم المعنى النحوى للجملة، ولكننا لم نفهم المعنى النصى من حيث لا نعلم من هو الرجل ولا الظروف التى دعته إلى الذهاب إلى حال سبيله كما لا نعلم من المتكلم ولا من السامع. ومن هنا صارت الجملة مثالا نحويا ولم ترق إلى مستوى شاهد نصى. وعندما ذكرنا ثوابت النظام النحوى قلنا إنها ثلاثة هى: الطرد أو الاطراد وأمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى. ونود أن نضيف فى هذا الموضع أن النحاة كانوا يغارون على اطراد قواعدهم كالذى يتضح مما كان بين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى النحوى وبين الفرزدق الشاعر، ومن رد الفرزدق على الحضرمى بقوله: (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا). وربما فهمنا من هذا الوضع أن أمن اللبس وطلب الخفة كانا قيدين فى تحقق الاطراد، بمعنى أنه إذا أمن اللبس وتحققت الخفة أمكن العدول عن الأصل

وجاز ارتكاب الرخصة. يمكن الكشف عن هذا الموقف بالاستشهاد بعبارات من ألفية ابن مالك تجعل الإفادة شرطاً للعدول فيما يلى:

ولا يكون اسم زمان خبرا　　　عن جثة وإن يفد فأخبرا

ولا يجوز الابتدا بالنكرة　　　ما لم تفد كعند زيد نمرة

فأمن اللبس فى مثل هذه المواضع كان سببا فى العدول عن القاعدة الأصلية إلى قاعدة أخرى فرعية مما يدل على أن القاعدة معيار مقيد بأمن اللبس.

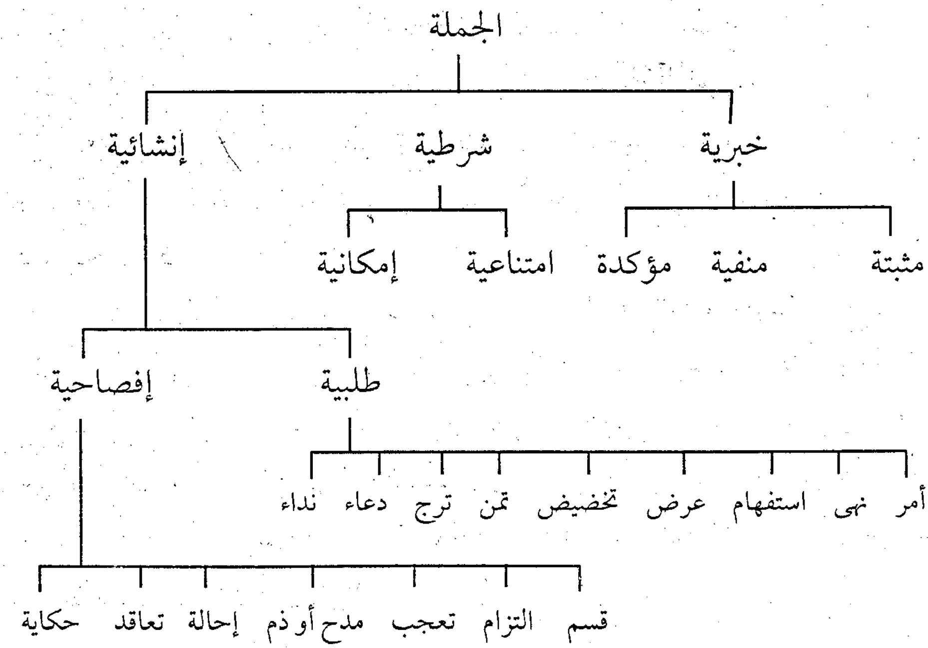
ليس ذلك فحسب؛ بل إن هناك أمراً آخر يبيحه أمن اللبس، وهو الترخيص فى المحافظة على البنية النحوية إذا أغنى عنها غيرها فأمن اللبس بدونها فلم تعد ضرورية للكشف عن المعنى. عندئذ يترخص المتكلم فى القرينة ولا يجد السامع صعوبة فى الفهم. وقد يكون من المستحسن هنا أن نضرب بعض الأمثلة لظاهرة الترخص عند أمن اللبس، وإن كان موضع ذلك سيأتى عند الكلام فى طرق الإبداع. قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله　　　كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر لفظ "مزمل" مع استحقاقه للرفع لكونه نعتا للفظ "كبير" المرفوع. والله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم: ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي** ﴾ (البقرة ١٢٤). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ (فاطر ٤٥) ولم يذكر مرجع الضمير الذى فى ظهرها، والمرجع هو الأرض لأن الدابة لا تدب إلا عليها فالمعنى أوضح واللبس مأمون فلم يتحتم ذكرها.

أما الثابت الثالث وهو ما عرفه النحاة باسم طلب الخفة فإنه يكشف عن الذوق اللغوى العربى فيما يتصل بشروط توالى الأصوات فى عملية النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثلين وتوالى المتقاربين مخرجا أو صفة، كما يكره توالى الأضداد. ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين فى المخرج المزهر للسيوطى (ص ١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة؛ إذ جعل المخارج أنواعا ثلاثة هى: الأقصى والأوسط والأدنى. ثم رصد احتمالات تواليها فى النطق

حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأقصى فالأوسط فالأدنى نحو لفظ "عدم". أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلاً، لأنهم بتجريدهم أصل وضع الكلمة استطاعوا أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة الثقل، وان يكشفوا عن وسائل اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل الثقيل والوصول بطلب الخفة إلى غايته المنشودة بواسطة ما جردوه من قواعد تصريفية على أساس من الإدغام والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف...الخ. فأدغموا المثلين والمتقاربين لكراهية تواليهما ومنعوا توالى الضدين (كالصاد والجيم) مثلا وأعلوا الواو والياء فى مواقع معنية وأبدلوا حرفا من حرف (كإبدال الطاء من تاء الافتعال بعد الحرف المفخم) ورصدوا انتقال أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما فى لفظ "جاه". وقلب حرف فى النطق إلى صورة حرف آخر كما فى "كساء وبناء" وحذف حرف ما لثقل النطق به كما فى حذف الواو فى "لتبلون". وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية سمتها السّعى إلى طلب الخفة. بهذا نكون قد أنهينا القول فى المعنى التحليلى (أحد قسمى المعنى الوظيفى) لنتناول بعد إن فرغنا منه القنسم الثانى وهو المعنى التركيبى، أى معنى الجملة. ويبدو هذا المعنى على الصورة الإيضاحية التالية:



أما لفظيا فهى إما أسمية وإما فعلية وإما مسكوكة من عناصر أخرى.

بقى أن نتناول فى حدود المعنى الوظيفى ظاهرتين يتوقف عليهما مفهوم الاقتصاد اللغوى هما: تعدد المعنى الوظيفى، ونقل اللفظ من قسم إلى آخر من أقسام الكلم، وعندئذ يتعرض معناه للتغير. وهكذا يصبح تغير المعنى سمة مشتركة للنوعين كليهما. ومن شواهد النقل مثلا ما نلاحظه من انتقال "إذ" من معنى الظرفية إلى معنى المصدرية فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران ٨) أى بعد أن هديتنا. ومن الظرفية إلى التعليل كما فى قوله جل شأنه: ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء ٧٢) أى لأنى لم أكن معهم، وتصلح هنا للواسطة أيضاً أى بأنى لم أكن معهم. ومن ذلك ما يكون من شأ، "ما" الموصولة بحسب أصل وضعها إذ تنقل إلى استعمال الحروف والأدوات، فتكون استفهامية أو شرطية أو تعجبية أو مصدرية أو زائدة، فيتعدد معناها فى نطاق الحرفية. وبذا تتحقق بها الظاهرتان معاً وهما: النقل من الموصولية إلى الحرفية ثم تعدد المعنى فى نطاق الحرفية.

هذا هو الشأن فى المفردات. أما نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر فهو أيضاً من وسائل الاقتصاد فى اللغة. فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من فعل وفاعل أو من مبتدأ وخبر لنسبنا التركيب إلى الجملة الخبرية لأول وهلة، ولكننا إذا دققنا فى تفهم دلالة السياق فربما وجدنا للجملة معنى آخر كدلالة التركيب الخبرى على الأمر فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة ٢٢٨)، أو الدعاء نحو: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (هود ١٨) وقولنا "رعاك الله" أو "بارك الله فيك". كما يستعمل هذا النمط للدلالة على الشرط كما فى قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة ٢٧٤) وقوله ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء ١٦). وكذلك يستعمل هذا التركيب فى معنى العرض نحو: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨)، وفى معنى الالتزام والتعاقد كقول موسى

لشعيب: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ (القصص ٢٨)، ولإفادة التعجب نحو ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص ٥). وأما النمط الخبرى المنفى فينقل إلى الدعاء، نحو: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (البلد ١١)، أو إلى النهى نحو ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة ١٩٧). وقد يخرج النمط الشرطى إلى التعجب نحو ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ (الرعد ٥)، وإلى التمنى نحو ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ (البقرة ١٦٧) وإلى التسوية نحو ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان ٣) أى إن كان شاكراً...الخ. وينقل النداء إلى معنى التعجب نحو ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ (يوسف ١٩)، وإلى الندبة كما فى قول يعقوب: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف ٨٤)، وإلى الاختصاص نحو ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (لواقعة ٥١-٥٢) وإلى التمنى نحو ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ (القصص ٧٩). وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر ٦٠)، وإلى النهى نحو ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (المائدة ٩٠) أى لا تقربوه. وإلى العرض نحو ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ (يوسف ٧٨)، وإلى التحدى نحو ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ (الشعراء ١٨٧). وينتقل النهى إلى الدعاء نحو ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ (آل عمران ٨)، وإلى الأمر نحو ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٣) أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت، كما ينقل أيضا إلى الشرط نحو ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود ١١٣). أما الاستفهام فينقل إلى الإنكار نحو ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف ٦٤)، وإلى التقرير نحو ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ (الضحى ٦)، وإلى النهى نحو ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء ١٦٥)، وإلى الأمر نحو﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحجر ٧٠). بهذا يتبين أن النقل من وسائل التعبير إلى الكثير من المعانى.

والمعروف أن ظاهرة النقل من وسائل الإبداع فى المعنى، وبخاصة إذا انتقلنا من الكلام فى المعنى الوظيفى إلى تناول المعجمى. فالمعروف أن المعنى المعجمى أيضا يتسم بالتعدد ويخضع لظاهرة النقل. ولبيان ذلك دعنا أولا نضرب مثلا شهيرا لنقل المعنى المعجمى بوصفه وسيلة من وسائل الإبداع فى اللغة العربية. فحين عرّف البلاغيون المجاز قالوا إنه: "نقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بينهما مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". فإذا نظرنا إلى نص هذا التعريف وجدناه يبدأ بكلمة "نقل"، فدلنا ذلك على أن النقل وسيلة من وسائل الإبداع للمعنى اللغوى. هذا من جهة النقل. أما من جهة التعدد فإننا إذا نظرنا إلى أية كلمة فى المعجم لم نجد لها معنى فريدا لا يتعدد، وإنما تتعدد معانى الكلمة الواحدة بحسب ما يحيط بها من سياق النص (بل من سياق الموقف أحياناً)؛ ومن هنا جاءت ضرورة الاستشهاد على المعنى المراد بالكلمة، كما تلزم الصورة وغيرها من القرائن الدالة على المراد. إنظر مثلا إلى تعدد معانى لفظ "ضرب" فيما يلى:

١ ـ ضرب الأب ابنه > لطمه.

٢ ـ ضرب الله مثلا > قاله.

٣ ـ ضرب له موعداً > حدده.

٤ ـ ضرب له قبة > أقامها.

٥ ـ ضرب النقود > صاغها.

٦ ـ ضرب ضريبة > فرضها.

٧ ـ ضرب الجرس > دقة.

٨ ـ ضرب ٥ × ٦ > حسبها.

٩ ـ ضرب أخماساً فى أسداس > ارتبك.

١٠ ـ ضربت عليهم الذلة > أصابتهم.

فهذا التعدد فى المعنى يذكرنا بما سبق من تعدد المعنى الوظيفى للظرف "إذا"

وللموصول "ما" بعد نقلها إلى قسم الحروف؛ أى أن ظاهرتى النقل وتعدد المعنى من ظواهر النظام اللغوى بمفرداته وتراكيبه على حد سواء.

وللإبداع فى مجال المعنى العرفى وسائل أخرى تعارف عليه البلاغيون والمعنيون بالأساليب من ظواهر الوصل والفصل والتقديم والتأخير والحذف والزيادة والإضمار والقصر والإيجاز والإطناب والوقف وما أشار إليه علم النص من مفاهيم السبك والمساوقة والإعلامية ورعاية الموقف...الخ. دعنا نورد بعض الشواهد من النص القرآنى أيضا لندلل بها على صدق ما نقوله عن هذه الظواهر

* إن فصل الجملة عما يليها فى الكلام يدل على الرغبة فى إنهاء موقف غير مرغوب فيه من لدن أحد طرفى الاتصال (الملقى والمتلقى): فقد يرغب الملقى فى إنهاء الاتصال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص ٥٥).

* وقد تكون الرغبة فى إنهاء الموقف من لدن المتلقى كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص ٦٢ ـ ٦٣). وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ (المائدة ١١٦)

فالفصل فى هاتين الآيتين الأخيرتين يدل على فزع المتلقين (الذين حق عليهم القول وعيسى عليه السلام) أثناء الإجابة على السؤال الذى وجهه سبحانه إليهم، وعلى رغبة كل من الفريقين فى إنهاء الموقف بالسرعة الممكنة.

ومما يتصل بظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة الوقف، فالوقف أيضا متصل بتمام المعنى ولا يكون بدونه. وقد يحدث أحيانا أن يتوقف إدراك تمام المعنى على إحدى القرائن ويتوقف إدراك هذه القرينة ذاتها على السياق ومن هنا يكون السياق هو معيار وجوب الوقف. وذلك كما يلي:

* قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (يونس ٦٥) فالوقف واجب على "قولهم" مع الاستئناف بما بعده؛ لأنهم لو قالوا: "إن العزة لله جميعا" ما كان ثمة داع للحزن.

* قال جل شأنه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص ٨٨) فالوقف واجب على لفظ "آخر" لأن المعية التي قبله ونفيها الذى بعده لا يلتقيان، والآخر لا ينعت بالتوحد لمجرد كونه آخر. ومن هنا يكون الاستئناف سببا فى صرف معنى نفى الغير إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى لفظ "آخر".

وأما ظاهرة الإبداع من خلال التقديم والتأخير فمثالها قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦) ذلك أن الترتيب النحوى لهذه الآية بحسب الأصل يقتضى أن تكون الرتبة: أتريدون آلهة دون الله إفكا؟ ولكن ترتيب العناصر المكونة لهذه الآية جاء حسب ترتيب أهمية الإنكار والاعتراض على كل منها. فالإفك أولها والشرك ثانيها، وتأتي الإرادة لكل منهما أخيراً، لأن الإرادة فى ذاتها ليست موضع اعتراض، وإنما ترفض عندما تتجه إلى الباطل.

والحذف عندما يكون المذكور متضمناً للمحذوف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ (القصص ٢٣ ـ ٢٤). فالسقى والذود والإصدار إنما يكون للماشية ومن ثم لم يرد لها ذكر، ولو ورد لكان فائضا عن مطلب النص.

وقد يحذف الفضلة كما فى الآية السابقة وقد يحذف العمدة من الكلام إذا دل عليه دليل. انظر إلى حذف فعل التعجب فى قوله تعالى: "ما الحاقة" لدلالة على ما بعده عليه من قوله سبحانه: "وما أدراك ما الحاقة" ومثله "ما القارعة وما أدراك ما القارعة". وفى الحديث الشريف: "زوجى أبو زرع، وما أبو زرع".

وحسن السبك من وسائل الإبداع للمعنى. والمقصود بحسن السبك الوفاء بمطالب الافتقار والاختصاص والمناسبة المعجمية بين المفردات ومطالب الرتبة ووسائل الربط وغير ذلك من الشروط النحوية للكلام. ولو نظرنا إلى ما نظمه المتنبى من تحدى السبك لأدركنا قيمة حسن السبك فى إبراز المعنى وبيان حسنه. قال المتنبى:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفـرا رسـومهـا قلما

أراد أن يقول: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كان قلما خط رسومها، ولكن سوء السبك حال دون فهم ما قاله.

ولا يتحقق الإبداع إلا مع رعاية الموقف. فلو أن قائلاً قال لك: إن لى ابنا سميته محمدا فقلت له: لماذا؟ لكان كلامك مخالفا للموقف لأن الأسماء لا تعلل. ولو تكلم النائم فوعد بشيء ما لم يلزمه الوفاء بهذا الوعد لعدم القصد. ولو سمعت إنسانا يقول "السماء قام ليتنى" لم تقبل منه ذلك بوصفه نصا. ولو سمعت رجلا يقول لأهل الميت: (عقبى لكم) لرفضت منه ذلك لعدم رعاية الموقف. ومعنى ما تقدم أن الإبداع فى المعنى لا يتحقق إلا مع رعاية المعايير النصية وحسن الانتفاع بها. ولنا الآن بعد طول سفر أن نلقى نظرة على المعنى الذهنى.

المعنى الذهنى:

إذا كان الوصول إلى المعنى العرفى يتم بواسطة الاستقراء فإن الوصول إلى المعنى الذهنى يتم بواسطة الاستنباط. ذلك أن المعنى العرفى موجود بالقوة فى المعهود الفردى وفى الذاكرة الجماعية، ومن هنا كان صالحا للاستقراء. أما المعنى الذهنى

فغير موجود لا بالقوة ولا بالفعل، ومن ثم افتقر إلى نوع آخر من الاستدلال وهو الاستنباط الذى قد يصيب فيكشف عن معنى ذهنى صائب وقد لا يصيب فيظل المعنى فى دائرة العدم مفتقراً إلى استدلال أفضل. وقد يكون الاستدلال بواسطة الاستنتاج كما يكون بواسطة الاستدعاء، وفى كلتا الحالتين يكون الوصول إلى المعنى بحاجة إلى نشاط ذهنى. فإذا قلت وأنت طالب بكلية الآداب مثلا: أنا ذاهب إلى الكلية، علم السامعون من أفراد أسرتك أنك تقصد كلية الآداب دون غيرها، وذلك بحكم العهد الذهنى الذى يربط بين الملقى والمتلقى فى هذا الموقف. وإذا قلت: رأيت اليوم فلانا يصلى الجمعة، وكان معروفا عن فلان أنه مسافر، فهم السامعون بلازم المعنى أنه قدم من السفر. وإذا قال لك رجل معروف بالجبن: أنت بخيل، فقلت له: ولكنى غير جبان، فسوف يعلم بمفهوم المخالفة أنك تعيره بالجبن. فالعهد الذهنى ولازم المعنى ومفهوم المخالفة ونحو ذلك مفاهيم ذهنية غير عرفية تومئ إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى لا يلزم فيه أن يكون صورياً. والمنطق إما أن يكون صوريا يفرض على مقدماته أن توضع فى ترتيب خاص تصلح معه أن تؤدى إلى نتائج قياسية وإما أن يكون غير صورى كالأمثلة التى سبق ذكرها منذ قليل. وإذا أردنا أن نشرح مفهوم الصورية فأقرب شئ إليها صورية المسائل الحسابية التى تفرض على الآحاد أن توضع تحت الآحاد، والعشرات تحت العشرات، وهلم جرا، كما تسمح عند تساوى كمية فى البسط مع أخرى فى المقام أن تشطبا معا دون أثر على النتيجة. فكذلك الأمر فى المنطق الصورى الذى يحتم أن توضع المقدمات وضعا خاصا، وأن يستبعد الجزء المشترك بين المقدمات الصغرى والكبرى، وعندئذ يكون الباقى هو النتيجة على النحو التالى:

الإنسان	حيوان ناطق
محمد	إنسان
محمد	حيوان ناطق

فانظر كيف حكمت صورة القياس بشطب لفظ الإنسان ولفظ إنسان فى كل من

المقدمتين فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة للقياس تنص على أن محمدا حيوان ناطق. هذا الترتيب الصورى لا يصلح لاستخراج المعنى اللغوى فى معمعة الاتصال، وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال. وليس فى لغة التخاطب العادية ما يحمل أدنى شبه بمقدمات القياس الصورى إلا تركيب الشرط الامتناعى باستعمال "لو" كما فى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء ٢٢). فهذه الجملة يمكن أ، يبنى منها قياس شرطى على النحو التالى:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا،

ولكنهما لم تفسدا،

إذن: ليس فيهما آلهة غير الله.

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاتصال اللغوى ليس نتيجة قياس منطقى صورى، وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات والمفاهيم معا بواسطة التداعى الذهنى.

تصور أن الشرطة علمت بواقعة قتل فى مكان ما فخف رجال المباحث الجنائية إلى مكان الحادث لمحاولة الكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومعرفة من ارتكبها. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى عملهم أن يحافظوا على بقاء كل شئ فى مكانه للمحافظة على الأدلة؛ فلعلهم يجدون فى أوضاع الأشياء ما يصلح أن يكون قرينة على شئ ما كأحد أزرار الملابس أو كخصلة شعر أو شئ لا قيمة له فى ذاته ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة... الخ. فإذا وجدوا من ذلك ما يصلح أن يكون قرينة فإن الذى تدل عليه هذه القرينة هو معنى ذهنى جاء عن طريق الاستنباط. وما يزالون يجمعون الأدلة حتى يصلوا باستعمالها إلى تصور متكامل لما وقع أثناء حدوث الجريمة. وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا هوية القاتل. وهذه صورة من صور المعنى الذهنى طابعها الاستنباط.

ومن المعانى الذهنية مفهوم المخالفة الذى أشرنا إليه من قبل. تأمل مثلا قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان ٣٤) فلا شك فى أن الله يعلم هذه الأمور الخمسة، ولكن علمه بثلاثة منها يأتى من خلال العبارة الصريحة والمعلومان الآخيران يأتيان بواسطة مفهوم المخالفة على النحو التالى:

المعلوم	بالعبارة	بالمخالفة
علم الساعة	+	-
نزول الغيث	+	-
علم ما فى الأرحام	+	-
الكسب فى المستقبل	-	+
الموت	-	+

فالتقدير فى المعلومين الأخيرين هو (ولكن الله يدرى) وهو المعنى المقصود.

ومن المعانى الذهنية المعنى الاستدعائى (وهو المدلول الذى يستدعيه قول أو عمل). ومنه ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز المرسل. فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها اللزوم؛ فإذا قلت: فلان طويل النجاد، فإن طول النجاد يلزم عنه (أى يستدعى إلى الذهن) طول القامة. فلو أن فلانا الذى يحمل سيفا ذا نجاد طويل لم يكن ذا قامة طويلة لكان مضطرا أن يجر سيفه وراءه، فلا تكون العبارة مدحا له وإنما تنقلب إلى سخرية منه. وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى: الإضافة (وتحتها السببية والمسببية) والكم (وتحتها الكلية والبعضية) والزمان (وتحتها ما كان وما يكون) والمكان (وتحتها الحالية المحلية).

ومن المعانى الاستدعائية ما يأتى فى صورة ظل من ظلال المعنى الأصلى للفظ

نتيجة لتحول فى العرف، فيقال عندئذ إن العبارة أشربت معنى آخر. أى أن اللفظ المفرد وهو يدل على المعنى العرفى الذى نسب إليه فى المعجم قد تجاوز هذا المعنى العرفى حين أصبح فى سياق النص ليتحول إلى دلالة أخرى استدعاها جو النص. فمن المعروف أن كلمة "الوطن" مثلا معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ. فلو أن مصرياً قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من انتساب هذا المتكلم إلى مصر، فهذا فى قوة قوله: أنا مصرى. ولكن أين هذا من قول شوقى:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسي

الذى منح الوطن ظلا لم يكن له وهو لفظ مفرد من ألفاظ المعجم.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى الانعكاسى الذى يصيب لفظا ما ليصير هذا اللفظ غير مستحب فى السمع. فمن المعروف مثلا أن لفظ "البيت" يوحى حال إفراده بالاحترام إذ يدل على مستقر الأسرة أو حتى على البيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام. ومن المعروف أيضاً أن لفظ "الأدب" من الألفاظ الداعية إلى الاحترام، فلو نسب شخص ما إلى قلة الأدب فلابد أن يغضب لنفسه غضبا شديدا. ولو وصفنا إنسانا بأنه (من بيت علم) لسره ذلك، ولكننا لو وصفناه بأنه من (بيت أدب) لرأى فى ذلك إهانة له، ولصرف الوصف إلى معنى غير مستحب.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى البؤرى الذى يضع اللفظ فى بؤرة الاهتمام. وهذا المعنى هو الذى يراه النقاد من وظائف التقديم فى الأسلوب الأدبى. وقد سبق أن جئنا بشاهد على قيمة التقديم هو قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦). وقد يأتى هذا الظل البؤرى من خلال التكرار عند الربط بإعادة اللفظ كما فى قوله تعالى﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ٧٨). وكما فى الحديث الشريف حين سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: "من أحق الناس بحسن صحابتى"؟

قال: "أمك" قال: "ثم من"؟ قال: "أمك" قال: "ثم من"؟ قال: "أمك". قال: "ثم من" ؟ قال: "أبوك". فأعطى للأم بؤرة الانتباه.

أما الوصول إلى الإبداع فى المعنى الذهنى فمرتهن بالنشاط الذهنى أيضا. ففى قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" لم يذكر من القياس إلا هذه المقدمة، ويبقى على الذهن بعد ذلك أن يبنى القضية الثانية وهى: "ولكنهما لم تفسدا" وذلك بناء على الإدراك القائم لعدم الفساد، ومن ثم يمكن الوصول إلى النتيجة القائلة: إذن "ليس فيهما آلهة إلا الله". وفى عمل رجال المباحث الجنائية يكون الوصول إلى شخص القاتل عملا استنباطيا بكل المقاييس وفى المجاز المرسل يكون على الذهن أن يستعين بالمقولات الأربع لاستنباط العلاقات. وفى الكناية يدرك الذهن لزوم بشئ عن شئ آخر. وفى إدراك ظلال المعانى كما فى معنى تمجيد الوطن نجد الذهن ينصرف عن المعنى العرفى إلى الاعتزاز وإعلاء القيمة. وفى حالة المعنى الانعكاسى أيضا انصراف عن المعنى العرفى إلى معنى آخر ألصقه الذهن باللفظ بناء على ارتباط بين هذا اللفظ وبين أمر آخر غير مستحب. ويبقى مما ذكرنا من المعانى الاستدعائية ما أطلقنا عليه لفظ "المعنى البؤرى" وهذا يعتمد على أمر ذهنى ليس من قبيل العرف وهو التكرار أو التقديم أو غير ذلك من الوسائل المستعملة فى تسخير اللفظ لتوليد المعنى بواسطة التصرف فى خصائص هذا اللفظ لإخراجه من نطاق المعنى الذى تعارف عليه المجتمع اللغوى إلى معنى آخر يدركه الذهن ولا يفرضه العرف.

المعنى الانطباعى:

إذا سمعت قطعة موسيقية فإنها تترك فى نفسك أثرا طيبا أو سيئا، وربما أثارت فى نفسك نشاطا يتناسب مع إيقاعها أو تركت لديك خمولا مناسبا لها. وإذا صادفت شخصا تعرفه فنظر إليك بوجه متجهم فهمت من عبوسه أنه غير راض عنك، وإذا صادفت لوحة للرسم فرأيت بها منظرا معينا حكمت لهذا المنظر بالجمال أو عليه بالقبح. كل أولئك يعد من قبيل الانطباع الشخصى الذى لا يخضع لعرف ولا

لفكر. فقطعة الموسيقى التى أعجبتك قد لا تعجب غيرك، وقد يفهم غيرك من عبوس العابس أنه لابد أن يكون قد مر بتجربة غير سعيدة فيخف إلى سؤاله عن حاله، أما المنظر الذى رأيته فى اللوحة فقد يثير عند غيرك إحساسا غير الذى كان لك فيحكم على هذا المنظر بالقبح. فالواضح مما تقدم أن هذا المعنى الانطباعى لا يعد من قبيل الفعل بالنسبة لمن يدركه وإنما هو من قبيل رد الفعل.

هذا المعنى الانطباعى من نوعين: أحدهما يأتى عن الانفعال والأخر عن التجربة الحية. فأما من حيث الانفعال فكلنا يرى فى الضخامة معنى الهيبة والاحترام. ومن الأدلة على ذلك أن أماكن العبادة من المساجد أو الكنائس لا تكتفى من الارتفاع والعلو بما يسود فى المساكن العادية؛ لأن المساكن العادية هى بيوت العباد. أما أماكن العبادة فهى بيوت الله، فمن دخلها فإنه يشعر عند دخولها أنه فى مكان يستحق الخشوع والاحترام. ومن المعروف أيضا أن التفخيم للأصوات أضخم من الترقيق، فإذا أردنا أن ندخل عليها عنصر التأكيد عدلنا عن الترقيق إلى التفخيم، كما فى قوله تعالى فى معرض الإخبار عن تكوين الأرض: "والأرض بعد ذلك دحاها" أما عند ارادة التأكيد فإن الأمر يحتاج إلى تفخيم الصوت فجاء صوت الطاء المفخم فى موضع صوت الدال.

والتكرار أيضاً من وسائل المعنى الانطباعى لكونه يؤكد فيولد الانفعال. ويأتى هذا الانفعال عند تكرار الصوت فى الكلمة المفردة ذاتها كما فى قوله تعالى: "فكبكبوا فيها هم والغاوون" فقد جاء تكرار الكاف والباء موحيا بأن إسقاطهم فى النار لم يكن دفعة واحدة، وإنما سقطوا فيها طوائف يتلو بعضها بعضا. ومثله قوله تعالى" ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (الشمس ١٤). وقد يأتى الانفعال من تكرار الكلمة المفردة، كما فى قوله تعالى: "حتى إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا" فقد عبرت الآية عن مبدأ التوالى بتكرار كلمتى "دكا" و "صفا" فكان المعنى توكيدا لفظيا.

وللإيقاع أثر حسى سمعى هو معناه الانطباعى الذى يحسه من يسمعه سواء كان

هذا الإيقاع موسيقيا أم كان لغويا نثريا أم شعريا. ولقد سبق منذ قليل أن أشرنا إلى التكرار الذى قرأناه فى عبارتى: دكا دكا وصفا صفا. ونود أن نشير الآن إلى ما سبق فى النص ذاته من عبارتين أخريين هما: أكلا لما وحبا جما وإلى ما يحسه القارئ عند قراءة العبارات الأربع من إيقاع لا يخفى على ذى سمع. وفيما يلى عرض للآيات المشتملة على هذا الإيقاع: "وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا". اما فى الشعر فالأمر أشهر من أن يبالغ المرء فى شرحه، حتى إن بعض ذوى النظر فى أغراض الشعر يربطون بين بحور الشعر فى تباينها وبين أغراضه. فيرون أن طوال البحور أولى بالاستعمال للأغراض الجادة، وقصارها ألصق بالأغراض الخفيفة. فالطويل والبسيط مثلا يناسبان الفخر والهجاء والمدح والرثاء ونحوها، ولكن المتقارب والمتدارك مثلا أولى بالأغراض المستخفة. وبين الطائفتين أبحر تتوزعها الأغراض، ومنها الرجز الذى يسمونه: حمار الشعر.

ومن المؤثرات الانطباعية حكاية الصوت للمعنى، وهى غير ما ذكرناه منذ قليل فى شأن الضخامة والتفخيم وما يثيرانه من الهيبة والتأكيد. ذلك أن الصوت هنا لا يوحى فقط بل يحكى المعنى ويقربه إلى الفهم أكثر مما يفعل الإيحاء. انظر مثلا إلى قوله تعالى: "مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثا قلتم إلى الأرض" وستجد أن "اثا قلتم" أصله تثاقلتم، وكان يمكن أن يستعمل بصورته الأصلية ليدل على المعنى الأصلى (العرفى) وهو التثاقل. ولكن الآية آثرت أن تحول المعنى العرفى إلى معنى آخر انطباعى، فعمدت إلى استعمال حكاية الصوت للمعنى. فكان ذلك بإدغام المتقاربين (التاء والثاء) فى أول لفظ الفعل ثم اجتلاب همزة وصل فى أول الكلمة للتوصل إلى نطق الجزء الأول من الثاء المشددة. أين إذن كانت حكاية الصوت للمعنى؟ إن الثاء المشددة صوت رخو يعتمد فى نطقه على تسرب الهواء من منطقة المخرج فيبدو للسمع كأنه إفراغ طاقة محبوسة يبدو صوتها كصوت إفراغ إطار عجلة السيارة من الهواء. أرأيت إلى السيارة بعد إفراغ ما فى اطرها من هواء أيكون

من شأنها أن تتحرك؟ إن الآية الكريمة تدل بحكاية هذا الصوت على امتناع هؤلاء المخاطبين عن الحركة واللحاق بالمجاهدين فى أرض المعركة.

وأشباه هذه الحكاية فى القرآن الكريم كثير كالذى نجده فى قوله تعالى: "تأخذهم وهم يخصمون" (بكسر الخاء وتشديد الصاد المكسورة) وقوله جل شأنه: "آمن لا يهدى إلا أن يهدى"، "وحتى إذا اداركوا فيها جميعا" وهلم جرا.

وثمة نوع آخر من الحكاية يتم بواسطة ارتجال ألفاظ لا وجود لها فى اللغة. ومن ذلك أن المعروف أن عالمنا هذا الذى نعيش فيه لا يعرف شجرة تسمى: "شجرة الزقوم"؛ فهى ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات ٦٤ ـ ٦٥). وقد ارتجلت الآية هذا الاسم للشجرة المذكورة، وجعلت الاسم يحكى أهم خواصها وهى أنها "طعام الأثيم"، وأن الضالين المكذبين يأكلون من ثمرها فيملأون منه البطون. فلماذا كانت حكاية اسم الشجرة المذكورة على هذا النحو؟ أول ما يربط هذا الاسم بالطعام اشتمال الاسم على الزاى والقاف ومنهما يتكون الفعل "زق" الذى يصف إطعام الطائر لفرخه إذ يقال: "زق الطائر فرخه". ثم نلاحظ أن القاف (ومخرجها قريب جداً من البلعوم) جاءت مشددة فكانت أطول زمنا فى نطقها من القاف المفردة، مما يحكى بقاء اللقمة فى هذا الموضع مدة أطول مما يكون مع إفراد القاف مما يحكى عسر البالع. وليت الحكاية وقفت عند هذا الحد، ولكنها تجاوزت ذلك إلى اختيار تحريك القاف بواسطة واو المد دون الضمة القصيرة فأضافت زمنا إلى بقاء اللقمة فى موضعها دون ابتلاع لزيادة معاناة الآكل. ثم يأتى الحرف الأخير فى الكلمة معبراً عن نهاية المعاناة. فنحن نستطيع أن نشرب الماء بصبه فى فم مفتوح الشفتين والفك الأسفل دون الإحساس بمشكلة أثناء البلع، ولكن ابتلاع الطعام لا يكون إلا مع إقفال الشفتين الذى هو جزء من نطق صوت الميم. وهكذا تعددت طرق الحكاية فى لفظ مفرد للدلالة على مرور الضالين المكذبين بإحدى صور العذاب فى الأخرة.

سبق أن قلنا إن المعنى الانطباعى قد يأتى عن طريق التأثر وقد يكون عن طريق التجربة الحسية Pragmatic والمعروف أن التنافس بين الأقران للوصول إلى النجاح أمر مطلوب، غير أن أحد المتنافسين قد يبالغ فى اتخاذ الوسائل المؤدية إلى النجاح حتى يعمل دون قصد على إفشال جهود الآخر. عندئذ يكون من المعقول أن يفهم الآخر أن التنافس قد تحول إلى تنافر أو تناجز، ثم يتصرف إزاء صاحبه فى ضوء هذا الفهم. وقد يكون بينك وبين أحد صداقة متينة طال عليه العهد حتى أصبحت أقرب إلى مرتبة الإخاء ثم يعرض له المرض ولا تعلم أنت بمرضه ويظل هو يطمع فى أن تعوده فلا تعوده، فيفهم من ذلك أنك قد تنكرت للصداقة، ويقف منك موقفا مناسبا لهذا الفهم. وقد تبحث عن مسكن تسكنه فتصادف حيا نظيفا من أحياء المدينة تكثر فيه المساجد فتبادر إلى سكناه راضيا عنه، ثم يتكشف لك بعد قليل أن كثرة المساجد التى أغرتك بسكنى الحى لها جانب آخر يزهدك فى سكناه. ففى المساجد مكبرات صوت تغمل بأقصى طاقتها، وأئمة هذه المساجد يتنافسون فى إلقاء دروس قبل الصلوات أو بعدها ويطيلون فى الخطبة يوم الجمعة. وقد تقام مراسم العزاء فى ساحات هذه المساجد فما تزال تضيق ذرعا بالأصوات العالية حتى تصل إلى قرار مغادرة هذا الحى إلى حى آخر يتمتع بالهدوء. وهكذا ينقلب المعنى من الإقبال والترحيب إلى الإدبار والنفور.

وقد تتعدد المعانى الإنطباعية فى فهم التجربة الواحدة بحسب اختلاف المواقف، فتكون: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ (النور ٤٩ ـ ٥٠). وواضح من سياق الآيات أن هؤلاء المنافقين يعلنون الإيمان والطاعة إذا رأوا فى ذلك نفعاً، ثم يرى فريق منهم أن النفع لم يعد كما كان فيعرضون عما أعلنوه من قبل من الإيمان ثم إذا اضطروا إلى التقاضى فعلموا أن القاضى هو رسول الله أعرضوا مخافة أن

يكون الحق من جانب الخصم، أما إذا كان الحق فى جانبهم فإنهم يخضعون لحكم النبى صلى الله عليه وسلم. من هنا يكون المعنى الذى اختلف فهمه من لدن المسلمين على النحو التالى:

- إعلان الإيمان ثم النكوص عنه = فى قلوبهم مرض. (أفى قلوبهم مرض).
- عدم قبولهم قضاء النبى = ريب. (أم ارتابوا).
- خوفهم أن يحيف الله رسوله عليهم = ظلم. (بل أولئك هم الظالمون).

هذا ما فهمه المسلمون بالانطباع الذى سيطر على أفهامهم فلم يفضلوا أحد الفروض على غيره.

تلخيص:

رأينا مما سبق أن المعانى أنواع بعضها يستند إلى العرف ويحدده اتفاق الجماعة اللغوية؛ فاستعماله يتطلب القياس على ما ارتضاه المجتمع. فمن أراد الإبداع فسبيله إلى ذلك هو الخروج على أصل الاستعمال العرفى باللجوء إلى إحدى الوسائل التالية:

١ - عرفنا مما سبق أن المعنى قد يتعدد للعنصر اللغوى الواحد مع تفاوت شهرة كل معنى. فمن وسائل الإبداع المعنى الذى يناسب جو النص.

٢ - ومن الوسائل المذكورة نقل اللفظ من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم كما فى المجاز ونحوه.

٣ - ومنه نقل نمط الجملة من معناه الأصلى إلى معنى آخر، كتحول النمط الخبرى إلى معنى الأمر فى "والمطلقات يتربصن".

٤ - الترخص فى قرائن المعنى، وهى الإعراب والبنية والأداة والتضام والرتبة والربط. فكل واحدة من هذه القرائن قد تفيض عن حاجة أمن اللبس، فيصبح المعنى واضحا بدونها، وعندئذ يمكن الترخص فيها بعدم استعمالها فى الكلام. ومن ذلك ما يلى:

أ ـ من الترخص فى الإعراب ما يسميه النحاة إعراب الجوار، وتعلق المعنى بالبديهات دون الحركات نحو "جحر ضب خرب" و "خرق الثوب المسار" ...الخ.

ب ـ التصرف فى البنية، نحو "أمن لا يهدى" وكذلك "وطور سينين" و "سلام على إلياسين" و "وكذبوا بآياتنا كذابا".

ج ـ الأداة، كدلالة "هل" على التعجب فى قوله تعالى: "هل فى ذلك قسم لذى حجر"، وقوله: "الحاقة ما الحاقة". وكحذف الأداة "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون "وزيادتها فى قوله: "لئلا يعلم أهل الكتاب"، وكذلك فى: "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم".

د ـ التضام، نحو حذف الجواب فى "ائن ذكرتم" (أى تطيّرتم)، ومثل إضافة المصدر فى "لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا" فلولا القرينة الدالة على أن المعنى على إضافة المصدر إلى فاعله فيما يلى لوقع اللبس فى المعنى.

هـ ـ الرتبة، نحو "ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه" (أى سخروا منه وهو يصنع الفلك)، ونحو "وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه" (أى نادى نوح ابنه وهى تجرى بهم فى موج كالجبال).

و ـ الربط، نحو "اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم" (أى أنعمتها) وكذلك "قضى الأمر واستوت على الجودى" (الضمير المستتر لسفينة لم يرد لها ذكر) ونحو "وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق" (الضمير فى بينهم يعود على الخلق كلهم ولم يرد لهم ذكر) وكذلك "قالتا أتينا طائعين". (أى طائعين).

هذه أمثلة وشواهد قليلة تشهد على ظاهرة واسعة الانتشار هى ظاهرة الترخص

فى القرينة عند أمن اللبس وهى صورة من صور الإبداع فى استعمال اللغة العربية. أضف إلى ذلك ما يعرض للسياق من فصل أو حذف أو إضمار أو قصر أو إيجاز أو غير ذلك من طرق الإبداع فى حدود المعنى العرفى.

أما بالنسبة للمعنيين الذهنى والانطباعى فليس هناك ما يربطهما بالعرف اللغوى، بل بالعكس، هما يمثلان نشاطا فرديا يختلف من فرد إلى آخر، ومن ثم يعد كل منهما مجالاً للإبداع الشخصى.

الفرق بين اللبس واحتمال وجوه المعنى

إذا قلت لصاحبك: "زرت فلانا ساعة ثم غادرته غاضبًا" لم يدر صاحبك من منكما كان هذا الغاضب. فهذا من قبيل اللبس، لأنه لا توجد قرينة فى هذه العبارة تعين على معرفة المعنى. وتقول: "ذهبت إلى ابن أخى وصديقه" فلا يدرى السامع لمن هذا الصديق، لابن أخيك أم لأخيك. والقرينة غائبة دائمًا فى الألغاز ليكون غيابها سببًا فى التباس المعنى كما يلى:

ما اسم شىء تركيبه من ثلاث   وهو ذو أربع تعالى الإله
فإذا ما قلبته وأخذت الـ   ثلث منه يكون لى ثلثاه

الجواب الفيل ولا دليل عليه فى النص لأن لفظ "قلبته" يفهم على وجهين: قلب الشىء وقلب اللفظ الدّالّ على هذا الشىء. ومنه أيضًا:

يأيها العطار أعرب لنا   عن اسم شىء قل فى سومك
تراه بالعينين فى يقظة   كما يرى بالقلب فى نومك

والجواب هو "كمون". والسر أيضًا فى لفظ "القلب" فى الحالتين. أما إذا قامت قرينة على المعنى فإن الأمر لا يعدو إحدى حالتين: أن يؤدى النص معنى واحدًا فقط، أو أن يخضع النص لأكثر من احتمال للمعنى لتعدد القرائن والاحتمالات. وهذا هو المقصود بقول المفسرين عن القرآن الكريم: إنه

حمال أوجه. دعنا نضرب بعض الأمثلة لدلالة القرينة على المعنى الواحد، مثال ذلك:

* لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

* يأتى البرد فى الشتاء ويأتى الحر مع الصيف.

* لمصر تاريخ حافل بالأحداث العظام.

* طلب العلم وسيلة للتقدم.

أما إذا قامت قرينة على المعنى الآخر (إما فى سياق النص وإما فى سياق الموقف) فإن هذا المعنى يتضح ولو بواسطة التأويل. انظر مثلاً إلى ما يلى من الآيات القرآنية وإلى ما بها من دلالة على المعنى:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥). تصلح "ما" هنا للنفى والموصولية ولكن النص يشتمل على قرينة تدل على أنها للنفى، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ فالشكر هنا موجه إلى من صنع الطعام.

* ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:). دليل المعنى ما يلى:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ معناه المهيمن، (انظر الجزء الأول من كتاب البيان فى روائع القرآن ص ٢٩٤ وما بعدها). والموقف مع هذه الآية موقف استعانة بالرحمن على من سمعوا الدعوة فلم يستجيبوا (الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٢) فالمعنى فى ظل هذا الفهم يجعل الرحمن صفة للمبتدأ، وهو "ربنا"، ويجعل لفظ (المستعان) خبرا عنه. أما المعنى الآخر فهو أن يكون الرحمن هو الخبر ويكون المستعان صفة للخبر.

* ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٢٥). رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ٩ ص ١٠٤ مثلاً) أن هذه العبارة تعنى أسلوبًا خبريًا، ولكن إعادة النظر فى الجملة تكشف عن أسلوب تعجبى يشبه قولنا: "لله أنت".

* ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: ٣)، رأى بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ١٧ ـ ١٨ ص ٢٠٨) أن المعنى (خلقها طبقات بعضها فوق بعض). غير أن قرينة المعنى هى ما يلى ذلك فى النص القرآنى من قوله تعالى: "ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت" أى خلقها متطابقة دون اختلاف. فالمقصود بالسموات هو المجرّات وهى متطابقة لأنها جميعها يشتمل على نجوم وكواكب وعلى جاذبية تشكل قوة طاردة تحول دون تصادمها.

* قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ٢ ـ ٤). قال بعض المفسرين (انظر تفسير الطبرى، الجزء الأخير ٢٤٥) إن معنى لفظ الصمد الذى يصمد إليه فى الحاجات. ولكن سياق النص يجعل ما بعد لفظ "الصمد" تفسيرًا لمعناه. فلا والد له ولا ولد ولا نظير.

فى هذه الآيات السابقة معان توضحها قرائن مستخرجة من النص أو من الموقف. وليس بهذه الآيات لبس، وليس فى معناها احتمال أوجه. أما ما نسب لبعض المفسرين من معان فالمعانى المقترحة هنا أولى منه بالقبول، أو على الأصح تعين على رفضه، وهكذا ينتفي أن يكون به تعدد أوجه.

غير أن السياق اللغوى أحيانًا يشير إلى أكثر من معنى مع تساوى المعنى فى صدق الدلالة، وفى هذه الحالة يقال إن النص حمال أوجه. وذلك كما يلى:

قد يعود تعدد احتمالات المعنى إلى الاشتراك فى اللفظ، وقد يعود إلى لازم المعنى، وقد يأتي من تعدد صور الإعراب أو اختلاف القصد، أو من غير ذلك من المقاصد كما سنرى بعد قليل:

المشترك اللفظى:

* قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

نسب بعض المفسرين إلى التقوى لباسا تلبسه أو أنها هى لباس يلبسه التقى، واورد القرطبى شعرا بهذا المعنى يقول:

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ولاشك فى أن إضافة اللباس إلى التقوى بقصد هذا المعنى على سبيل المشاكلة يحظى بالقبول إلى حد ما، ولكن الأقرب إلى القبول أن كلمة "اللباس" المستعملة هنا هى مصدر لابس يلابس لباسا وملابسة. أى أن مباشرة التقوى خير من ستر العورة.

* قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

* قال بعض المفسرين (انظر تفسير القرطبى ج ١ ـ ٢ ص ١٥٣): أى جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم. وفى قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٨) فهم بعض المفسرين الوسطية بالمعنى الزمنى فقالوا إن المقصود صلاة العصر لأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين أخريين (ولكن هذا يصدق على كل من الصلوات الخمس). غير أن المعنى المقبول فى هذا المقام هو أقرب (ولكن ليس طبقًا) للمعنى الأول، بدليل قوله تعالى فى معرض الكلام عن أصحاب الجنة (القلم: ٢٨): ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أى أفضلهم. وبذلك يكون معنى الصلاة الوسطى أى المتقنة.

لازم المعنى:

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧). يرى بعض أهل التفسير (انظر الجزء ١٣ من تفسير الطبرى ص ٤) أن أعيان قريش عيّروا النبى عليه الصلاة

والسلام بأنه قانع بأكل الطعام والمشى فى الأسواق وكان خيرًا له أن يكون فى صحبة الملائكة.

وقد أبطل الله سبحانه زعمهم هذا بقوله: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق". ولكن من الواضح أن هذه الآية تقصد بها الكناية وإن لها معنى آخر يلزم عن هذا المعنى الأول. ذلك أن آكل الطعام من شأنه أن يهضمه وأن يفرز فضلاته، وهذا الإفراز من شأن فاعله أن يتخفى عن الناس لا أن يسعى متلبسا به إلى مواجهتهم بالدعوة إلى اتباع دعوته إلى دين جديد يؤثر فى زعامتهم للعرب.

أما ما يلزم عن المشى فى الأسواق فهو ممارسة البيع والشراء وما يترتب على ذلك من زعم جودة سلعة رديئة لبيعها، أو رداءة سلعة جيدة لإنقاص ثمنها.

وكلا هذين الأمرين اللازمين ليسا من مهمات الرسل.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (المائدة: ٦٤). الغلول والبسط كنايتان عن البخل والكرم وكذلك عن الفقر والغنى. يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٨١). فهذان الوجهان (البخل والفقر) من لوازم الغلول.

تعدد احتمال الإعراب:

* قال تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج".

يقول ابن مالك فى الألفية (الجزء الثانى ص ٧):

وركب المفرد فاتحا كلا	حول ولا قوة والثانى اجعلا
مرفوعا أو منصوبًا أو مركبا	وإن رفعت أولا لا تنصبا

ويقول ابن عقيل في معرض شرح ذلك (الجزء الثانى ص ١١):

وأشار بقوله: "والثانى اجعلا" إلى أنه إذا أتى بعد "لا" والاسم الواقع بعدها بعاطف ونكرة مفردة وتكررت "لا" نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" يجوز فيها خمسة أوجه، وذلك لأن المعطوف إما أن يبنى مع "لا" على الفتح، أو ينصب أو يرفع. ثم يقول باختصار:

فإن بنى معها على الفتح جاز فى الثانى ثلاثة أوجه: البناء على الفتح لتركبه مع لا الثانية، نحو "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو النصب عطفا على اسم "لا"، أو الرفع وفيه ثلاثة أوجه: الأول أن يكون معطوفًا على محل "لا" واسمها، والثاني أن تكون "لا" الثانية عملت عمل "ليس"، والثالث أن يكون مرفوعًا بالابتداء.

نخرج من كل ذلك بما يلى:

أولاً: اللبس: تعدد احتمالات المعنى وليس لأحدها قرينة ترجحه.

حمل الأوجه: تعدد احتمالات المعني ولكل منها قرينة تدل على صحته.

ثانيًا: حمل عدد من أوجه المعنى يصدق على عموم اللغة لا على خصوص القرآن الكريم

كيف يتم التغلب على اللبس فى السياق العربى

المقصود باللبس تعدد احتمالات المعنى دون مرجح. إذ لا يستطيع من يتلقى الكلام أن يقطع بأن المقصود واحد بعينه من هذه المعانى المحتملة. ويرجع تعدد احتمالات المعنى إلى عدم التوازى بين المعانى التى تسعى اللغة إلى التعبير عنها والمبانى التى تشتمل عليها اللغة لأداء هذا التعبير. فالمعانى لا حدود لها ولا يمكن إحصاؤها، ولكن المبانى محدودة العدد. ومن هنا كان من الضرورى أن يتعدد المعنى للمبنى الواحد حين يكون هذا المبنى خارج النص، فإذا اشتمل عليه نص ما أصبح بحاجة إلى قرينة تشير إلى أن المقصود به فى بيئة النص هو أحد تلك المعانى التى كانت له حال إفراده. وتتفاوت النصوص فى القدرة على استعمال القرائن الدالة على المعنى المقصود عندما يعرض القصور فى دلالة المبنى على هذا المعنى. ولعل النص القرآنى الكريم أعظم النصوص وفاء بتقديم القرائن عندما يعرض اللبس فى اللفظ أو فى التركيب كما سنرى أثناء عرض الموضوع فيما يلى من بيان مسالك اللبس. وهذه المسالك هى:

* تعدد المعنى الوظيفى.
* تعدد احتمالات العلاقة السياقية.
* تعدد احتمالات المعنى المعجمى.
* تعدد احتمالات المعنى عند الحذف.

* تعدد احتمالات الوصل والفصل.

* تعدد احتمالات دلالة التركيب.

وسنرى نماذج من كل حالة من هذه في النصوص التالية:

أولاً ـ تعدد المعنى الوظيفى:

المقصود بالمعنى الوظيفى ما يقابل المعنى المفرد (المعجمى) والمعنى المفيد، وذلك فى عرف النحاة. وكان النحاة يصفون هذا المعنى الوظيفى بقولهم: "معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". غير أن الذى أقصده بهذا المعنى يشمل معانى الأدوات والصيغ الصرفية ولا يشمل معانى التعليق والربط. دعنا أولاً نأخذ لفظ "ما" بوصفها أداة متعددة الوظائف لنرى كيف تتعدد معانيها ويظل مبناها على حاله لا يتغير. وسوف تكون الشواهد من القرآن الكريم فى معظمها مع بيان القرائن الدالة على المعنى فى كل حالة:

* ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٥).

يسمح التركيب النحوى هنا بفهم "ما" فى "وما عملته أيديهم" بأحد معنيين:

أ ـ ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم.

ب ـ ليأكروا من ثمره ولم تعمله أيديهم.

غير أن فى هذه الآية قرينة على إرادة المعنى الثانى هى عبارة "أفلا يشكرون". لأن من يأكل طعامًا لم يصنعه بيده أولى بأن يعبر عن شكره لمن أطعمه ممن يأكل طعامًا صنعه بنفسه. ومما يرشح هذا المعنى أيضًا قوله تعالى فى سورة النمل:

* ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ

﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ (النمل: ٦٠). فقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ يتفق فى معنى النفى مع قوله: "ولم تصنعه أيديهم". فالقرينة هنا مزدوجة بالنص أولاً حيث تكون القرينة هى المناسبة المعجمية بين "ما" النافية وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وبالتناص ثانيًا. بالنظر إلى آية النمل ٦٠)

* ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩).

يسمح تركيب الجملة فى قوله: "وما ينبغى له" بفهم أحد معنيين:

أ ـ وما ينبغى للشعر ذاته من معرفة قواعد نظمه. (أى وما علمناه الشعر وعلم العروض)

ب ـ ولا ينبغى للنبى أن ينظم الشعر.

وهذا المعنى الثانى هو المقصود بقرينة التناص بين هذه الآية وقوله تعالى فى سورة الشعراء: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤). وكذلك كل آية تنص على أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما بعث لهداية البشر. أضف إلى ذلك أننا حتى لو لم ندفع معنى الموصولية عن "ما ينبغى" فإن الآية فى جملتها تقع فى سياق نفى "ما" الأولى فى "وما علمناه".

* ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

يسمح مجرد التركيب النحوى بأحد معنيين:

أ ـ أن تكون "ما" نافية (تعالى الله عن ذلك) فهذا المعنى مرفوض بسبب المفارقة المعجمية بين النفى للخير ونسبة ذلك إلى الأبرار.

ب ـ أن تكون موصولة، أى: والذى عند الله خير من ذلك للأبرار.

وقرينة المعنى الثانى ما سبقه فى الآية ذاتها من قوله تعالى: "لكن الذين اتقوا

ربهم لهم جنات... إلخ" من حسن الجزاء، وما سبق فى الآية رقم ١٩٣ من دعاء: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣). مما يدل على رضوان الله على الأبرار من عباده واستحقاقهم للخير.

* ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (سبأ: ٣٩).

يأذن التركيب النحوى المجرد بأحد معنيين:

أ- لم تنفقوا شيئًا يستحق الإخلاف لتطالبوا بإخلافه.

ب- وإن من شيء أنفقتموه إلا يخلفه الله.

وقرينة المعنى الثانى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: "وهو خير الرازقين".

* ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٨).

يمكن بدون القرينة أن يفهم النص بأحد معنيين:

أ- ماذا أغنى عنكم جمعكم واستكباركم؟

ب- لم يغن عنكم جمعكم واستكباركم شيئًا.

وقرينة المعنى الأول ما بعده من استفهام بقوله تعالى: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف: ٤٩).

* ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس: ١٠١).

يمكن فهم التركيب النحوى للنص على أحد احتمالين:

أ- ما الذى ينفع من آيات أو نذر إذا أصر قوم على رفض الإيمان؟

ب- لن تغنى الآيات والنذر عن قوم يصرون على الكفر.

وقرينة إرادة المعنى الثانى قوله تعالى قبل ذلك مباشرة: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠). وقبل ذلك أيضًا: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

* ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٨٣).

يصلح التركيب النحوى لأحد معنيين:

أ ـ ما أشد عجلتك عن قومك!

ب ـ ما الذى جعلك تعجل فتأتى قبل قومك؟

وقرينة إرادة الاستفهام (دون التعجب) هى ما يأتى بعد ذلك من جواب يقول موسى: ﴿ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ (طه: ٨٤).

* ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١ ـ ٣).

يمكن فهم التركيب النحوى هنا على أحد وجهين:

أ ـ الاستفهام، بمعنى ما هى الحاقة وما الذى تعرفه عنها؟

ب ـ التعجب، بحذف أفعل بعد ما الأولى بمعنى ما أعظمها أو ما أقربها. وهذا شبيه بها فى حديث أم زرع من قولها: "زوجى أبو زرع وما أبو زرع"! ثم تأتى الآية التالية فى صورة جملة تعجبية كاملة هى: "وما أدراك ما الحاقة"! أى ما أعظم درايتك بها. وهذا المعنى هو المقصود ولهذه الجملة التعجبية أشباه فى سور أخرى من ذلك .وما أوراك ما ليلة القدر" و"وما أدراك ما الحطمة" و"وما أدراك ما سقر" و"ما أدراك ما يوم الفصل" "وما أدراك ما القارعة" الخ.

* ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ (إبراهيم: ٥٢).

يمكن أن يفهم هذا التركيب على أحد وجهين:

أ ـ هذا بلاغ للناس ويجب أن يكون إنذارًا لهم، فاللام للأمر.

ب ـ هذا بلاغ من أجل الإنذار، فاللام للتعليل.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الثانى ما يأتى بعد ذلك من نصب الفعل الواقع

فى سياق العطف على ذلك، وهو قوله: "وليذكر أو لو الألباب". فلو كان المعنى على الأمر لجاء الفعل مجزومًا.

* ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴾ (الطلاق: ١٢).

هنا أيضًا يمكن فهم اللام فى لتعلموا على أحد معنيين: الأمر أو التعليل. وذلك بالتقدير التالى:

أ ـ اعلموا أن الله على كل شىء قدير.

ب ـ لأجل أن تعلموا أن الله على كل شىء قدير.

والقرينة الدالة على التعليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (الطلاق: ١٢).

* * *

نصل عند هذا الحد إلى تعدد المعنى الوظيفى للصيغة الصرفية بحيث تدل على أكثر من قسم واحد من أقسام الكلم فى وقت معا، أو على عدد من المعانى فى نطاق قسم واحد، فلا يتعين لها أحد هذه المعانى إلا بقرينة. فمن ذلك مثلاً:

١ ـ ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ (النمل: ٣٩)، و ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ (النمل: ٤٠). يصلح لفظ "آتيك" حال إفراده لنوعين من التأويل:

أ ـ أن يكون فعلاً مضارعًا، والمعنى: سوف آتيك.

ب ـ أن يكون اسم فاعل مضافًا إلى كاف المخاطب المفرد.

والـمعنى: أنا الذى أتيتك به؛ فاسم الفاعل إذا أضيف دل على المضى وإذا نوّن دل على الاستقبال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ﴾ (الكهف: ٢٣ ـ ٢٤). فالقرينة التى تدل على المعنى إذًا أن سليمان يقول قبل ذلك: ﴿ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِى بِعَرۡشِهَا ﴾ (النمل: ٣٨).

٢ ـ ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾ (النساء: ١٠٣).

يفهم من لفظى "قيامًا وقعودًا" حال قطعهما عن السياق أحد معنيين:

أ ـ جمع قائم وقاعد.

ب ـ مصدر قام وقعد.

وتشتمل الآية على قرينة تدل على إرادة المعنى الأول، هى قوله تعالى: "وعلى جنوبكم".

٣ ـ ﴿ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّى لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ٢٤).

يمكن أن ندرك نوعين من المعنى النحوى للفظ "أقرب" فى هذا السياق:

أ ـ أن تكون الكلمة فعلاً مضارعًا فيكون لفظ "رشدًا" مفعولاً لأجله، أى لاقترب من هذا فأكون راشدًا.

ب ـ أن يكون المعنى على التفضيل فيكون لفظ "رشدًا" للتمييز.

والقرينة تدل على التفضيل لأن النص يشتمل على ما يدل على أنه نسى أن يقول: إن شاء الله ولذا يطلب من ربه أن يهديه إلى أفضل من ذلك.

٤ ـ ﴿ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِى ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٦).

تحتمل صيغة فعول أحد معنيين:

أ ـ المصدرية، فيكون المقصود أنهم نفروا نفورا.

ب ـ جمع اسم الفاعل "نافر" فالمعنى: ولو نافرين.

والفرق بين المعنيين أن معنى الجمع (جمع نافر) يجعل نفورهم صفة متأصلة فيهم، ولكن معنى المصدرية يربط النفور بمناسبة خاصة هى سماعهم لذكر الله وحده. ويشهد لإرادة معنى الجمع ما فى الآية التالية "نحن أعلم بما يستمعون به" مما يكشف عن موقفهم من النبى عليه الصلاة والسلام واتهامهم إياه بأنه "رجل مسحور" كلما سمعوا منه ذكر الله سبحانه وتعالى.

* * *

بقى أن نتناول صيغ بعض الأفعال التى يتعدد معناها فتحتاج إلى قرينة تكشف عن المقصود بالصيغة. ومن الملاحظ أن صيغ الفعل ـ صحيحًا كان أم معتلاً ـ تكشف عن بعض التشابه فى الجدول الإسنادى فى صيغ المضارع. انظر مثلاً إلى جدول إسناد الفعل "ضرب" إلى الضمائر:

١ ـ ضربتُ
٢ ـ ضربنا
٣ ـ ضربتَ
٤ ـ ضربتِ
٥ ـ ضربتما
٦ ـ ضربتما
٧ ـ ضربتم
٨ ـ ضربتن
٩ ـ ضَرَبَ
١٠ ـ ضربَتْ
١١ ـ ضربنا
١٢ ـ ضربتا
١٣ ـ ضربوا
١٤ ـ ضربن
١٥ ـ أضرب
١٦ ـ نضرب
١٧ ـ تضرب
١٨ ـ تضربين
١٩ ـ تضربان
٢٠ ـ تضربان
٢١ ـ تضربون
٢٢ ـ تضربن
٢٣ ـ يَضْرِبُ
٢٤ ـ تَضْرِبُ
٢٥ ـ تضرب
٢٦ ـ تضربان
٢٧ ـ يضربون
٢٨ ـ يضربن
٢٩ ـ اضرب
٣٠ ـ اضربى
٣١ ـ اضربا
٣٢ ـ اضربا
٣٣ ـ اضربوا
٣٤ ـ اضربن

فلو نظرنا إلى صور الإسناد إلى الضمائر فى هذا الجدول الاول لوجدنا الشبه تامًا بين الصيغة رقم ١٧ والأخرى رقم ٢٤، ولوجدناه تامًا أيضًا بين ١٩ و٢٠ و٢٦. ومعنى هذا أننا بحاجة إلى قرينة تعيننا على فهم ما إذا كان رقم ١٧ مسندًا إلى المخاطب المفرد المذكر أو إلى الغائبة المفردة المؤنثة. والأمر كذلك فى الإسناد رقم ٢٤. ولو نظرنا لو جدنا تشابها ملبسًا أيضًا بين ٣١ و٣٢.

فإذا كانت فاء الكلمة فى صيغة الفعل تاء إزداد الأمر تعقيدًا، وبخاصة فى إسنادات الفعل المضارع التى تسمح فى بعض الصور بتوالى تاء المضارعة وتاء فاء الكلمة؛ فيقتضى الأمر حذف إحدى التاءين لكراهية توالى الأمثال.

وهنا نجد أن عبارة: "ولا تتنازعوا" تئول إلى: "ولا تنازعوا"، كما يخضع بعض أخواتها للإجراء نفسه؛ ومن ثم يزيد عدد الإسنادات المتشابهة على النحو التالى:

١ ـ توليت	١٥ ـ أتولّى	
٢ ـ تولّينا	١٦ ـ نتولّى	
٣ ـ تولّيتَ	١٧ ـ تتولّى	٢٩ ـ تولّ
٤ ـ تولّيتِ	١٨ ـ تتولّين	٣٠ ـ تولّى
٥ ـ تولّيتما	١٩ ـ تتولّيان	٣١ ـ تولّيا
٦ ـ تولّيتما	٢٠ ـ تتولّيان	٣٢ ـ تولّيا
٧ ـ تولّيتم	٢١ ـ تتولّون	٣٣ ـ تولّوا
٨ ـ تولّيتن	٢٢ ـ تتولّين	٣٤ ـ تولّين
٩ ـ تولّى	٢٣ ـ يتولّى	
١٠ ـ تولّت	٢٤ ـ تتولّى	
١١ ـ تولّيا	٢٥ ـ يتوليان	
١٢ ـ تولّتا	٢٦ ـ تتولّيان	
١٣ ـ تولّوا	٢٧ ـ يتولّون	
١٤ ـ تولّين	٢٨ ـ يتولّين	

فإذا خضعت الإسنادات من رقم ١٧ إلى ٢٢ بالإضافة إلى ٢٤ و٢٦ لحذف إحدى التاءين لكراهية توالى الأمثال (أى للتخفيف) وصلنا إلى التشابه الملبس داخل المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: ٩ و١٧ و٢٤. إذ يصبح جميعها على صورة: تولى.

المجموعة الثانية: ١٣ و٢١ (منصوبًا أو مجزومًا) و٣٣، ليصبح جميعها: تولوا.

المجموعة الثالثة: ١٤ و١٨ (منصوبًا أو مجزومًا) و٣٤ ليصبح جميعها: تولين.

المجموعة الرابعة: ١١ و١٩ و٢٠ (منصوبين أو مجزومين) و٢٦ و٣١ و٣٢ إذ يصبح جميعها: توليا.

يمكننا بعد هذا الإيضاح أن نأتى ببعض الشواهد على إمكان وقوع تعدد الاحتمال النحوى الخالص المؤدى لما يعرض لهذه الصيغ من اللبس، ثم ما يعين على إزالة هذا اللبس من القرائن الدالة على المعنى المراد؛ وهى الفضيلة التى نجدها دائمًا فى نص القرآن الكريم ولا تتوافر فى غيره من النصوص إلا بقدر دون ذلك.

١ - ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١ - ٣).

تصلح صيغة "تواصوا" أن تكون فعلاً ماضيًا معناه: أوصى بعضهم بعضا، وأن تكون فعل أمر معناه: فليوص بعضكم بعضا. غير أن قرينة معنى الماضى أن الفعل "تواصوا" معطوف على فعلين ماضيين هما "آمنوا" و"عملوا".

٢ - ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة: ١٢٩).

يمكن لصيغة الفعل "تولوا" أن تكون ماضيًا مسندًا إلى ضمير الغائبين، وأن تكون مضارعًا محذوف إحدى التاءين مسندًا إلى جماعة المخاطبين. والقرينة

على إرادة المعنى الأول أن إرادة المخاطبين كانت ستشمل النبى صلى الله عليه وسلم وهو ليس ممن يتولون وإنما هو مأمور أن يقول: "حسبى الله".

وهكذا رأينا أن المعنى الوظيفى هو الوظيفة التى يؤديها العنصر اللغوى من الأدوات والصيغ الصرفية. وسنحاول بعد ذلك أن نلقى الضوء على نوع آخر من المعنى هو المعنى العلائقى.

ثانيًا. تعدد احتمالات المعنى العلائقى:

المقصود بالمعنى العلائقى معانى حروف الجر وحروف العطف ووسائل الربط كعود الضمائر على مراجعها ونحو ذلك مما تنشأ به علاقة بين عنصرين أو أكثر من عناصر النص، كما يتضح عند النظر إلى الشواهد التالية:

١ ـ ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود: ٢٤).

إن من ينظر إلى مجرد تكرار الواو قد يحكم بأن الآية تشتمل على أربعة عناصر عطف بعضها على بعض. تلك هى الأعمى والأصم والبصير والسميع.

غير أن الآية تشتمل على قرينة تدل على أن العطف هنا يربط بين شخصين أحدهما (أعمى ـ أصم) والآخر (بصير ـ سميع). وتتمثل هذه القرينة فى تثنية لفظ "الفريقين" وإسناد الفعل "يستويان" إلى ضمير الاثنين.

٢ ـ ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ (النساء: ٣٣).

يسمح التركيب هنا باحتمالين:

أ ـ أن تكون الواو فى "والذين" عاطفة والفاء فى "فآتوهم" للاستئناف.

ب ـ أن تكون الواو للاستئناف و"الذين" أشربت معنى الشرط والفاء اقترنت بخبر "الذين" لأنها مع إشرابها معنى الشرط جاء خبرها في صورة جملة طلبية. فعومل معاملة جواب الشرط.

والقرينة تدل على إرادة المعنى الثاني، لأن الولاء يمنح حق الميراث في أحكام الشرع. ولكن لما كان الولاء غير القرابة وضع حكمه في الآية في أسلوب الشرط ليتميز في الحكم عن ورثة الوالدين والأقربين.

٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ٢١).

يحتمل التركيب النحوي عطف "الذين" إما على لفظ "ربكم" وإما على "الذي" فيكون المعنى على النحو التالي:

أ ـ اتقوا ربكم واتقوا الذين من قبلكم.

ب ـ اتقوا ربكم الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم.

وتأتي القرينة على المعنى الثاني بعد ذلك مباشرة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾ دون أن ينسب أي نوع من الفضل للذين من قبلهم. أضف إلى ذلك أن عقيدة التوحيد تمنع أن يكون مع الله من يستحق أن يقرنه المؤمن به.

٤ ـ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال: ٣٩).

يحتمل التركيب النحوي أن يكون النفي بواسطة "لا" مسلطًا على "تكون" دون "يكون" كما يحتمل أن تكون مسلطة عليهما معا؛ فيكون المعنى:

أ ـ حتى لا تكون فتنة ويصبح الدين كله لله.

ب ـ حتى لا تكون فتنة ولا يكون الدين كله لله.

والقرينة الدالة على إرادة المعنى الأول هى التناقض بين الفتنة والدين. فإذا وجد أحدهما انتفى الآخر كما فى الاحتمال الأول، ولا يجوز أن ينتفيا معا كما فى الاحتمال الثانى.

٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ (التوبة: ٧٩).

لا يمنع التركيب النحوى لهذه الآية أن تكون السخرية التى فى "سخر الله منهم" من الذين يلمزون والذين لا يجدون على معنى العطف، أو أن تكون من الذين لا يجدون موجهة إلى المطّوعين من المؤمنين. كما يسمح التركيب للفاء فى "فيسخرون" أن تكون عطفًا على الذين لا يجدون بعد عطف الذين لا يجدون على الذين يلمزون؛ فتكون الفاء وما دخلت عليه فى حيّز "الذين لا يجدون" فقط بعد عطفها على الذين يلمزون.

غير أن القرينة تحول دون ذلك لأن الذين لا يجدون إلا جهدهم أولى بالإحساس بالعجز لا بإرادة بالسخرية من الغير. ومن ثم خضعوا للّمز والسخرية من لدن الذين يلمزون. وهكذا يشير النص إلى أن الله تعالى يسخر من الذين يلمزون ويسخرون من المطّوعين ويسخرون أيضًا من الذين لا يجدون إلا جهدهم وهكذا تنحصر إرادة السخرية فى الذين يلمزون دون غيرهم.

٦ ـ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾ (الأعراف: ٦٤).

لا يحول التركيب بين أن تكون الواو فى "والذين معه" للحال فيكون المعنى: أنجيناه عندما كان الذين معه فى الفلك؛ دون إشارة إلى أنهم نجوا معه. كما يسمح بأن تكون الواو للعطف فتكون النجاة لنوح ومن معه وهم جميعًا فى الفلك. والقرينة تدل على هذا المعنى الثانى وهى الآيات الثلاث (٤١ ـ ٤٣) من سورة هود

إذ تدل هذه الآيات على أن الذين لم يركبوا فى الفلك كانوا من الهالكين المغرقين، وأن من كانوا فيها نجوا من الغرق.

٧ - ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٨).

يمكن للوهلة الأولى أن يفهم الإنسان من هذا التركيب أحد معنيين:

أ - لقد رأى الكبرى من آيات ربه.

ب - لقد رأى آية من آيات ربه الكبرى.

هناك نوعان من الآيات الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى: النوع الأول آيات يكرم الله بها الأنبياء للدلالة على صدق رسالاتهم، وهذه الآيات تتدرج فى الأهمية كما نرى فى قوله تعالى فى شأن موسى وفرعون: "فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى". وفى هذا المقام يفهم من لفظ "الآية الكبرى" آية العصا. والنوع الثانى الآيات السماوية القريبة من عرش الرحمن، وهى التى رآها محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج؛ وجميعها يوصف بلفظ "كبرى".

ومن ثم يكون اللفظ الذى فى هذا الشاهد (رقم ٧) معبرًا عن هذا المعنى. أى أن ما رآه النبى عليه الصلاة والسلام فى ليلة المعراج هو عدد من الآيات الكبرى عبرت عنه الآيات ذات الأرقام ١٣ - ١٨ من سورة النجم.

٨ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤).

لا يمنع مانع نحوى أن يكون لفظ "أنفسهم" توكيدًا معنويًا للناس، أو أن يكون مفعولاً به مقدمًا للفعل "يظلمون". ولكن النظر إلى آيات أخرى فى القرآن الكريم يرشدنا إلى أن المقصود هو معنى المفعولية، أى أن الناس يظلمون أنفسهم وأن الله سبحانه لا يظلم أحدًا إذ يقول جل شأنه: "ولا يظلم ربك أحدًا". فمن أسمائه الحسنى أنه "العدل". ومن الآيات الدالة على أن الناس يظلمون أنفسهم قوله

تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٧).

٩ - ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَـٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام: ٣٤).

بماذا يمكن أن نعلق "حتى" وما دخلت عليه من قوله: "حتى أتاهم نصرنا"؟ هناك ثلاثة أفعال يصلح كل منها أن تتعلق به "حتى":

أ - صبروا حتى أتاهم.

ب - كذبوا حتى أتاهم.

ج - أوذوا حتى أتاهم.

ولا يستبعد في صناعة النحو أيٌّ من هذه الاحتمالات. ولكن هناك قرينة عقلية تؤكد أن مفهوم الغاية الذى تعبر عنه "حتى" يرتبط بالصبر لا بالتكذيب ولا بالإيذاء. وفى القرآن الكريم من الشواهد ما يربط بين حتى وبين الصبر، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ (الأعراف: ٨٧). لهذا يرتبط إتيان النصر بالصبر على التكذيب والإيذاء.

١٠ - ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب: ٣٢).

لقد وضعت علامة الوقف فى المصحف على لفظ "النساء"، ولكن تعاليم القرآن نفسه ربما جعلت الوقف صالحًا أن يكون على لفظ "اتقيتن". فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣)، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى". هذا من ناحية؛ أما من

ناحية أخرى فإن الوقف على الفعل "اتقيتن" يجعل ما بعده استئنافًا لبيان المقصود بالتقوى فى هذا المقام. فهى عدم الخضوع بالقول منعا لطمع ذوى القلوب المريضة. فإذا تحققت هذه التقوى كن خيرة النساء. وهكذا يكون الوقوف على "اتقيتن" أقرب وإلى وصايا الدين.

١١ ـ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١ ـ ١٢).

من الواضح أن فى القرية حذفًا بيانيًا، لأن المقصود "أهل القرية" الموصوفين بالظلم، والظلم لا يكون من مبانى القرية. من هنا نتساءل عن مرجع الضمير "هم" أين هو؟ ومن هم الذين يركضون من القرية؟ أهم أهلها الأولون الظالمون أم القوم الآخرون؟ من البديهى أن القوم الآخرين لم يقع منهم ظلم فيركضوا خوف البأس، والقرية لفظ مؤنث لا يصلح مرجعًا للضمير "هم". هنا يسمح المعنى باعتبار الضمير المذكور راجعًا إلى المحذوف البيانى الذى هو "أهل القرية" الأولون.

١٢ ـ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ (الحج: ٤٠).

إلام يعود الضمير فى "ينصره"؟ إلى المنصور، فيكون المعنى: ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره؟ أم إلى الناصر، فيكون المقصود: ولينصرن الله من ينصر الله (برفع لفظ الجلالة مع الفعل الأول ونصبه مع الفعل الثانى فى الآية)؟ المعروف أن القرآن يفسر بعضه بعضا (وهذا المبدأ وجد لنفسه مصطلحا حديثًا هو مصطلح "التناص") فإذا طبقنا هذا المبدأ فلنا أن نلتزم فى تفسير هذه الآية بالتوفيق فى المعنى بينها وبين قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد: ٧) وبذلك يعود الضمير فى "ينصره" إلى لفظ الجلالة فى الآية التى بين أيدينا. أما المعنى الآخر وهو: (ولينصرن الله من يشاء الله أن ينصره) فهو من المسلمات التى لا تفتقر إلى نص

عليها أو إعلام بها، فهى شبيهة بقولك: الأرض أرض والسماء سماء. أى أنها لا تشتمل على جديد يستحق الإشارة إليه.

١٣ - ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩).

فى هذه الآية تشبيه عيسى بآدم. ووجه الشبه أن كليهما تم خلقه من غير نطفة بشرية. فأما عيسى فقد تم خلقه بواسطة نفخ الملك جبريل فى جيب أمه مريم، وأما آدم فقد خلق من تراب. فعلى الرغم من أن النحو يسمح بإعادة الضمير على كل منهما على حدة فإننا نجد عوده إلى آدم أولى من عوده إلى عيسى ومن عوده إليهما معا، وذلك بسبب النص على أن آدم خلق من تراب دون ذكر الطريقة التى خلق بها عيسى..

١٤ - ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

ثمة احتمالان لفهم العلاقات فى داخل هذه الآية من الناحية النحوية الصرف: أحدهما بين الجار والمجرور، والآخر بينهما وبين لفظ معقبات. والمعنى بحسب كل منهما كما يلى:

١ - له معقبات يحفظونه من أمر الله.

٢ - له معقبات من أمر الله يحفظونه.

والذى يرجح المعنى الثانى أنه لا يمكن لشىء أن يحول دون أمر الله ليحفظ أحد مخلوقاته. ومعنى ذلك رفض تعليق الجار والمجرور بالفعل "يحفظونه". أما ما قاله القرطبى من أن "من" فى قوله: "من أمر الله" بمعنى الباء فهو غير متجه لأنه لم يأت على ذلك إلا بشاهد واحد هو قول أبى ذؤيب الهذلى:

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وهو يحتمل تضمين "شربن" معنى حفلن بماء البحر، لأن الكلام عن السحائب. كما يحتمل زيادة الباء تجوّزًا. وأيا ما كان الأمر فإن الاعتماد على الشاهد الواحد ربما كان اعتمادًا على رخصة ترخصها الشاعر فلا يصح أن تبنى عليها قاعدة.

١٥ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ (النحل: ٤٣ ـ ٤٤).

يحتمل التركيب ثلاثة أنساق نحوية، على النحو التالى:

أ ـ وما أرسلنا من قبلك بالبيانات والزبر إلا رجالاً نوحى إليهم.

ب ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم بالبينات والزبر.

ج ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر.

فالباء ومجرورها وما عطف عليها تتعلق بالفعل "أرسلنا" أو بالفعل "نوحى" أو بالفعل "تعلمون". فأى هذه الأنساق هو المقصود؟ هناك قرينة فى محيط هذا الشاهد؛ فالآية رقم ٣٦ من النحل تقول: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦). فهذا الشاهد الذى بين أيدينا يشتمل على بيان الطبيعة البشرية للرسل ولكنهم يختلفون عن بقية البشر بأنهم يوحى إليهم برسالات فيها بينات وكتب سماوية يعلمها من اهتدوا بهديهم؛ أى أنه إذا كان رسولكم الذى أرسل إليكم رجلاً من بنى الإنسان فذلك لا يمنع من أن الله أرسله بالبينات والزبر كما أرسل من قبله من الرسل. فإذا كنتم لا تعلمون بما أنزلنا إليه من البينات فاسألوا أهل الذكر ممن يعرفون شأن الرسالات السابقة.

١٦ ـ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ (النساء: ١٢٧).

من المعروف أن الفعل "رغب" يتعدى بحرف الجر "فى" فيكون معناه "طلب" أو بالحرف "عن" فيكون معناه "رفض" أو بالحرف "إلى" فيكون معناه "رجا".

غير أن الفعل "ترغبون" جاء فى هذه الآية بدون حرف جر، فكان من الممكن أن يكون فى النص لبس. ولكن القرآن الكريم يأبى اللبس؛ لأن حذف حرف الجر يناسب المقام، ويأتى للتعبير عن تعدد احتمالات حال اليتيمة المرغوب فيها أو عنها بحسب حالها. فهذه اليتيمة ذات مال كتب لها بالميراث، فالرغبة فى الوصاية عليها قائمة سواء كانت جميلة أم قبيحة فإن كانت جميلة كانت الرغبة فيها، وإن كانت قبيحة كانت الرغبة عنها. فلما كانت الرغبة مرتبطة بحرفين مختلفى الدلالة إلى درجة التقابل حذف كلاهما اتكالا على أن النص يعنى كلا منهما فى الوقت نفسه. ومثل هذه الحالات يعرض فى النصوص القانونية فى الوقت الحاضر فيجرى التعبير عنه بواسطة ذكر الحرفين وبينهما خط مائل مثل: (فى/ عن)، ولكن ذلك ليس من أسلوب القرآن الكريم.

١٧ ـ ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣).

يمكن من الناحية النحوية الخالصة أن يكون للإضافة فى "دعاء الرسول" أحد معنيين:

أ ـ إضافة المصدر إلى مفعوله، أى لا يكن نداؤكم الرسول كنداء بعضكم بعضا.

ب ـ إضافة المصدر إلى فاعله، أى لا يكن كلام الرسول إليكم ودعوته إياكم إلى اعتناق عقائد الإسلام كمخاطبة بعضكم بعضا. بل قابلوا دعاءه إياكم بالانتباه والطاعة.

اختار بعض المفسرين كالقرطبى (رواية عن سعيد بن جبير وعن قتادة) الإضافة إلى المفعول، فجعلوا المعنى نحوًا من "لا تقولوا يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله". فلما وصل القرطبى إلى تفسير "قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو إذا" ذكر من المواقف ما يدعو إلى ترجيح المعنى الثانى، بل النص على إرادته تقريبًا؛ إذ يقول: والتسلل والانسلال الخروج، واللواذ من الملاوذة وهى أن تستتر بشىء مخافة من يراك؛ فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة. "لواذا" مصدر فى موضع الحال؛ أى متلاوذين، أى يلوذ بعضهم ببعض، ينضم إليه استتارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة؛ حكاه النقاش. فالخطبة فيما يظهر يمكن أن تكون هى المقصودة بدعاء الرسول.

١٨ ـ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٤٨).

يسمح النظام النحوى للإضافة هنا فى لفظ "أذاهم" بأحد معنيين:

أ ـ الإضافة إلى الفاعل، فيكون المعنى "أن تؤذيهم".

ب ـ الإضافة إلى المفعول، فيكون المعنى "أن يؤذوك".

ولكن القرينة الدالة على المقصود تظهر فى وقائع السيرة النبوية الشريفة إذ كان المشركون هم الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم.

١٩ ـ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ (المائدة: ٢).

هنا **أيضًا يأذن النحو بالإضافة إمّا إلى الفاعل** فيكون الشنآن (وهو البغض) من جهة **القوم، وإمّا إلى المفعول** فيكون من جهة المسلمين. ولكن القرينة على إرادة **الإضافة إلى الفاعل هى قوله**: "أن صدوكم"، أى فلا تقابلوا كراهيتهم إياكم ومنعكم من زيارة البيت بالعدوان عليهم بمنع قافلة لهم من الوصول إلى البيت الحرام. ولو قدرنا الإضافة إلى المفعول لكان الشنآن واقعًا من المؤمنين فلا تكون هناك فائدة فى النهى عن العدوان.

ثالثًا - احتمالات الحذف:

الحذف أحد الأساليب البلاغية التى ترمى إلى غاية معينة؛ منها تجنب الإطناب ومنها إرادة تجنب التصريح بالعنصر المحذوف ومنها الاعتماد على دلالة القرائن، إذ "لا حذف إلا بدليل". وله أغراض أخرى لا مجال لإطالة القول فيها هنا. ولقد سبق أن تناولنا تحت رقم ١٦ من شواهد احتمالات المعنى العلائقى حذف حرف الجر بعد الفعل "ترغبون"، وبينا الغرض الأسلوبى الذى حققه هذا الحذف. وسنحاول هنا أن نورد بعض الشواهد على حذف بعض العناصر الأخرى؛ وبخاصة الضمائر الرابطة وهى القسط المشترك بين معظم الشواهد.

١ - ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

إن من لا يفطن لدواعى الحذف فى هذه الآية ليظن أن المعنى: ولا تسبوا الكفار الذين يدعون آلهة من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. ولكن هذا التقدير يهمل عنصر التقابل الذى ينبغى أن يكون بين طرفى السب. ولو طبق مبدأ التقابل هنا لكان جواب النهى بحسب هذا الفهم: "فيسبوكم". أما الفهم الصحيح فإنه يستدعى تقدير ضمير يعود على "الذين" أى على آلهتهم؛ والتقدير: "ولا تسبوا الذين يدعونهم من دون الله فيسبوا الله".

٢ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (الإسراء: ٥٧).

قبل هذه الآية جاءت آية أخرى (رقم ٥٦) هى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾ فكانت هذه الآية قرينة على المعنى. فلما أشار فى الشاهد الذى بين أيدينا بلفظ "أولئك" كان لابد من تقدير ضمير فى الفعل "يدعون" يعود إلى أولئك. والمقصود بهذا الضمير هو آلهتهم المزعومة من دون الله.

٣ ـ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٥).

قرينة الحذف هنا هى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

فتدل هذه الآية على أن هناك من يريد إخافة المؤمنين ممن اجتمعوا لقتالهم. فأرادت آية الشاهد أن تقول إن هؤلاء الذين أبلغوكم الخبر غير مخلصين لكم. وإنما أرادوا أن يخوّفوكم من أصدقائهم الذين جمعوا لكم المقاتلين ليقاتلوكم. فالتقدير لنص الشاهد: إنما ذلكم الشيطان يخوّفكم أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين حقًا. فضمير المخاطبين مقدر فى الفعل "يخوّف".

٤ ـ ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ (النحل: ٣٧).

يحتمل الفعل "يضل" أن يكون مسندًا إلى ضمير يعود على "من" أو أن يكون مسندًا إلى لفظ الجلالة. والقرينة على إسناده إلى لفظ الجلالة (أو ضمير لفظ الجلالة على الأصح) هو إسناد الفعل "يهدى" إليه قبل ذلك مباشرة. وبذلك

يتحتم تقدير ضمير مفعول به للفعل "يضل" أى أن الله لا يـهدى من يقدر له الضلال. أضف إلى ذلك ما فى بداية الآية من عبارة "إن تـحرص على هداهم" أى لا ينبغى لك أن تـحرص على هداهم لأن الله لا يـهدى من قدّر له الضلال.

رابعًا ـ احتمالات المعنى المعجمى:

مادة المعجم تنتمى أساسًا إلى فقه اللغة لا إلى النحو، ومشتقاتها تنتمى إلى الاستعمال؛ إذ يلزم أن تقوم المناسبة المعجمية بين الألفاظ فى السياق، ومن هنا وجدنا البيانيين يستعملون عبارات مثل: إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له. ولو أننا أخذنا مادة من مواد المعجم مثل: (ح ف ف) وتتبعنا مشتقاتها لوجدنا هذه المشتقات تتنوع صرفيًا فى صورها ومعجميًا فى معانيها. فهى تتنوع أولاً تبعًا لصيغ أقسام الكلم، وتتنوع ثانيًا تبعًا لبيئتها فى السياق. ومن ثم لزم فى الشرح المعجمى لمعانى المفردات أن يأتى الشارح بالشاهد أو بالمثال المشتمل على بيئة اللفظ فى السياق ليكون هذا الشاهد أو المثال قرينة على المعنى الذى نسب إليه اللفظ؛ لأن اللفظ الواحد يتعدد معناه فى حال إفراده ويظل قيد الاحتمال حتى يحدده الشاهد أو المثال.

دعنا أولاً نأخذ نموذجًا من المعجم للمادة المذكورة منذ قليل لنرى صدق ما نقول:

(حفت) الأرض ـ حفـوفًا: يبس بقلها. ـ الطعام: كـان يابسًا غـير دسم. ويقـال حف وهـو فى حفوف مـن العيش. وحف بطنه: يبس من عـدم أكل الدسم واللحم.

وحف شعره أو رأسه: شعث من عدم الأدهان. ـ الشمع: ذهب أجمعه ـ الشىء خفيفًا: سمع لـه صوت، كالـذى يكون من جناحى الطائر، أو تلهب النـار، أو مرور الريح فى الشجر. و ـ الشىء (منصوب) ـ (بضم الـحاء) حفا وحفافا: استدار حوله وأحدق به. ويقال حف الشىء بالشيء وحوله ومن حوله. حف فلانا: اعتنى

به ومدحه. و ـ الشيء (بالنصب): قشره. ويقال: حف شعره ولحيته وشاربه: أحفاه وخففه. وحفت المرأة وجهها: أزالت ما عليه من شعر. وحفته الحاجة: أصابته. (من المعجم الوسيط).

وهكذا أورد المعجم ثلاثة عشر معنى للفظ "حف" وحدد كل معنى منها ببيئته فى السياق. ولو لم يورد من الأمثلة والشواهد ما يدل على المعنى فى كل حالة لأصبح لفظ "حف" ملبسا لتعدد المعانى والاحتمالات، وغير صالح للاستعمال.

١ ـ لفظ "لباس":

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: ١٨٧).

﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ (النحل: ١١٢).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٧).

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ: ١٠ ـ ١١).

يؤخذ من لفظ "لباس" أحد معنيين: أحدهما الملابس، وذلك هو المقصود بكلمة "لباسا" (بالنصب) فى آية الأعراف المذكورة فى بداية الشواهد فوق هذا الكلام، بقرينة قوله تعالى: "يوارى سوءاتكم". والثانى مصدر الفعل "لابس يلابس لباسا وملابسة" وهو المعنى المقصود فيما عدا ذلك من المواضع فى الآيات المذكورة هنا. وقرينة ذلك أن تصوّر الملابس تفسيرًا للفظ "لباس" فى المواضع المذكورة لا ينسجم مع النص بخلاف معنى الملابسة التى تدل على الإقامة مع الأهل، أو فى معاناة الجوع والخوف، أو قضاء الليل مع الأسرة

والانتشار لطلب الرزق فى النهار. فاللباس فى كل ذلك مصدر بمعنى الملابسة. وقد تكرر لفظ "لباس" فى الآية الأولى على سبيل المشاكلة؛ فذلك شبيه بها فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم: ٥٥).

٢ ـ لفظ "كتاب":

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة: ٧٨).

﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٨).

﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤).

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١).

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (الكهف: ٤٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣).

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ (ق: ٤).

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ ﴾ (الإسراء: ٧١).

إن من يتأمل دلالات الآيات السابقة ويرى أثر السياق فى معانى الألفاظ

المستعملة فيها سيرى أن لفظ "كتاب" يدل بحسب ترتيب الآيات على المعانى التالية:

* فى الآية الأولى يدل لفظ "كتاب" على الكتابة بدليل استعمال لفظ "أميون" فالكتاب مصدر "كتب".

* ويدل فى الثالثة على "الفريضة"، لأن الآية تدور حول حكم شرعى للتعامل مع النساء.

* وفى الرابعة على اللوح المحفوظ الذى يشتمل على أمور لا يحيط بعلمها إلا الله.

* وفى الخامسة على سجل أعمال المرء عند الله مشتملاً على الحسنات والسيئات.

* وفى السادسة على مكاتبة العبد الرقيق على مبلغ من المال يصبح بعد أدائه حرا، فالكتاب مصدر "كاتب".

* وفى السابعة على أى نص مخطوط، فلفظ كتاب معناه "مكتوب".

* وفى الثامنة ما يصيب كل واجد من العباد.

* وفى التاسعة موعد الموت.

* وفى العاشرة قائمة الحسنات التى كسبها العبد أثناء حياته الدنيا، بدليل، "بيمينه".

وهكذا يختلف معنى "كتاب" من الناحيتين الصرفية (التى يكون بها مصدرًا للفعل كتب أو كاتب أو بمعنى اسم المفعول من كتب)، والمعجمية التى تطلقه على الفريضة واللوح المحفوظ وسجل أعمال المرء عند الحساب أو ما يقع منه أو موعد الموت.

٣ ـ لفظ كوثر:

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (الكوثر: ١ ـ ٣).

تدل الأصول الثلاثة (ك ث ر) للفظ "كثر" على أن معنى "كوثر" متصل بمعنى الكثرة. ويشهد على ذلك قول الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب   وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

فقد جعل الشاعرا بن مروان كثيرًا ثم بالغ فيها وصف به أباه من الكثرة بزيادة الواو، أى أن الكوثر مبالغة فى الكثرة. ويقول رواة الأثر إن المقصود بالكوثر فى سياق هذه السورة نهر فى الجنة، أو حوض للنبى صلى الله عليه وسلم تشرب منه أمته. ويوردون من الأحاديث ما يشهد لصحة هذا المعنى ولكنهم يختلفون فى سبب نزول هذه السورة بين الرجوع عن دخول مكة فى غزوة الحديبية وبين وفاة أحد أبناء النبى، وهو عبد الله أو إبراهيم ثم تعيير أبى جهل للنبى بأنه أبتر إلخ. وهذا القول الأخير فى سبب النزول أوجه فى رأيى من السبب الذى قبله، لأن الذى قبله لا يتضح منه سبب ذكر "الأبتر" فى آخر السورة. والمعنى فى عمومه ـ والله أعلم ـ: إنا أسبغنا عليك الكثير من النعم فاشكر الله بالتقرب إليه بالصلاة والقربات، ولا تعبأ بما قاله شانئك الأبتر.

٤ ـ لفظ "وسط":

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (القلم: ٢٨).

﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾ (المائدة: ٨٩).

يقول القرطبى فى تفسيره: روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: قال: "عدلاً". قال: هذا حديث حسن صحيح. وفى التنزيل: "قال أوسطهم" أى أعدلهم وخيرهم. وقال زهير:

همو وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

غير أن القرطبى فى تفسير معنى "الصلاة الوسطى" يقول: "واختلف الناس فى الصلاة الوسطى على عشرة أقوال". وقد اشتملت هذه الأقوال التى يشير إليها على تسمية جميع الصلوات الخمس مفردة أو مع جمع بعضها مع بعض، فخالف بذلك ما رواه عن الترمذى فى شرح معنى الأمة الوسط. ثم فسر الوسطية فى آية المائدة بأنها منزلة بين منزلتين أخذا من الحديث الشريف القائل: "خير الأمور أوسطها". مع أن الحديث يمكن أن يكون المقصود به أن أوسط الأمور هو خيرها، بمعنى أن الخيرية هى معنى الوسطية، أى تفسير معنى الوسطية؛ والتقدير: أوسط الأمور معناه خيرها. كما تقول: سيد القوم خادمهم، أى خادم القوم أهم من فيهم لضرورة وجوده بينهم. فكما أن هذا المثال يمكن عكسه فيصير: سيد القوم خادمهم فكذلك يمكن عكس نص الحديث ليصير: أوسط الأمور خيرها.

ولقد كان يمكن قبول هذا الاختلاف الذى أورده القرطبى فى شرح معانى الوسطية لو قامت قرينة سياقية على كل معنى نسب إلى اللفظ. ولكن القرينة قائمة فعلاً على أن المعنى واحد فى جميع الشواهد السابقة على الترتيب التالى:

حافظوا على الصلوات وعلى إتقانها.

وكذلك جعلناكم خير أمة أخرجت للناس.

قال أفضلهم ألم أقل لكم قولوا إن شاء الله!

من أفضل طعام أهليكم أو كسوتهم.

فالأفضلية هى المعنى فى جميع الحالات، وإنكارها فى حالة الشاهد الأخير نوع

من البخل الذى يترك أثره فى حكم شرعى.

٥ ـ لفظا "أيد" و"موسعون":

يحتمل لفظ "أيد" أن يقصد به الأيدى وأن يقصد به الأيد وهو القوة (يقال: أيّدك الله أى قوّاك) وقرينة المعنى الثانى ما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ ﴾ (ص: ١٧). وقيل فى لفظ "موسعون" ما فسره به أصحاب التفسير العلمى من "تمدد الكون"، أى أن الله يوسع مساحة الكون بقدرته. وتشير القرينة إلى أن المعنى: "وإن فى وسعنا أن نفعل ذلك". والدليل على صحة هذا المعنى ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، أى على المستطيع أن ينفق بقدر استطاعته.

٦ ـ الآخرة والأولى:

﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ (الضحى: ٤).

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ (الليل: ١٣).

﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ (النازعات: ٢٥).

﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٢٥).

﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (القصص: ٧٠).

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (الإسراء: ٥ ـ ٧).

اشتهر فى أفهام المفسرين أن يكون المقصود بالأولى هو الحياة الدنيا، وأن المقصود بالآخرة هو الحياة بعد الموت. ولكن القرائن المحيطة بنهم هذه الآيات تدل على أن الأولى ما وقع ذكره أوّلا وأن الآخرة هى المذكورة بعد ذلك.

فالمقصود بهذين اللفظين فى سورة الضحى هو النزلة الأولى للوحى وما كان

فيها من مشقة، وبالنزلة الثانية ما صحبها من عطاء الرسالة وما فيها من عقيدة وشريعة.

أما فى سورة الليل فالمقصود بالأولى قوله تعالى: "فسنيسره لليسرى" والمقصود بالآخرة قوله تعالى: "فسنيسره للعسرى". أما قوله تعالى: "وإن لنا للآخرة والأولى" فمعناه: ونحن نستطيع التيسير لكلتيهما.

وأما فى سورة النازعات فإن فرعون فى أولى المعصيتين "كذب وعصى"، وفى الثنية "أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى". فعاقبه الله على اقتراف الآخرة والأولى.

وأما فى سورة النجم فثمة قوله تعالى: "ثم دنا فتدلّى"، وهذه هى الأولى. وقوله: ولقد رآه نزلة أخرى"، وهذه هى الآخرة. ثم جاءت بعد ذلك جملة التعجب التى تقول: "فلله الآخرة والأولى" أى ما أحسنهما.

وأما فى القصص فإن الأولى تتمثل فى قوله تعالى: وربك يـخلق ما يشاء ويختار" وتتمثل الآخرة فى قوله سبحانه: "وربك يعلم ما تكن صدورهم".

ثم يقول: "له الحمد فى الأولى والآخرة". أى له الحمد خالقا وله الحمد عالما.

وأما فى الإسراء فثمة قوله تعالى: "لتفسدن فى الأرض مرتين". ومن هنا يأتى ذكر أولاهما والآخرة.

فالكشف عن الأولى والآخرة فى هذه الشواهد هو القرينة على إرادة المعنى المذكور لكل من هاتين الكلمتين.

٧ ـ الرحمن الرحيم:

يقول النسفى فى تفسيره: "الرحمن فعلان من رحم وهو الذى وسعت رحمته كل شىء كغضبان من غضب وهو الممتلئ غضبًا وكذا الرحيم فعيل منه كمريض من مرض. وفى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم لأن فى الرحيم زيادة واحدة وفى

الرحمن زيادتين وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى. ولذا جاء فى الدعاء: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن". وفى قول النسفى هذا محاولة الكشف عن سبب اختلاف صيغة اللفظين وأصلهما واحد. وإذا كان الاستقراء من طرق البحث فلا مانع من أن ننظر فى استعمال القرآن الكريم لهذين اللفظين لنعلم من سياق استعمالهما المعنى المقصود بكل منهما. وقد تكون الطريقة المختصرة لأداء ذلك هى النظر فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لأنه يجمع من الآيات فى موضع واحد كل ما يشتمل على أحد هذين اللفظين تحت مادة معجمية واحدة. وهكذا نعفى أنفسنا فى مشقة التفتيش عن الآيات المطلوبة فى النص القرآنى مجتمعًا.

وقبل أن نفعل ذلك يحسن بنا أن نشير إلى أن الأسماء الحسنى تدل على الذات الإلهية من جهتين: إحداهما الألوهية والأخرى الربوبية. الأولى تعنى استحقاق العبادة والأخرى استحقاق الاستعانة. وقد صرح النص القرآنى بذلك فى سورة الفاتحة بقوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين"، وبالفصل بين "مالك يوم الدين" و"رب العالمين". فإذا نظرنا فى ضوء ذلك إلى مواضع استعمال لفظى الرحمن والرحيم رأينا أن لفظ الرحمن يستعمل للدلالة على الألوهية وأن لفظ الرحيم يدل على الربوبية. أما لفظ الجلالة "الله" ـ وهو الاسم الأعظم فهو عام فى دلالته على الجهتين؛ لأنه معبود ومستعان فى وقت معا كما يفهم من مواضع استعماله.

وإذا كان الأمر كذلك فدعنا نلق نظرة إلى ترتيب الآيات فى معجم ألفاظ القرآن الكريم لنرى من سياق الآيات ما يوحى به كل من اللفظين:

* ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

* ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ (مريم: ١٨).

* ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ (مريم: ٢٦).

* ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ (مريم: ٤٤).

* ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ (مريم: ٤٥).

* ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨).

* ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (مريم: ٦١).

* ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٦٩).

فالرحمن كما رأينا صفة ألوهية وهيمنة وإحاطة بالعباد. فإذا اقترن ذكرها بلفظ "رب" فإنـها تأتى فى مقام طلب الـمناصرة كما نراه فى آيتين من آيات القرآن الكريم:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾ (طه: ٩٠). أى إن ربكم هو المهمين الفعّال لما يريد، فكيف تتخذون العجل إلـهًا من دونه!

﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١٢). أى وربنا المهيمن هو المعين لنا على عنادكم.

ففى الآية الأولى نرى بنى إسرائيل قد فتنوا فعبدوا العجل من دون الله فيقول لـهم هارون ما نصت عليه الآية الأولى؛ فلما كان بنو إسرائيل ينظرون إلى الله تعالى من زاوية الربوبية أكثر مما ينظرون إليه من زاوية الألوهية، فهم شعبه الـمختار وهو يلتزم (فى ظنهم) بإنعامه عليهم وهم لا يلتزمون بعبادته، وإنما يعبدون العجل كما عبده الفراعنة رأى هارون من الضرورى أن يبصرهم بأن الله ليس ربا فقط بل هو رب وإله "وإن ربكم الرحمن" أى هو الإله أيضًا.

أما فى الآية الأخرى فإن الجملة الأصلية هى: "وربنا المستعان على ما تصفون" ولكن المقام تطلّب أن تكون الاستعانة به تعالى من حيث الألوهية وطلب النصر لا

من حيث الربوبية وطلب النعمة. وقد مهدت الآيات السابقة على هذه الآية لهذا الموقف على النحو التالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧ ـ ١١٢). وهكذا اقتضى الموقف أن يوصف الرب المستعان بأنه "الرحمن" الإله الواحد، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد.

وإذا كان "الرحمن" من صفات الألوهية والهيمنة واستحقاق العبادة كما اتضح من بيئة اللفظ فى سياق الشواهد السابقة فإن "الرحيم" من صفات الربوبية والعطاء والرأفة كما يبدو أيضًا من بيئة اللفظ فى آيات القرآن الكريم. ولن يتسع المقام هنا ـ كما لم يتسع من قبل ـ لإيراد كل ما فى القرآن من آيات ورد فيها لفظ "الرحيم".

ومن ثم يحسن بنا أن نكتفى بإيراد شاهد واحد لكل صفة اقترن بها هذا اللفظ مما يوحى بمعنى الربوبية الذى يستفاد منه. وهذه الصفات هى:

* التوّاب: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

* الرءوف: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (التوبة: ١١٧).

* الرحمن: ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣).

* الغفور: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (المائدة: ٣).

* الودود: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود: ٩٠).

* العزيز: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩).

* الرب: "سلام قولاً من رب رحيم" (يونس: ٥٨).

* البر: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ٢٨).

فالتوبة والرأفة والغفران والود والربوبية كلها صفات عطاء؛ أما العزة فهى كمال ذاتى ليس له هيمنة الرحمن. وأما الشاهد الذى اشتمل على عبارة "الرحمن الرحيم" فإن الآية تتكلم فى الأساس عن الإله الذى هو الرحمن ثم تصفه بأنه "رحيم" بعباده. ومعنى هذا فى النهاية أن لكل من لفظى "الرحمن" و"الرحيم" ظلا مختلفًا عن الآخر فى المعنى وإن اتفقا فى أصل الاشتقاق.

٨ ـ مادة (ق د ر) ومشتقاتها:

لمشتقات مادة (ق د ر) عدد لا بأس به من المعانى يجمعه اتجاه عام إلى مفهوم "الضبط والتحديد" الذى يمكن ملاحظته فى الأمور الآتية:

المقدرة: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (القيامة: ٤٠).

القيمة: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام: ٩١).

الغلبة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٤).

الموعد: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٤٠).

﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ (المرسلات: ٢١).

الملك: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٧٥).

الحسبان: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: ٦٩).

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٩).

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ (فصلت: ١٠).

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (المزمل: ٢٠).

التضييق: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الرعد: ٢٦).

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ: ١١).

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ (الطلاق: ٧).

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ (البلد: ٥).

تحديد المقدار: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٢٣).

﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٣).

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨).

﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر: ٢١).

﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧).

﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ (الشورى: ٢٧).

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ (المؤمنون: ١٨).

واحسب أن هذا المعنى الأخير قريب من مفهوم "توازن البيئة" كما نفهمه الآن.

خامساً. احتمالات الوصل والفصل:

أول ما يرد على الذهن من هذه الظاهرة ما يعرف باسم "تعانق الوقف" كالذى نصادفه في أول سورة البقرة من قوله تعالى:

* "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين". إذ يمكن لهذه الآية أن تقرأ بكل من الصور التالية:

ذلك الكتاب - لا ريب فيه - هدى للمتقين.

ذلك الكتاب - لا ريب - فيه هدى للمتقين.

ذلك الكتاب لا ريب فيه - هدى للمتقين.

موضع التعانق هو عبارة "لا ريب فيه" من حيث علاقة الألفاظ فى داخلها وعلاقاتها بما حولها سواء مما تقدم عليها أو تأخر عنها. وهناك صور أخرى لاحتمالات الوصل والفصل يسمح بها النحو ويأبى بعضها المعنى المقصود، نورد بعضها فيما يلى:

* ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤).

لا يمنع مانع نحوى من عطف "ما علمتم" على الطيبات والوقف على لفظ الجلالة، ثم الاستئناف بقوله: "فكلوا". ولكن يمنع من ذلك تحريم لحم الجوارح من جهة وعدم استعمال الطيبات فى الصيد من جهة أخرى. من هنا يكون الاستئناف على قوله: "وما علمتم" وتصبح الفاء فى "فكلوا" واقعة فى جواب الشرط.

* ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ (الأحزاب: ٥١).

ولا يمنع مانع نحوى أيضًا من عطف "ومن ابتغيت" على "من تشاء" والاستئناف بجملة "فلا جناح عليك". غير أن المعنى قائم على ربط الاستئناف بالجملة الشرطية "ومن ابتغيت" وجوابها "فلا جناح عليك".

* ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

لو كان الوقف على لفظ "هذا" (ولا يمنعه النحو) لتحولت "ما" التى بعده عن الموصولية إلى نفى الوعد والصدق.

* ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (يونس: ٦٥).

لا يمنع مانع نحوى من الوصل ولو تم الوصل لقامت دعوى غير معقولة هى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحزن عند قول هؤلاء: إن العزة لله جميعًا. ولكن الوقف على لفظ "قولهم" يجعل قولهم شيئًا غير ذلك، ويفيد أن ما بعده هو من كلام الله سبحانه وتعالى. أما ما قاله هؤلاء فقد أشارت إليه الآية رقم (٩٥) من السورة، وهى تقول: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾. فقولهم هذا هو الافتراء.

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران: ٧).

لا مانع من النحو يمنع من أن يكون الراسخون فى العلم أهلا لتأويل المتشابه، فيكون لفظ "الراسخون" معطوفًا على لفظ الجلالة فلا مانع من الوصل. ولكن الراسخين ـ كما تقول الآية ـ "يقولون آمنا به كل من عند ربنا". وهكذا يقف الإيمان بإزاء العلم فيكون لهم الإيمان ولله العلم بالتأويل.

* ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (النمل: ٤٩).

يجوز فى منطق النحو الوقف على "تقاسموا" ليكون على سبيل البدل من "قالوا" ثم الاستئناف بقوله تعالى: "بالله لنبيتنه وأهله". ولكن هؤلاء الرهط "كانوا

يفسدون فى الأرض ولا يصلحون" فلا ينتظر منهم أن يكونوا من أصحاب الإيمان البارّة. ولو نظرنا إلى إيراد صيغة القسم "بالله" لوجدنا رواية اللفظ بعينه أولى أن تكون من كل واحدة منهم على حدة، لا أنهم تلوا القسم معا. فلا يبقى إلا أن يكون الكلام متصلاً بدون استئناف، وأن يكون كل منهم على حدة قد تلا القسم أمام الآخرين. وعلى ذلك يكون لفظ القسم من الجار والمجرور متعلقًا بالفعل "تقاسموا" متصلاً به فى التلاوة.

سادسًا. احتمالات معنى التركيب:

إذا صح أن يتعدد المعنى للحرف والأداة والصيغة واللفظ المفرد والوقف والابتداء فإن المعنى يتعدد أيضًا لتركيب الجملة فى بعض الحالات. ولقد رأينا كيف يعتمد المفسرون والفقهاء فى فهم معنى فعل الأمر على القرائن فيرونه مفيدًا للإباحة حينا وللوجوب حينًا آخر. وليس تعدد المعنى مقصورًا على صيغة الأمر، ولكن له مظاهر أخرى فى تراكيب العربية سجلها النحاة تحت عنوان "إشراب التركيب معنى غير معناه الأصلى" وأوضحوا ذلك فى باب الإخبار بالذى والألف واللام، إذ يصادفون خبر المبتدأ فى بعض الحالات مقترنا بالفاء فيفهمون بذلك أن الجملة الخبرية قد أشربت معنى الشرط. وأرى أن هذا الفهم لمشكلة تعدد المعنى فى مجال الجملة صالح أن يعمم فى الحالات المختلفة للجمل فى النحو العربى. انظر على سبيل المثال إلى احتمالات المعنى فى الشواهد التالية:

* ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

التركيب فى صورة النهى وقد أشرب معنى الأمر بدليل أن الموت لا ينهى عنه وأن ما صحب التركيب من الاستثناء والغائية يشير إلى طلب التمسك بالإسلام حتى الموت.

* ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: ١١٦).

التركيب فى صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء التعبدى بقرينة النص على شعار الوحدانية والعرش الكريم.

* ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٢٨).

النهى للعينين فى التركيب وللنبى صلى الله عليه وسلم فى المعنى. بقرينة إسناد الفعل "تريد" إليه صلى الله عليه وسلم.

* ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٨٧).

اتجه التركيب إلى نهى المشركين والقصد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن طاعتهم.

* ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ (القلم: ٤٤).

التركيب أمر أشرب معنى الوعيد.

* ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ (الطلاق: ٤).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة الفاء فى "فعدتهن".

* ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

التركيب خبرى أشرب معنى الشرط بقرينة ما بعده من قوله تعالى: "إن كن يؤمن".

* ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

التركيب فى صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الشرط بقرينة قوله تعالى: "لمن أراد أن يتم الرضاعة".

* ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ (الإنسان: ١).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب أى ما أطول ما مر بالإنسان من الدهر دون أن يكون له وجود. والقرينة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم بتطور نشأة الإنسان فيسأل عما كان من ذلك.

* ﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ (المطففين: ٣٦).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التعجب من تبدل الحال بين الكفار والذين آمنوا.

* ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١ ـ ٣).

قوله تعالى ﴿ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ جاء على صورة الاستفهام غير أنه أشرب معنى التعجب بقرينة ما بعده من تعجب كامل الأركان هو قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان على علم بأشراط الساعة.

* ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (هود: ١٤).

التركيب على صورة الاستفهام ولكنه أشرب معنى التحضيض. وقد جاء ذلك بعد أن أمر الله المؤمنين بقوله: "فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو".

* ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ (الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤).

التركيب للاستفهام ولكنه أشرب معنى الخبر، أى سأنبئكم.

* ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ (المائدة: ٦٤).

التركيب على صورة الخبر ولكنه أشرب معنى الإنشاء بقصد الدعاء.

مكنونات الضمائر فى النص القرآنى الكريم

المقصود بالضمائر ما وضعته من الكلم تحت هذا العنوان فى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها من ضمائر الأشخاص والإشارات والموصولات. وذلك ضمن تقسيم جديد للكلم فى اللغة العربية. ولقد قبلَ النحاة قول ابن مالك فى الألفية:

وما لذى غيبة أو حضور كأنت وهو سم بالضمير

ولو أنصف ابن مالك لأضاف إلى عبارة" أنت وهو" لفظين آخرين أحدهما من الإشارات ليمثل معنى الحضور والأخر من الموصولات ليمثل الغيبة، وبذلك يشمل مصطلح الضمير الأنواع الثلاثة جميعاً.

ثم يظل لكل نوع من هذه طرق استعماله وظلال معانيه. وفيما يلى بعض ما يتضمنه استعمال الضمائر بأنواعها الثلاثة من التوسع فى الأسلوب القرآنى:

أولاـ ضمائر الأشخاص:

المعروف أن معانى الضمائر معان عامة(لا تدل على شئ مفرد)، ومن ثم يقول النحاة إن من حقها أن تؤدَّى بالحرف، وأن أداءها يعد سببا للبناء للشبه المعنوى بين اللفظ الذى يحمل المعنى العام وبين الحرف. والمعانى التى تحملها الضمائر من ثلاثة أنواع هى:

اـ النوع (التذكير والتأنيث).

ب ـ العدد(الإفراد والتثنية والجمع).

ج ـ الوضع (التكلم والخطاب والغيبة).

وهذه المعانى مما يتوقف عليه فهم الضمير فى الخطاب، بمعنى أن المتكلم من شأنه أن يراعى هذه المعانى لأن رعايتها شرط من شرط الإفادة. ومن ذلك الأيخاطب المؤنث بضمير المذكر ولا المخاطب بضمير المتكلم.

هذا ما يطلبه نظام اللغة. ولكن رعاية النظام شئ ورعاية التداوليات شئ آخر. من ذلك مثلا مخاطبة الغائب بضمير المخاطب، ويكون ذلك باستحضار الغائب بالتجريد الذهنى لمخاطبته فى أمر يهم المتكلم، وعندئذ يقال: "جرد الشاعر من نفسه شخصا وخاطبه" لأن خطاب التجريد يختلف عن خطاب الحضور. وحين قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

جرد من نفسه مخاطبين لا مخاطبا واحدا، ولم يكن لهذين المخاطبين حقيقة واقعة وذلك على عكس ما يقول به نظام اللغة من حضور المخاطب أثناء الخطاب.

ومن ذلك أيضا أن اختلاف المواقف الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب يسمح، بل يقضى أحيانا فى كثير من الظروف. أن يخاطب المتكلم السامع المفرد الذى هو أعلى منه درجة فى السلم الاجتماعى بضمير الجماعة. فيقول له وهو مفرد: "أهلا بكم وسهلا، وقد شرفتمونا بزيارتكم" . وسيعلم المخاطب عندئذ إنه ليس موضع ترحيب فحسب، بل هو موضع احترام كذلك. والمتكلم الذى هو أعلى قدرا من السامعين يبيح لنفسه أيضا أن يشير إلى شخصه المفرد بضمير الجمع، فيقول: " نحن كذا قررنا ما يلى: ..." . أما فى حال الإشارة إلى الغائب فإن الاحترام يكون بإضافة الصفة الداعية إلى الاحترام إلى الغائب أو ضميره، فيقال: "جلالة الملك" أو "سمو الأمير" أو "سيادة الرئيس" أو "معالى الوزير" أو غير ذلك من صفان التكريم. أو يقال: جلالته وسموه وسيادته ومعاليه ويظل الضمير على حاله.

هنا يمكن أن نتناول أسلوب القرآن الكريم فيما يتصل باستعمال الضمائر، سواء

ما يقوله المتكلم وما يتقبله السامع. فالذين يذكرون الله بضمير الخطاب يقولون: "أنت" بضمير المفرد على عكس ما فى الحياة الاجتماعية الإنسانية، وإن ذكروه فى غير الخطاب فذلك بضمير المفرد" هو" . ومن شواهد ذلك بالنسبة للخطاب:

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة٣٢).

﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة٢٨٦).

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة ١١٧).

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (يوسف١٠١)

ومن شواهد ضمير الغيبة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة٢٩).

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ (البقرة١٣٩).

﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التقرة١٦٣).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ (أل عمران٢).

لقد رأينا فى هذه الشواهد اطراد الإفراد فى ضميرى الخطاب والغيبة عند ذكر الله تعالى، وذلك تجنبا لظن الوقوع فى التعدد الذى يفهم من ضمير الجمع.فلو خواطب سبحانه بضمير الجمع لكان من الممكن للسامع غير المسلم أن يفهم من الضمير أنه جماعة من المخاطبين، أو يفهم من ضمير ا لغيبة إشارة إلى التعدد أيضا.

هذا فيما يتصل بضميرى الخطاب والغيبة، أما فيما يتصل بضمير التكلم فإن الله سبحانه وتعالى يستعمل ضمير النتكلم المفرد حينا وضمير المعظم ذاته حينا أخر، بحسب سياق النص. أما ضمير المتكلم المفرد فيكون استعماله عندما يكون الكلام موجها إلى المقربين أو المعاتبين من عباده كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ ﴾ (طه١٢ـ ١٣).

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ (طه ١٤).

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة ١٦٠).

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (النمل٩).

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ ﴾ (الممتحنة١).

أما بمناسبة ذكر الالاء والنعم والقدرات الإلهية فإن الله سبحانه يستعمل ضمير الجمع لإعلاء الذات كما نرى فى الشواهد الأبية:

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر٩).

﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ (الحجر٢٣).

﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ (الإسراء٣١).

﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗا ﴾ (الإسراء٥٨).

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الكهف١٣).

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ (مريم ٤٠).

﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾ (مريم ٧٠).

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه ١٠٤ وق ٤٥).

﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (طه ١٣٢).

﴿ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ (الإسراء ٥٨)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس ١٢).

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الزخرف ٣٢).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق ١٦).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ (ق ٤٣).

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ (الواقعة ٥٧).

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ (الواقعة ٦٠).

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة ٧٣).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة ٨٥).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ (الإنسان٢٣).

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٨).

ولعل القرينة النصية الدالة على أن الضمير "نحن" فى الشواهد السابقة لا يدل على متعدد هى قوله تعالى فى سورة طه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ (طه ١٤). وقد سبق ذكر هذا الشاهد.

ومما يمكن أن يضاف إلى المعانى العدولية الأسلوبية للضمائر ما يقصد بها من الدلالة على الشأن أو القصة بحيث يصبح الشأن مرجعا متأخرا للضمير، فإذا كان الضمير مذكرا سمى ضمير الشأن وإن كان مؤنثا قيل له ضمير الالقصة. ومن شواهد ذلك:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص ١-٤). فالشأن الذى عاد عليه الضمير هو "الله أحد الله الصمد" أما ما بعد ذلك حتى نهاية السورة فهو كلام مفسر كلمة "الصمد".

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (طه ٧٤).

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج ٤٦)

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (النمل ٩).

فما بعد الضمير فى كل ذلك هو مرجع الضمير.

ثانيًا ـ ضمائر الإشارة:

وقد يشار إلى كلام لاحق بضمير إشارة فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ما يسمى ضمير الشأن ومن ذلك ما فى قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٩). فمرجع الضمير "ذلك" هو قوله "إن مثل عيسى... الخ".

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة ٣٧-٣٨). فالكلمات هى "قلنا اهبطوا... الخ".

ويمكن كذلك أن يشار إلى كلام سابق بضمير إشارة يتلوه واو العطف (وذلك شرط فيما نقصد) ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .... ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (الحج ٢٧-٣٠). ومثله قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج ٣٢).

فقوله "ذلك" إشارة إلى الشأن السابق فى الكلام، والواو عاطفة على ما يلى. أى

أن من الشأن النحوى ما يكون مرجعا لضمير الإشارة، سبقه ضمير الأشارة أو لحقه.

وكما حمل الضمير الشخصى "نحن" شحنة الاحترام وجدنا بين الضمائر الإشارية ضميرين هما "اولئك" و "هؤلاء". فأما أولئك فيشار به دون نية تكريم أو انتقاص، ولكن استعمال "هؤلاء" فى النص القرآنى يحمل من إرادة الانتقاص قدرا لا يخفى على ذى فهم يكفى أن نقرأ لفظ "هؤلاء" فى الشواهد التالية لنعرف أن المشار إليهم غير محل رضى، وإليك ما يلى من شواهد ذلك:

﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة ٨٥).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (آل عمران ٦٦).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ آل عمران ١١٩).

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ أى عن الذين كفروا (النساء ٥١).

﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ (المائدة ٥٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ (الأنعام ٥٣).

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس ١٨).

﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (هود ١٨).

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود ٧٨).

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ (هود ١٠٩).

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (الحجر ٦٦).

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨).

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (الحجر ٧١).

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل ٨٩).

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ (الكهف ١٥).

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ (الأنبياء ٤٤).

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٥).

﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٩).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (الفرقان ١٧).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (الشعراء ٥٤-٥٥).

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ (ص ١٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ (الزمر ٥١).

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الزخرف ٨٨).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ (الدخان ٣٤-٣٥).

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ ﴾ (محمد ٣٨).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴾ (الإنسان ٢٧).

﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ (المطففين ٣٢-٣٣).

ومن اساليب الإشارة ما اسميه: "الإشارة على الشيوع". وذلك هو الإشارة إلى غير معيّن ومن ذلك أن تقول لسامعك مثلا: إما أن تكون صديقى أو عدوّى، **اختر هذه أو تلك**". فذلك فى قوة قولك: اختر أيهما شئت، وهكذا تكون الإشارة على الشيوع. وقد جاء فى سورة الإسراء (٦٦-٧٢) شىء من هذا القبيل. وذلك ما نصادفه فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ . وإليك ما نفهمه من معنى "هذه" و "الآخرة":

١- يسّر الله للإنسان طلب الرزق فى البحر. الله تعالى ينقذ الإنسان من أخطار البحر.

٢- غير أن فى ركوب البحر خطرا. ولكن الإنسان يعرض عن شكر الله.

الله قادر على إعادة الإنسان إلى خطر البحر

وقادر على عقابه فى البر أيضا.

سيحاسب الله عباده يوم القيامة.

فمن حسن عمله نجا، ومن ساء عمله فى أى من هاتين البيئتين بالإعراض عن شكر النعمة فلن ينفعه الشكر للنعمة الأخرى. وهكذا تصلح "هذه" للإشارة إلى اى واحد من المرجعين دون تعيين. وقديما أشار زوج الاثنتين إليهما إشاره على الشيوع حين قال:

تزوجت اثنتين لفرط جهلى — بما يشقى به زوج اثنتين

لهذى ليلة ولتلك أخرى — عذاب دائم فى الليلتين

هذه = إحداهما (بلا تحديد). تلك = الأخرى (بلا تحديد).

ونفى التحديد فى الحالتين هو المقصود بمفهوم الشيوع.

ثالثا: ضمائر الغيبة:

سبق أن ذكرنا معنى الغيبة فى الكلام عن اتخاذ فكرة ضمير الشأن فى مقدمة للكلام عن دلالة ضمائر الإشارة على ما يسبقها وما يليها، وعددنا هنا صورة أخرى لضمير الشأن. وذلك أن نتناول وسيلة أخرى للدلالة على الغيبة بواسطة ما تكنه "ال" الدالة على الجنس وكذا الدالة على العهد. ولست أريد الكلام هنا عن مطلق الجنس، لأن دلالة "ال" على مطلق الجنس لا تضيف إلى المعنى ظلا مهما. ولكننى أشير إلى نوع من الجنس أسميه: "الجنس النسبى"، لأن مدلول هذه التسمية لا يستقل بالوجود؛ وإنما يوجد منسوبا إلى مفهوم آخر. ففى قوله تعالى: ﴿ **وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ** ﴾ (النازعات ٧٩) دل لفظ "النفس" على صاحب النفس، لأن لكل حى نفسا تنسب إليه ويتنسب إليها. ولذلك كانت النفس دالة على جنس من

الأجناس لا يستقل بوجود خاص. ومن ثم كان من قبيل الجنس النسبى الذى يدل على ما نسب إليه. ومنه:

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ (الأحزاب ١٠)

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد ٢٨).

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال ١١).

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ (النجم ٢٣).

فالقلوب والحناجر والأقدام والظن والأنفس كل أولئك يفهم بالنسبة إلى ذويه، ومن ثم سميت هذا الجنس بالجنس النسبى.

وتبقى بعد ذلك "ال" الدالة على العهد. ولقد سبق بيان معنى العهد بأنه "المعرفة السابقة". وقد يكون السبق سبقا للذكر كما مضى نحو: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (يوسف ٥٨)، وقد يكون سبقا لمجرد المعرفة الذهنية كما فى قوله تعالى" ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب ٦). ومع أن ذاكرة العهد قد ترتبط بسبق الذكر فتكون "ال" بمعنى "المذكور" أو بسبق المعرفة العامة فتكون بمعنى "المعهود"، فإن فكرة الحضور بالنسبة لهذه الذاكرة أضعف من أن تقاوم فكرة السبق. وبذلك أرى أن المعهود بواسطة "ال" يعد أقرب إلى ضمائر الغيبة منه إلى ضمائر الحضور.

والمعروف أن "ما" و"الذى" من الموصولات. وأن الموصولات من ضمائر الغيبة ولكن الضمائر (كما رأينا فى "أذ" منذ قليل) يمكن أن تتحوّل إلى معان أخرى كما فى قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران ٨). وهكذا نجد "ما" أداة مصدرية فى قوله جل شأنه: ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (آل عمران ١١٨) أى عنتكم.

ونجد "الذى" وهى ضمير موصول تعاقب "ما" المصدرية فتقع موقعها فى قوله

سبحانه: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ (التوبة ٦٩) أى كخوضهم. وفى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأنعام ١٥٤). أى تماما على إحسانه.

والدليل على إرادة المصدرية فى الحالتين ما نقرؤه فى قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (الأعراف ١٤٥). إذ نجد فى مقابلة النصوص الثلاثة ما يلى:

تماما	يقابلها	من كل شىء
تفصيلا	يقابلها	تفصيلا
الذى أحسن	يقابلها	بأحسنها.

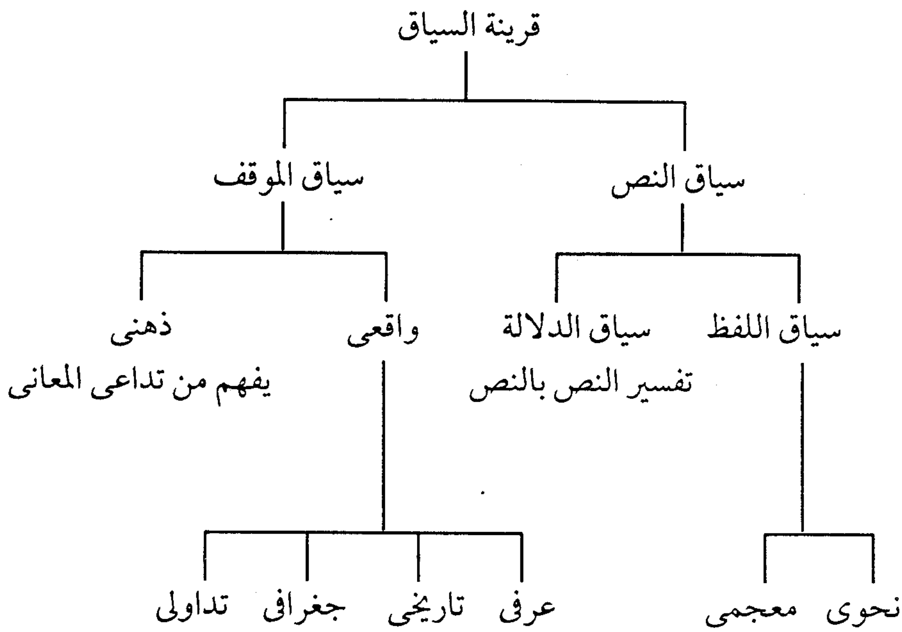
أضف إلى ذلك أن الفرق بين "ما" الموصولة وبين أختها المصدرية أن الاولى يعود عليها الضمير الرابط ولا يعود على الثانية. ومع وجود تقدير الضمير بعد "خاضوا" وبعد "أحسن" نجد الضمير الذكور بعد "خاضوا" يعود على الخائضين، والضمير المفهوم فى "تماما على إحسانه" يعود على المحسن.

شواهد قرآنية على دلالة قرينة السياق

المقصود بالسياق التوالى، ومن ثم يمكن أن ننظر إليه من زاويتين: أولاهما توالى العناصر التى يتحقق بها السياق الكلامى، وفى هذه الحالة نسمى السياق "سياق النص". والثانية توالى الأحداث التى هى عناصر الموقف الذى جرى فيه الكلام، وعندئذ نسمى السياق "سياق الموقف". وهناك علاقة طابعها العموم والخصوص بين مصطلحين هما: "دلالة السياق" و "قرينة السياق". فالمستفاد من النص فى جميع حالات الإفادة هو "دلالة السياق" سواء كانت هذه الدلالة (كما يقول الأصوليون فى كلامهم عن دلالة المفردات) بواسطة العبارة أم كانت بواسطة الإشارة أو الإيماء أو الاقتضاء. والدلالة فيما عدا العبارة دلالة على معنى مضاف يلزم عن العبارة أى عن الكلام نفسه. وفى هذه الحالة يدل السياق بالإشارة أو الإيماء أو الاقتضاء على معنى لم يرد عنه فى النص تعبير صريح. وعندئذ يكون السياق قرينة على هذا المعنى. وهكذا يكون المقصود بقرينة السياق أخص من المقصود بدلالة السياق. ويمكن إذن أن نوجز الأمر على النحو التالى:

بهذا نرى أن سياق النص إما أن يكون قرينة تركيبية (نحوية أو معجمية) أو دلالية (قوامها العلاقات النصية). أما سياق الموقف فإما أن يكون ذا دلالة واقعية أو ذهنية، فالواقعية مبناها على العرف أو أحداث التاريخ أو مواقع الجغرافيا أو العلاقات العملية فى إطار الموقف الذى وقع فيه الكلام. أما الذهنية فإنها تنشأ عن تداعى المعانى بحيث يثير بعضها بعضا فى تسلسل منطقى (طبيعى لا صورى).

دعنا إذن نلق نظرة على أنواع قرينة السياق واحدا بعد الآخر:



أولاً ـ قرينة العلاقة النحوية:

١ ـ يقول الله تعالى: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه ١ ـ ٣) . المعروف أن "إلا" تأتى لمعنى الاستثناء، ولكن السياق هنا لم يشتمل على مستثنى منه وإنما جعل بين ما سبق "إلا" ما لحقها علاقة استدراك، فكان حتما فى هذه الحالة أن نفهم من "إلا" معنى "لكن"، وذلك بقرينة السياق (سياق النص).

٢ ـ ويقول تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (يس ٣٢) دخلت "إنْ" على الاسم ولم يأت بعدها ما يصلح للشرط، فبقى لها إما أن تكون مخففة من الثقيلة لاقترانها باللام فى "لما" وزيادة "ما" بعد اللام، فيكون المعنى: "وإنّ كلا منهم لمحضرون جميعا"، وإما أ، تكون "إن" للنفى و "لمّا" بمعنى "إلا". ثم إنه لما كانت الحروف ينوب بعضها عن بعض كان تقدير النيابة عن "إلا" أخف وقعا من تقدير

زيادة "ما". وبهذا يصبح المعنى: "وما كل إلا جميع لدينا محضرون" وذلك بقرينة السياق. أما تقدير الزيادة فهو يصلح لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (هود ١١١) وفى هذا الموضع الأخير يكون تكرار اللام للتأكيد، فهو شبيه بتكرار حرف النداء فى قول الشاعر:

"ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى"

٣ ـ قال الشاعر:

"أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن"

فلو جعلنا "إن" فى قوله "وإن مالك" نافية لأوقعنا الشاعر فى التناقض، لأنه يكون قد مدح قومه بالإثبات فى الشطر الأول ثم هجاهم بالنفى فى الشطر الثانى، فكأنه يقول: إن قومه أباة الضيم وليسوا كرام المعادن. فلم يبق إذن إلا أن تكون "إنْ" مخففة من الثقيلة ليستقيم السياق.

٤ ـ هناك باب فى النحو يسمى: "الإخبار بالذى والألف واللام". والملاحظ فى تراكيب هذا الباب أن الخبر قد يقترن بالفاء إذا تحققت له شروط اقتران جواب الشرط بالفاء، ولا يقترن بها إذا لم تتحقق هذه الشروط. انظر إلى الفرق بين قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٢٦٢).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٢٧٤).

فالفرق بين خبر "الذين" فى الحالتين أنه لم يقترن بالفاء فى الحالة الأولى لأن الآية نزلت فى عثمان بن عفان إذ جاء بألف دينار لإنفاقها على جيش العسرة فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم. فهذا عمل وقع فعلاً فلا مجال فيه لمعنى الشرط، ومن ثم لم تكن بيئة الخبر هنا شبيهة ببيئة جواب الشرط، فلم يقترن الخبر بالفاء. أما

فى الآية الثانية فإن سبب النزول هو الحض على علف خيل الجهاد فمعنى الشرط واضح فيه لأن من أنفق فله أجره عند ربه.

ومغزى هذا أن "الذين" هى أخت "من" و "و" أى "اللاتى ينتقلن من الموصولية إلى استعمال الشرط فيكون لهن شرط وجواب. ولكن "الذين" لا تنتقل إلى استعمال الشرط وإن أشربت معناه أحيانا. فحين يتم إشرابها معنى الشرط كما فى الآية الثانية يقترن خبرها بالفاء بالشروط التى تصدق على جواب الشرط. أما إذا لم تشرب معنى الشرط كما فى الآية الأولى فلا مجال لإلحاق الفاء بخبرها. وهكذا تكون الفاء قرينة على إرادة معنى الشرط فى الجملة الخبرية فى هذا النوع من الجمل.

ثانياً ـ العلاقات المعجمية:

لا يتحقق المعنى بواسطة العلاقات النحوية فقط. فقد يستوفى التركيب كل الشروط النحوية فيصبح صالحاً للإعراب ولكنه مع ذلك يكون صفرا من المعنى. انظر إلى عبارة مثل "تألم الحجر فسلم على البرهان". إذ يمكن أن نعرب هذه العبارة فيكون إعرابها بيانا للعلاقات النحوية بين مفرداتها، حتى إذا حاولنا أن نفهم معناها لم نجد لها معنى يفهم. والسبب فى خلو الجملة من المعنى أن بين مفرداتها مفارقة معجمية، لأن الحجر لا يتألم ولا ينطق فيسلم وليس البرهان ممن تلقى إليه التحية. فلقد أسند الفعلان كما يقول البلاغيون إلى غير من هما له. ومعنى هذا أن العلاقات المعجمية تؤدى دور القرينة على المعنى فى الكثير من الحالات. وإليك البيان:

١ ـ فى قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ٢٦) تبرز المفارقة المعجمية فى "لباس التقوى"، لأن التقوى لا لباس لها. ومن ثم يصبح المعنى معلقا بالكشف على علاقة معجمية مقبولة بين اللفظين. فإذا بحثنا عن معنى مقبول يمكن أن نفهم منه الإضافة التى بينهما وجدنا أن لفظ "لباس" لا يطلق على الملابس فقط، وإنما يكون مصدرا للفعل "لابس ـ يلابس ـ لباسا ـ وملابسة" أى "خالط". فإذا ربطنا بين اللفظين بواسطة هذا المعنى استقام الفهم. ومنه قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ

لَكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، وكذلك ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ ١٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ (النحل ١١٢) أى ملابستهما.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ (الأنعام ٩٩) بين الشجر الذى يعود إليه الضمير فى "ثمرة" وبين مفهوم الينع الذى فى لفظ "ينعه" مفارقة، فلا يقال: "شجرة يانعة" ولكن هناك مناسبة معجمية بين الثمر والينع إذ يمكن أن يقال: "ثمرة يانعة". وهذه المناسبة أو العلاقة المعجمية تبرر إعادة الضمير إلى الثمر دون الشجر.

٣ ـ قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص ٣٩). يتحتم تعليق الجار والمجرور "بغير حساب" فى هذه الآية بالمصدر "عطاؤنا" لأن الله سبحانه يعطى بغير حساب. ولا يعقل أن يقال: "أمسك بغير حساب" لما فى ذلك من مفارقة معجمية. وبذلك تكون عبارة "فامنن أو أمسك" على سبيل الاعتراض.

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر ١). وفى "الكوثر الأصول الثلاثة: الكاف والثاء والراء، فهى ثلاثية الأصل أضيف إليها الواو لإلحاقها بالرباعى. فالمعنى "إنا أعطيناك الكثير". قال الشاعر:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب　　　وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

فالإلحاق فى هذا اللفظ للمبالغة والتأكيد. وحتى لو نظرنا إلى أن الكوثر نهر فى الجنة فإن اسم هذا النهر إنما جاء للدلالة على سعته وغزارة مائه، لأن الإلحاق كما ذكرنا يحمل جرثومة المبالغة.

ثالثاً ـ الجانب الدلالى:

قد يشتمل النص على قرينة تحدد معنى فيه لولاها لكان ملبسا وقد تقوم علاقة التناص بين نصين أو أكثر فيفسر أحدهما الآخر كما قال المفسرون من أن "القرآن يفسر بعضه بعضاً". فمن النوع الأول ما يلى:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام ١)

وقال جل شأنه: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٨١) فحين أسند الفعل "يعدلون" فى الآية الأولى إلى ضمير الذين كفروا وتعلق به الجار والمجرور "بربهم" فهم منه أنهم يجعلون لله عديلاً غيره، وحين أسند الفعل فى الآية الثانية إلى أمة يهدون بالحق فهم من لفظ "الحق" معنى "القسطاس". هذا على رغم مجئ الفعل فى الحالتين على صورة واحدة، غير أن كلا من النصين اشتمل على ما يحدد معناه.

٢ ـ ثمة أنواع من الاستفهام يميز بينها سياق النص:

فهناك استفهام على بابه يقصد به معرفة أمر مجهول كما فى قول قوم إبراهيم: ﴿ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء ٥٩). ولهذا جاء الجواب كشفا عن حقيقة لم تكن معلومة إذ قال من اتجه السؤال إليه: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (الأنبياء ٦٠) فإذا فهم السامع أن الاستفهام على بابه بادر بالإجابة. ولهذا كان الفزع طابع إجابة عيسى عليه السلام حين سأله ربه: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة١١٦) إذ أجاب بجمل منفصلة ليس بينها حرف عطف لتكون كل جملة إجابة قائمة بذاتها فتتعدد الإجابات طلبا للإقناع. فقد أجاب عيسى ربه بقوله: ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ (المائدة ١١٦).

وقد يكون الاستفهام تقريرا بأن يشتمل بتركيب الجملة الاستفهامية على حرف النفى فتؤول بجملة مثبتة يغلب أن تتصدرها اللام وقد أو الفعل "ينبغى" مثل: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى ٦ ـ ٧) أى لقد وجدك، ومثل ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ (المائدة ٧٤) أى ينبغى لهم أن يتوبوا ويستغفروا.

وقد يكون الاستفهام إنكاريا لا يشتمل تركيب الجملة فيه على حرف النفى ولكنه يؤول بجملة منفية، مثل: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (طه ٨٣) أى ما كان ينبغى أن تعجل. وهذه الآية هى التى دعت إلى إيراد ما سبقها من تقدير. والسبب أن اثنين من أئمة المفسرين لم يشيرا إلى معنى الإنكار فى هذه الآية، ولكن الدليل على هذا المعنى يأتى من النص نفسه كما يلى:

أ ـ اعتذار موسى عليه السلام عن العجلة بقوله: "وعجلت إليك رب لترضى*" ولو كان السؤال على بابه لكفى للإجابة عنه أن يقول: "هم أولاء على أثرى".

ب ـ أن الإنكار إنما جاء بسبب ما حدث من ترك موسى لقومه عرضة للفتنة بدليل قوله تعالى: "فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى" أى بلوناهم وأضلهم السامرى. فالفتنة هنا بمعنى الابتلاء كما فى "ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى" وكذلك "وظن داود أنما فتناه" أى أننا ابتليناه وهديناه إلى الخطأ.

ج ـ رجوع موسى بعد هذا الإنكار إلى قومه غضبان أسفا، فإيراد هذين الوصفين دليل على تعدد مصادر الألم؛ فالغضب منصب على قومه والأسف لما كان من إنكار ربه عليه أن يعجل وفى ذلك مزيج من الحزن والألم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود ٢٤). تكررت واو العطف ثلاث مرات فى الآية فبدا التركيب فى السمع كأنما يتكلم عن أربعة أفراد هم الأعمى والأصم والبصير والسميع. وعندما يدرك السامع أن فى الكلام علامة التثنية فى "الفريقين" وضمير المثنى فى "يستويان". يدرك أن الكلام يتناول شخصين أحدهما أعمى أصم والآخر بصير سميع. أى أن العطف كان للصفات لا للأفراد.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨). فلولا قوله : "قائما بالقسط "على الإفراد وقوله: "لا إله إلا هو" فى آخر الآية لسمح التركيب بصورته

هذه بعطف "الملائكة" على الضمير "هو" (تعالى الله عن ذلك) لا على اسم الجلالة. وهكذا يكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا مع الله أنه لا إله إلا هو.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء ١٠٣). يصلح القيام والقعود للمصدرية كما يصلحان لجمع قائم وقاعد، ويعربان فى هذه الآية حالا على كلا الاحتمالين. ولكننا عند قراءة قوله: "وعلى جنوبكم" نفهم فورا أن المراد معنى الجمع، أى اذكروه قائمين وقاعدين ومضطجعين ولو كان المعنى على المصدرية لقال: واضطجاعا.

٦ ـ قال تعالى: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس ٣٥). تصلح ما من قوله: "وما عملته" للمصدرية فيكون المعنى "والذى عملته أيديهم". وتصلح للنفى فيكون المعنى "ولم تعمله أيديهم". ولكن الحض على الشكر فى ختام الآية يجعل المعنى على النفى، لأن من يأكل شيئاً لم يعمله بيده أحق بأن يتقدم بالشكر لمن أطعمه ممن صنع طعامه بنفسه. أضف إلى ذلك أن ما فى سورة النمل من قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ (النمل ٦٠). فالله سبحانه يمن على عباده أن أنبت لهم حدائق ما كانوا يستطيعون إنباتها مما يوجد نوعا من التناص بين الآيتين ويحكم بمعنى النفى للفظ "ما" فى آية يس.

معنى التعليق:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل ٥ ـ ٦).

عند قراءة هذه الآية يسأل المرء نفسه أين يقف أثناء القراءة فى الجملة الأولى. هل يقف على لفظ "خلقها" أو على الجار والمجرور "لكم"؟ ففى الحالة الأولى تكون الجملة التالية "لكم فيها دفء"، أمّا فى الحلة الثانية فإن الجملة التالية تكون "فيها دفء". فإذا استمر المرء فى القراءة صادف جملة بعد ذلك مباشرة تشبه بنية الجملة فى

حالة الوقف الأول مثل: "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". عندئذ يدرك القارئ بواسطة اتساق المعنى أن هذه الآيات تقرأ على الصورة التالية: "والأنعام خلقها ـ لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ـ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون". ويصبح المعنى بذلك أن الله خلق الأنعام ليكون لنا فيها دفء ومنافع ومأكل وجمال.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ (الكهف ٥٨). عند النظر فى هذه الآية نجد بها مبتدأ هو "ربك" ونجد الخبر يخضع لثلاثة احتمالات:

أولها "الغفور" وبعده وصف الخبر بالرحمة ثم جملة مستأنفة هى "لو يؤاخذهم...الخ"

والثانى أن يكون "الغفور" صفة للمبتدأ ويكون الخبر "ذو الرحمة" وبعده جملة مستأنفة.

والثالث أن يكون "الغفور" و "ذو الرحمة" نعتين للمبتدأ ويكون الخبر هو "لو يؤاخذهم...الخ". والذى يؤيد هذا المعنى الأخير هو اتساقه مع الآية التى تسبق ذلك مباشرة والتى فيها ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف ٥٧).

٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (يوسف ٢٦ ـ ٢٩). رأى القرطبى أن المقصود بالعزيز هو الملك وأن الشاهد الذى هو من أهلها فيه أربعة أقوال: أحدها أنه طفل فى المهد تكلم، والثانى أن القميص قد بما فيه من لسان الحال (ويمنعه قوله: "من أهلها")، والثالث أنه خلق من خلق الله تعالى ليس بإنسى ولا

جنى (ويمنعه أيضا قوله: "من أهلها")، والرابع أنه رجل حكيم ذو عقل يستشيره فى أموره وكان من جملة أهل المرأة وكان مع زوجها. والقرطبى بعد ذلك كلام طويل لا يخرج عن هذا الإطار. ولا يخرج كلام صاحب البحر المحيط عن ذلك.
ولنا أن نلاحظ الأمور الآتية:

أ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ (يوسف ٢٥).

ب ـ نداء الرجل موجها إلى يوسف: "يوسف أعرض عن هذا" أى لا تذكر للناس شيئاً عن ما حدث.

ج ـ مطالبة المرأة بالاستغفار عن ما حدث.

د ـ أن الزوج لم يكن هو الملك، لأن حديث يوسف إلى الملك يأتى بعد ذلك بقليل ولأن الملك لم يكن يعرف يوسف حتى كلمة ثم "قال إنك اليوم لدينا لمكين أمين".

هـ ـ أكبر احتمال أن منصب العزيز كان يساوى بالمقاييس الحاضرة كبير الشرطة أو وزير الداخلية. فكان له قدرة على استخراج النتائج من القرائن.ـ وله قدرة على عقاب يوسف.

بناء على ما تقدم يمكن القول إنّ الشاهد لم يكن غير العزيز نفسه. فحين لحق يوسف بالباب وفتحه "ألفيا سيدها لدى الباب" فلما نظر العزيز إلى دلائل الانفعال فى حالتى يوسف والمرأة سأل عن السبب فتضاربت أمامه الأقوال فلم يكن لديه بد مِن أن يتولى فهم الموقف بنفسه، فدار فى نفسه الكلام الذى نسبته الآية إلى الشاهد. ولّما تبين له الأمر أمر يوسف بكتمان القصة وأمرها بالاستغفار. وما كان لطفل فى المهد ولا لخلق من خلق الله ليس بإنسى ولا جنى ولا لحكيم أن يقول لامرأة فى محضر زوجها: "إنك كنت من الخاطئين". فالشاهد الذى هو من أهلها لم يكن غير زوجها.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

(يوسف ٣٥). ما السبب فى هذا البداء بعد أن رأوا آيات براءته؟ لم يقل أحد من المفسرين شيئاً عن سبب ذلك.

غير أننا نذكر أن العزيز طلب من يوسف أن يكتم خبر المراودة وأن يعرض عن ذكره لأى أحد. ولكن الخبر شاع فى المدينة ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (يوسف ٣٠)، فوقر فى نفس العزيز أن يوسف لم ينفذ وصيته بالكتمان. وهكذا رأى أن يتدخل فى المسألة بإلقاء اللوم على يوسف سترا لنفسه ولأهل بيته، ورأى أن إلقاء اللوم على يوسف بإدخاله السجن سيقنع الناس بأن يوسف هو المذنب. ومن ثم أرسل به إلى السجن وهو برىء، وأعانه على ذلك منصبه فى السلطة.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (يوسف ٦٧). يقول القرطبى: "لما عزموا على الخروج خشى عليهم العين فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد وكانت مصر لها أربعة أبواب. وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد. وذلك ما قاله أيضا صاحب البحر المحيط. ولكن أنّى للعين أن تصيب جماعة من البدو خرجت بهم الحاجة إلى الطعام من مضاربهم إلى بلد فيه سمات الغنى والحضارة وفيه الميرة والطعام، وكيف يعرف الناس أن هؤلاء إخوة من رجل واحد؟ لقد قال يعقوب لأبنائه قبل ذلك بقليل: "لتأتننى به إلا أن يحاط بكم" أى أنه كان يخشى عليهم أن يؤخذوا بعد أن عوملوا معاملة قاسية فى المرة السابقة باتهامهم بالسرقة، فكان تدبيره أنهم إذا كانوا مجتمعين فأصابهم ضرر أصابهم جميعاً، أما إذا تفرقوا فدخلوا من أبواب متفرقة فإن أحيط بالبعض نجا البعض الآخر. أضف إلى ذلك أن ما ساوره من الشك فى عودتهم سالمين علمه بأن يوسف (الذى لا يعرف من يكون)، أصر على إحضار أخيهم قائلا لهم: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ (يوسف ٦٠).

رابعاً ـ السياق الواقعي:

أقصد بالسياق الواقعي اعتماد الفهم على العرف السائد أو على التاريخ أو على الجغرافيا أو على العلاقات السائدة بين عناصر الموقف الذي تم فيه الكلام. وسنحاول فيما يلي أن نكشف عن كل من هذه الملابسات ونبدأ بقرينة العرف.

أولاً ـ العرف:

١ ـ حين نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (النور ٣٣) نحتاج إلى معرفة عادات بعض السادة من العرب لئلا نظن أن المقصود بالفتيات بناتهم منْ أصلابهم. فلقد كان مما يستسيغه بعض السادة كعبد الله بن أبي أن يكره جواريه على التكسب بالبغاء ليحصل هو على هذا الكسب، وعلى ما يكون نتيجة للزنى من ولد. وكانت له جاريتان يرغمهما على ذلك فشكتاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك من أسباب نزول الآية. كما أن المشهور من نتائج هذا العرف أن زياد بن أبيه نسب إلى أبي سفيان في عهد معاوية لينتصر به معاوية على عليّ بن أبي طالب، وأن عمرو بن العاص ألحق بأبيه عن طريق القيافة فيما يروى.

٢ ـ وحين نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب ٣٣) نلتمس ما يدلنا على تبرج الجاهلية الأولى وكيف كان، فإذا رجعنا إلى القرطبي وجدناه يروى عن ابن عطية ما يأتي: "والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها (أي نساء النبي) فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب. وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كان عليه وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى". بهذا نعلم أن الجاهلية الأولى ليست جاهلية عاد وثمود أو غيرهما.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (المائدة

١٠٣) إشارة إلى نوع من الأنعام كان يهمل فلا ينتفع به رعاية لتعظيم الأصنام فيما يزعمون. فالبحيرة لا تحلب إلا للطواغيت، والسائبة التى ولدت عشر إناث متواليات ليس بينهم ذكر، والوصيلة من الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثى سيبوها، والحام فحل الإبل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه.

- وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال ٣٥) أشارة إلى عادات الجاهلية. يروى القرطبى عن ابن عباس أن قريشا كانت تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة فى ظنهم. بهذا ندرك أن العرف جزء من سياق الموقف وبالتالى قرينة على معنى السياق.

ثانياً - التاريخ:

أما قرينة التاريخ فإنها يعتمد عليها فهم النص عندما يفتقر هذا الفهم إلى الإلمام بأحداث بعينها وقعت فى الفترة التى يشير إليها النص. فإذا نظرنا مثلا إلى بعض آيات سورة التوبة التى تشير إلى طوائف من الناس دون أن تحدد أسماءهم ثم قرأنا أسماء هؤلاء فى كتب السيرة النبوية عرفنا قيمة العلم بالحدث التاريخى فى فهم النص. دعنا ننظر مثلا فى نصوص الآيات التالية من سورة التوبة:

١ - ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (٤٣).

٢ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ (٤٩).

٣ - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٥٨).

٤ - ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (٦١).

٥ - ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٦٤).

٦ ـ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ (٧٤).

٧ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٧٥).

٨ ـ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (٨١).

٩ ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (٩٠).

١٠ ـ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ (١٠١).

١١ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ (١٠٢).

١٢ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١٠٦).

١٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (١٠٧).

١٤ ـ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ (١٢٧).

فهذه الآيات كلها تحمل إشارات عامة إلى طوائف من الناس إمّا بواسطة الضمائر أو الصفات ثم يعتمد فهم هذه الإشارات العامة على معرفة الوقائع التى تشير إليها الآيات بالتفصيل من كتب السيرة والتفاسير. أما بدون ذلك فستظل النصوص غامضة الدلالة. ومن الآيات ذات القرينة التاريخية أيضاً:

ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (الفيل ١).

ـ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ (آل عمران ١١).

ـ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد ١).

ـ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل ٢٢).

ثالثاً ـ الجغرافيا:

وهى تقترن عادة بحدث تاريخى ولها أمثلة كثيرة.فى آيات القرآن الكريم. ومن ذلك ما يلى:

١ ـ يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ (القصص ٢٣ ـ ٢٩).

يؤخذ من هذه الآيات ما يشير إشارة تلزم عنها إلى مواقع جغرافية وقعت فيها الأحداث. ومن ذلك ما يلى:

أ ـ يؤخذ من قوله تعالى: "فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا" مع افتراض أن موسى لابد أن يسير فى اتجاه يباعد بينه وبين فرعون أن اتجاهه كان إلى الشرق.

ب ـ فإذا كان الطور شرقى ماء مدين فلابد من أن يكون ماء مدين فى نقطة ما بين وادى النيل وجبل الطور. (فى شبه جزيرة سيناء مثلاً لأن التخوم الصحراوية الشرقية الواقعة بين وادى النيل وخليج السويس لم تكن مأهولة بالبدو أيام الفراعنة).

ج ـ على الجانب الشرقى لخليج السويس فى طريق الذاهب إلى الطور موضع فيه عدد من الآبار يعرف الآن باسم: عيون موسى. وأكبر الظن أنه هو المقصود بماء مدين وأنه أخذ هذا الاسم من هذه القصة.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ ﴾ (الصافات ١٣٧) والمقصود بالضمير من "عليهم" قوم لوط أى قريتهم التى دمرت فأصبح عاليها سافلها. والمعروف أن هذه القرية كانت فى مكان ما من صحراء الشام قريبة من بصرى على طريق رحلة الصيف لأن هذه الرحلة كانت إلى الشام كما كانت رحلة الشتاء إلى اليمن. وإذا كان السير فى وقت الظهيرة فى الصحراء شاقاً فإن السير يكون فى وقت الصباح لا وقت الظهيرة. وفى ذلك إشارة إلى أن هذه الرواية كانت لموقع فى الصحراء.

٣ ـ قال تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ (الشعراء ١٤٩). إن كل من يعرف شيئاً عن مدائن صالح فى شمال الساحل الغربى للمملكة العربية السعودية لابد أن يفهم ما تقصه الآيات عن رسالة صالح إلى ثمود، ويتصور كيف بنى هؤلاء الناس من الجبال بيوتاً. فالموقع الجغرافى بما فيه عون على فهم مجرى السياق.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف ٥١). المعروف أن فى مصر نهر النيل. ومن عرف أن مصر بها نهر واحد هو نهر النيل وقرأ كلمة "الأنهار" قد يتساءل عن استعمال لفظ الجمع. فإذا عرف أن للنيل دلتا كانت قديما ذات عدد من الأفرع، وأضاف إلى ذلك فرعا من النهر كان يتجه إلى القلزم (السويس) عرف السر فى استعمال فرعون لصيغة الجمع.

رابعاً ـ التداولية:

المقصود بالتداولية دلالة عناصر الموقف الذى حدث فيه الكلام، من متكلم وسامع ونص ما قيل ومن أثر تركه فى بيئة الاتصال ونحو ذلك. كل اولئك يعين

على فهم دلالة النص ويتحتم الاعتداد به عند محاولة فهم ما قيل. ذلك بأن تركيب اللغة تسمح أحياناً باللبس؛ بمعنى أن عبارة مثل "ما هذا" قد يفهم منها الاستفهام على بابه كما يفهم منها الإنكار، وقد نتردد عند سماع عبارة "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" قبل فهم من الزائر ومن المزور. فإذا كان النطق بالعبارة مصحوباً بسماع نغمة الكلام فى الحالة الأولى وبرؤية الزائر فى الحالة الثانية زال اللبس وحدث الفهم. وسماع ورؤية الزائر هما ذواتا طابع تداولى.

العلاقة الذهنية:

المقصود بالعلاقة الذهنية ما يدعو الذهن إلى صرف المعنى عن ظاهر النص إلى فهم آخر لولاه لتعذر قبول النص لما يترتب على الظاهر من مفارقة عقلية. وفيما يلى شواهد على ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران١٠٢). ظاهر النص نهى عن الموت إلا فى حالة خاصة، ولكن الموت والحياة بيد الله ولا خيار لامرئ فيهما فينهى عن أحدهما. وما دام الأمر كذلك فإن ظاهر النص يستعصى على القبول العقلى. ومن هنا يبدأ العقل عمله فى التوفيق بين الظاهر والقصد فينتهى الأمر إلى أن المقصود ليس هو النهى عن الموت وإنما هو التمسك بالإسلام حتى الموت.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران ١٩٨). ليس فى النحو ما يمنع أن تكون "ما" فى هذا الشاهد نافية. ولكن ذلك يمتنع بقرينتين إحداهما دلالية هى ما سبق ذلك من قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران ١٩٨). فالذى عند الله من الرضوان خير من هذه الجنات. والقرينة الثانية ذهنية؛ إذ لا يعقل أن يحجب الله الخير عن الأبرار من عباده ويحول دون وصوله إليهم.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد ١١). ليس فى النحو أيضاً ما يحول دون تعليق الجار والمجرور "من أمر الله"

بالفعل "يحفظونه" ولا سيما أنه أقرب إلى الجار والمجرور مما عداه من عناصر النص ولكن العقل هو الذى يحول دون ذلك لأن أمر الله (أى قضاءه وقدره) لا يحفظ منه شئ ولا تحفظ منه المعقبات المذكورة فى النص. هنا يتدخل العقل من أجل استنباط المعنى المقصود فيهتدى إلى إدراك أن الجار والمجرور صفة للمعقبات؛ أى (له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه).

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب ١٣ ـ ١٦). يروى ابن عباس أن اليهود قالت لعبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان وأصحابه؟ ومن ثم استأذن بنو حارثة بن الحارث ومعهم فى رواية النقاش بنو سلمة فى العودة إلى المدينة. وهما الطائفتان اللتان همتا أن تفشلا فى غزوة أحد. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه. هنا يمكن للعقل أن يعمل على الاختيار بين تعليق الجار والمجرور (من الموت) إمّا بالمصدر (الفرار) أو الفعل (فررتم). فإذا اعتمدنا على رواية الضحاك يكون الفرار قد وقع فعلاً فيتعلق الجار والمجرور بالفعل، والمعنى: أن فررتم كما حدث منكم فلن ينفعكم الفرار. أما إذا لم نعتمد على رواية الضحاك فزعمنا أن الفرار لم يقع فإن الجار والمجرور يتعلق بالمصدر (الفرار) دون الفعل ويكون المعنى: لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن فررتم. وعندئذ يكون عن المبدأ المعبر عنه بالمصدر لا عن واقعة وقعت فعلاً.

هذا هو المقصود بالعلاقة الذهنية. وبهذا نرى أن القرائن ذات النفع الجزئى ينتفع بها فى سبك التركيب، ولكن قرينة السياق هى القرينة الكبرى التى تعين على الإلمام بالمعنى الكلى للسياق، وعلى الترابط المفهومى للنص.

الصحة والجمال فى النص القرآنى

حين تصدى النحاة العرب لدراسة اللغة العربية كانت الغاية التى يسعون للوصول إليها هى إنشاء نظام طابعه الاطراد، وكان التصنيف خطوتـهم الأولى إلى هذه الغاية، وكانت ملاحظة أوجه الاتفاق والاختلاف سبيلهم إلى التصنيف، فجعلوا الاتفاق علاقة تـحكم مفردات الصنف الواحد وجعلوا الاختلاف فارقًا بين باب وباب، ثم وصلوا إلى قواعدهم التى نسبوها إلى الاطراد.

أما إذا لم يتحقق الاطراد المطلق لقاعدة ما فإنهم خصصوا هذا الإطلاق بقاعدة فرعية شرطها أمن اللبس كما سنرى بعد قليل. والمعروف أن الاتفاق والتشابه يؤدى إلى تعدد الاحتمالات المؤدى إلى اللبس، وأن الاختلاف والفروق تؤدى إلى الوضوح وأمن اللبس. ومن تراكيب اللغة ما تتعدد احتمالاته فيلحق به اللبس. فلو قلت مثلاً: "غادرته غاضبًا" لوجدت فى "غادرته" ضميرين يصلح كل منهما أن يكون صاحب الحال "غاضبًا"، ولا توجد قرينة تدل على غضب أحدهما دون الآخر ومن هنا كان التركيب ملبسًا. أما إذا قلت: "غادرته يتميز من الغضب" فإن بنية جملة الحال تربط هذه الجملة بضمير الغائب فيعرف السامع عندئذ من هو صاحب الحال بواسطة المطابقة فى معنى الغائب.

كان على النحاة من ثم أن يكشفوا عن القرائن الدالة على المعنى النحوى لكل باب من أبواب النحو، وأن يشيروا إلى كل منها فى نطاق النظام النحوى فى جملته، وهكذا أشاروا إلى القرائن التالية:

١ ـ قرينة التضام: (ويقع تحتها الافتقار والاختصاص والاستغناء والمناسبة المعجمية).

٢ ـ الرتبة: (وهى إما محفوظة وإما غير محفوظة تسمح بالتقديم والتأخير).

٣ ـ الربط: وتحته أمران:

أ ـ المرجعية (وتشمل إعادة الذكر وإعادة المعنى وعود الضمير والإشارة والموصول والصفة)(*).

ب ـ المطابقة (فى الشخص (المتكلم إلخ) والنوع (التذكير إلخ) والعدد (الإفراد إلخ) والتعيين (التعريف إلخ) والإعراب).

٤ ـ العلامة الإعرابية: وهى تكون أصلية على المفرد المتمكن الصحيح الآخر وفرعية على المثنى والجمع السالم ومعاقبة مع المقصور والمنقوص والمبنى وما يحل محل المفرد (أى يعاقبه).

٥ ـ البنية: والمقصود اشتراط صيغة صرفية معينة لعنصر نحوى معين كالاشتقاق للحال والجمود للتمييز.

٦ ـ الأداة: كالأدوات الداخلة على الجمل، والحروف الداخلة على المفردات لإفادة معنى.

٧ ـ دلالة السياق:

وهى قرينة تركيبية الطابع تفهم فى نطاق القرائن السابقة وفى نطاق العلاقات والموقف. كدلالة "إلا" على الاستدراك دون الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أى لكن تذكرة لمن يخشى، ودلالة "إن" على النفى دون الشرط وذلك فى قوله جل شأنه: "إن أنت إلا نذير"،

(*) انظر البيان فى روائع القرآن لصاحب المقال ١٢٢ ـ ١٢٨.

ودلالتها على التأكيد فى: "وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله". فى ضوء هذه المعطيات كان النحاة يحكمون على التراكيب بالصحة والخطأ، غير أن اللغة أوسع من نحو النحاة، لأن هموم الاستعمال اللغوى ليست نحوية فقط، إذ هناك مثلاً الجانب الأسلوبى الذى يقحم فى التركيب عدولاً عن أصل الاستعمال بواسطة الزيادة أو الحذف أو التضمين أو التغليب أو الترخص فى القاعدة أو المجاز أو غير ذلك من مظاهر الشجاعة الأسلوبية التى تتحدى الأطراد فى قواعد النحاة. انظر مثلا إلى قول الشاعر:

ألا يـا اسـلمى يـا دار مـى علـى البلـى ولازال مـــنهلا بجـــرعائك القطـــر

وتأمل كيف قدم الدعاء بالسلامة للدار بعد البدء فى ندائها ثم عاد فناداها بتكرار حرف النداء، وجعل ذلك أسلوبًا للتعبير عن حرصه على سلامة الدار، ولو قصد غير ذلك لكان له مندوحة أن يقول: "ألا فاسلمى يا دار مى على البلى" ولكان حرف النداء واحدًا غير مكرر. ولعل هذا التركيب الشعرى يلقى بعض الضوء على تكرار اللامين والفصل بين اللامين بـ "ما" الزائدة وتشديدها فى إحدى القراءتين للتعبير عن زيادة تأكيد المفهوم من تكرار اللام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (هود: ١١١). فتكرار اللام فى الآية شبيه بتكرار "يا" فى بيت الشعر، وإقحام "ما" بين اللامين شبيه بإقحام الفعل "اسلمى" بين حرفى النداء.

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين قبل أن يكون ثمة نحو أو نحاة. ففيه زخم اللغة الذى يتمثل فى صور العـدول عن الأصل للوصول إلى أغراض أسلوبية. وفى القرآن قراءات مـختلفة وصف بعضها بالشذوذ عن قواعـد النحو، ولكن قبول هذه القراءات الشاذة كان مشروطًا بموافقتها للعربية (أى النحو) ولو بوجه من وجوه التأويل إلى أصل من الأصول. من هنا يتضح أن قضية الصحة قضية نحوية أولاً ثم لا تكون أسلوبية إلا عند تعلق الأسلوب بصورة التركيب كما

رأينا منذ قليل. وقد تتحقق الصحة فى التركيب دون أن يتحقق المعنى لعدم وجود القرينة السياقية وهى كبرى قرائن النحو كما فى قول المجنون ابن جندب:

محكوكة العينين معطاء القفا كأنما قدت على متن الصفا

ترنو إلى متن شراك أعجفا كأنما ينشر فيه مصحفا

فالبيتان لا يدلان على معنى محدد لأنهما لا يحملان دليلاً على المعنى من شيء قيل فيه، ولا تتسم علاقة المفردات فيهما بالمناسبة المعجمية، وليس للضمائر فيهما مراجع محددة. هذا من الناحية النحوية أما من الناحية البيانية فلا يتضح فيهما المشبه والمشبه به ولا علاقة الشبه. من أجل هذا خفى المعنى على رغم صحة الرصف النحوى.

والمعروف أن هناك ما يسمى بالحقول المعجمية، وقد اشتهر منها لدى علماء الأنثروبولوجيا حقلان هما حقل ألفاظ القرابات (جد، أب، عم، إلخ) وحقل الألوان (أبيض، أسود، أحمر، إلخ). ولكن الأمر فى الواقع أوسع من ذلك وبخاصة إذا نظرنا إلى المناسبة المعجمية بين ألفاظ الجملة وهى جزء من قرينة التضام. فلو أخذنا ما فى الأفعال من معنى الأحداث لوجدنا الحدث المعين يتطلب فاعلاً مشروطًا بمناسبة معناه الأصلى لهذا الحدث. فلو سمع أحدنا قائلاً يقول فى بداية كلامه: "فهم...." لكان به إرهاص بأن هذا الفاهم لابد أن يكون عاقلاً، فإذا أسند المتكلم الفعل إلى الحجر مثلاً كان لدى السامع أحد خيارين:

١ ـ أن يعتقد فساد المعنى.

٢ ـ أن يصرف الجملة إلى المجاز، فيكون المعنى. أن هذا الفاهم يشبه الحجر ذلك المشبه بالحجر.

ذلك أن لفظ الحجر نقل من معناه الأصلى إلى معنى آخر بعلاقة المشابهة بين جمود الحجر المشبه وقرينة كون الحجر الحقيقى لا ينسب إلى الفهم. أما إذا

سمعت قائلاً يقول: "تدحرجت إلى فوق" فإنك تحكم بفساد المعنى وإن كان رصف الجملة سليمًا من الناحية التركيبية، وذلك كحكمك على فساد ما قاله المجنون ابن جندب منذ قليل على رغم صلاحية العبارتين للتحليل الإعرابى.

والمعانى ثلاثة أنواع كبرى تخضع للتفريع: أولها المعنى العرفى الذى هو شركة بين الناس فى المجتمع، وذلك كالمعنى المعجمى للمفردات والنحوى للتراكيب، ثم المعانى التى تفهم من أضواء المرور وطقوس الاحتفال وثياب الحداد... إلخ. وثانيها المعنى العقلى أو الذهنى أو المنطقى وهو الذى يرتب النتائج على المقدمات فيصل بذلك إلى الإفهام والأحكام من خلال النشاط الذهنى، ومن ذلك نشاط الكشف عن مرتكبى الجرائم وإدراك مفهوم المخالفة عندما يكون مقصودًا من الكلام. وثالثها المعنى الانطباعى الذى هو ثمرة المؤثرات الحسية كالذى نحسه عند النظر إلى الصورة الزيتية أو سماع الصورة البيانية أو عند سماع الموسيقى أو الشعر أو التمثيلية المسرحية. كل أولئك يعد من قبيل التأثير بالأسلوب، ومن قبيل هذا التأثير ما توحى به الصورة التى عبر عنها قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٧٣) ففى الآية أسلوب لغوى ينسب إلى هؤلاء الفقراء صفات تبعث الشفقة عليهم والإكبار لهم، وفيها أسلوب تشكيلى يرسم لهم صورة يسهل معها أن نعرفهم بسيماهم. والإحساس بالشفقة والإكبار وكذلك المعرفة بواسطة الهيئة البادية للعيان كل أولئك من قبيل المعانى الانطباعية.

ولعل الفارق الأساسى بين العلم والفن أن العلم أكثر اعتمادًا على المعانى الذهنية وأن الفن أكثر تعويلاً على المعانى الانطباعية. ففى العلم استقراء وفرض وتحقيق فرض ونتيجة وقياس إلخ. أما الفن ففيه خيال وإلهام وإيحاء وموقف

ذاتى، وربما لجأ إلى الترخص فى مطالب العقل والمنطق. ولو رجعنا إلى فضل تأمل للآية الكريمة السابقة لوجدنا نوعين من الانطباع بموقف هؤلاء الفقراء: فلقد ظنهم الجاهل أغنياء بسبب التعفف عن السؤال، ومن ثم لم يستوعب المعنى الانطباعى على صورته الحقيقية، أما الحاذق الصادق النظرة فقد عرفهم بسيماهم ولم ينخدع بالتعفف. وهكذا اتحدت الصورة واختلف إدراك معناها الانطباعى.

خلاصة القول أن للاستعمال اللغوى جانبين أحدهما جانب الصحة والثانى جانب الجمال. فأما جانب الصحة فيتعلق بالمعنى العرفى، وأما جانب الجمال فيتعلق بالمعنى الانطباعى. الأول يقوم على شروط التركيب، والثانى يقوم على تأثير الانطباع، الأول يتحقق بمطابقة العرف اللغوى والثانى يتحقق بحساسية الذات المعبرة والمتلقية. وسوف نحاول فيما يلى من هذا المقال أن نلقى الضوء على موقف القرآن الكريم من صحة العبارة، وموقفه من جمال الأسلوب والتماس الجمال فى الوسائل اللغوية المختلفة:

أولاً: موقف القرآن الكريم من صحة العبارة:

جرد النحاة قواعدهم بملاحظة المسموع من كلام العرب ثم قاسوا السياق بعد ذلك على هذا المسموع. ولقد أرادوا للاطراد والقياس على المسموع أن يكونا من ضروريات النحو العربى. ولكن اللغة أرحب ساحة وأكثر مرونة من أن تخضع للاطراد الصارم ومعايير القياس، ومن هنا رأينا فى المسموع والمقيس كليهما من المخالفة لشروط التركيب ما أضطر النحاة إلى التغاضى والقبول أو إلى التأويل سعيًا إلى الاطراد.

وتتمثل تلك المخالفة فى مجالات مهمة مثل:

١ - الأساليب العدولية التى يقاس عليها.

٢ - القواعد الفرعية.

٣ - الترخص فى قرائن المعنى عند أمن اللبس.

فأما الأساليب العدولية (أى التى هى عدول عن أصل القاعدة) فمنها الحذف والزيادة والنقل والتضمين والتغليب والفصل والاعتراض، وإنما كان قبول النحاة لهذه الظواهر التركيبية يرجع إلى عدم إيصال التركيب إلى اللبس. فلا حذف إلا بدليل يحول دون اللبس، والزيادة تعرف يكون الزائد ليس عمدة ولا فضلة وأن الجملة تفيد معنى بدونه، والنقل يكون ظاهرة نحوية كنقل المصدر والفعل ونحوهما إلى العلمية ونقل المبهمات إلى الظرفية وكون التمييز منقولاً عن الفاعل أو المفعول وهلم جرا، قد يكون ظاهرة بلاغية بيانية كالمجاز المرسل والاستعارة والكناية ونحو ذلك. ويتضح التضمين من اكتساب المضمن علاقات ما تضمن معناه في الجملة، فالفعل قد يكون متعديا نحو "استحب" ولكنه حين يضمن معنى "فضل" يتعدى بحرف الجر على نحو: ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧) أى فضلوه فيعرف وقوع التضمين بتغيير العلاقة مثلاً. والتغليب اختصار مقصودين بذكر أيسرهما نطقًا كالعمرين أو أولاهما بالذكر كالأبوين بتغليب الأب والوالدين بتغليب الوالدة. ويعرف الفصل بموقعه والاعتراض بما يحدثه من فجوة فى السياق. ولوضوح المعنى بهذه الأدلة عليه لم يكن لدى النحاة ما يدعوهم إلى وصف هذه الأساليب بالشذوذ.

وأما اشتراط أمن اللبس فقد كان سببًا فى نشأة القواعد الفرعية التى تعد استثناء من القواعد العامة. وحسبنا عند إرادة الإيجاز أن نذكر قول ابن مالك فى بيان هذه القواعد المشروطة بأمن اللبس:

ولا يجوز الابتدا بالنكرة ... ما لم تفد كعند زيد نمرة

والأصل فى الأخبار أن تؤخرا ... وجوزوا التقديم إذ لا ضررا

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيد بعد مَن عندكما

وفى جواب كيف زيد قل دنف ... فزيد استغنى عنه إذ عرف

وربما استغنى عنها إن بدا | ما ناطق أراده معتمدًا
وشاع فى ذا الباب إسقاط الخبر | إذا المراد مع سقوطه ظهر
والحذف فى نعم الفتاة استحسنوا | لأن قصد الجنس فيه بيّن
وأخّر المفعول إن ليس حذر | أو أضمر الفاعل غير منحصر
وما بإلا أو بإنما انحصر | أخّر وقد يسبق إن قصد ظهر
نقلاً وفى أن وأن يطرد | مع أمن لبس كعجبت أن يدوا
وقد ينوب عنه ما عليه دل | كجد كل الجد وافرح الجذل
وإن بشكل خيف لبس يجتنب | وما لباع قد يرى لنحو حب

ومعنى كلام ابن مالك هذا أنه لا إصرار على القاعدة الأصلية إذا أمن اللبس، فإذا أمن اللبس نشأت قاعدة أخرى فرعية، ولكنه يقول أخيرًا: "وإن بشكل خفيف لبس يجتنب" أى تبقى القاعدة الأصلية مستصحبة فلا ترخص فيها عند خوف اللبس.

وكما يكون الترخص فى القاعدة يكون فى إحدى القرائن الدالة على معنى نحوى ما. وقد سبق فى أول هذا المقال أن عرّفنا بهذه القرائن هى التضام والرتبة والربط والبنية والإعراب والأداة ودلالة السياق. فمن الترخص فى قرينة التضام قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ ﴾ (يس: ١٩) بحذف جواب الشرط أى: أئن ذكرتم تطيرتم؛ ومن الترخص فى الرتبة قوله جل شأنه: ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ ﴾ (هود: ٣٨) "بتقديم جملة الحال مع امتناع ذلك بحسب القاعدة. ومن الترخص فى الربط قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٣٨ ـ ٥٢). ففى الآية عشرة من ضمائر الغيبة أحدها مستتر فى الفعل "تقوَّل" وليس لواحد منها مرجع مذكور ولكن المراجع جميعًا واضحة من السياق. ومن الترخص فى البنية قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) أى وطور سيناء. ومن الترخص فى الإعراب ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾ (المائدة: ٦٩) ومن الترخص فى الأداة حذف الهمزة فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (البقرة: ١٢٤) أى أو من ذريتى. أما دلالة السياق فالترخص فيها يؤدى إلى اللبس.

وقد يأتى الترخص فى نمط الجملة مع إرادة المعنى الذى جرى الترخص فى نمطه. ففى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢) ليس المقصود النهى عن الموت على حال بعينها وإنما المقصود الأمر بالتمسك بالإسلام حتى الموت فجرى الترخص فى نمط الأمر وحل محله نمط النهى مع إفادة معنى الأمر. وفى قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٨) عدل عن نمط الأمر بالتربص إلى نمط الجملة الخبرية. وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ﴾ (التوبة: ١٢٧) دل عن صيغة الحال المفردة والحال الجملة الخبرية إلى نمط الجملة الإنشائية "هل يراكم من أحد" وفى قوله جل شأنه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠) جاء المفعول لأجله جملة إنشائية أيضًا والمعنى لنرى قدرتكم على الصبر. يبدو للمتأمل فى هذه الحقائق السابقة أن النحو أضيق ساحة من اللغة لأنه صرف همه منذ البداية إلى الجانب المطرد منها عازفًا عن حصر الشجاعة الأسلوبية التى تتأبى على الاطراد والتقعيد وهى التى يتبين من خلالها العنصر الجمالى للنص اللغوى. وما أكثر ما سمعنا عن المشاحنة بين النحاة والشعراء إذ يتسلح النحوى بطرد القاعدة ويجيب الشاعر بحرية الفن قائلاً: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا.

ثانيًا: الجمال فى النص القرآنى:

حين نريد معرفة الأثر الجمالى نتجه بالسؤال عنه إلى قارىء النص وليس إلى منشئه ولكننا حين نريد نسبة الفضل فى التأثير الجمالى ننسبه إلى منشئ النص من خلال نسبته إلى النص نفسه. وإذا قيل إن القرآن معجز فإن بعض إعجازه يعود إلى الجمال. وإذا أردنا أن نتتبع عناصر الجمال فيه فلابد أن ننسبها إلى وسائل تربط المبانى بالمعانى ربطًا يبعث فى النفس الإحساس بالجمال. وتتدرج هذه المبانى من مخارج الأصوات وصفاتها إلى صياغة الكلمات المفردة إلى اختيار مفردة دون أخرى إلى ما فى النص من الصور البيانية والتصوير الوقائعى إلى غير ذلك من وسائل التعبير.

١ ـ المستوى الصوتى:

للأصوات مخارج وصفات تعد فى الدرس اللغوى سمات مميزة يؤمن اللبس بواسطتها وهذا هو الجانب العرفى عند النظر إلى الاستعمال وهو الجانب المنهجى العلمى عند البحث فى اللغة. ولكن الذى نتكلم عنه هنا أصوات شأنها فى التأثير شأن كل صوت مسموع كالصوت الموسيقى مثلاً، فالأصوات المسموعة ذات معان طبيعية إيحائية وانطباعية لا هى عرفية ولا ذهنية. فقد تدل المقابلة بين الترقيق والتفخيم على إرادة التأكيد عند تفخيم الصوت. انظر مثلاً إلى قوله تعالى فى مجرد الإخبار عن خلق الأرض ﴿ **وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ** ﴾ (النازعات: ٣٠) ثم عندما أريد التأكيد بمناسبة القسم قال ﴿ **وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا** ﴾ (الشمس: ٦) بوضع الطاء فى موضع الدال أى بإبدال التفخيم بالترقيق وقد يدعو المقصود إلى تغيير حركة البناء للوصول إلى غرض معيّن كما فى تغيير بناء ضمير المفرد الغائب من الكسر إلى الضم على رغم القاعدة وذلك فى قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ **وذلك للحرص على تفخيم اللام فى لفظ الجلالة**. وقد

تدل الرخاوة أى الاحتكاك فى نطق الصوت على أثر معين كالذى نراه فى قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨) وذلك بإدغام التاء من "تثاقلتم" مع الثاء ليكون منهما معا ثاء مشددة أطول فى نطقها مدة من الصوت المفرد وأكثر دلالة على إفراغ الطاقة والركون إلى المكث والتخلف وذلك بإيحاء الصوت. وقد تدل شدة الصوت الشديد على الإقفال والحبس كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ (الهمزة: ٨) بهمز الواو من لفظ "موصدة" للإيحاء بهذا المعنى. ومن دلالات الإدغام أيضًا ما فى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ٣٨) من إيحاء بمفاجأة إلقائهم فى النار، وفى قوله ﴿ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ (يونس: ٣٥) من إيحاء بالإحجام عن الاهتداء، وقوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤) من دلالة على ضيق النفس بسبب هذا الأمر. أما التكرار فى أصوات الكلمة فيدل على التوالى كما فى قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٩٤ ـ ٩٥) ومن هذه الأساليب الصوتية أيضًا زيادة صوت على أصول الكلمة الثلاثة للدلالة على المبالغة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (فاطر: ٣٧) بزيادة الطاء على "يصرخون" للدلالة على شدة الصراخ. وانظر أيضًا إلى المقابلة بين "اسطاعوا" و"استطاعوا" فى قوله ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف: ٩٧) للدلالة على أن تسلق السور أيسر من نقبه من حيث المبدأ وذلك أن ذا القرنين حين قال: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ (الكهف: ٩٦) فكانت لزوجه القطر حائلاً دون التسلق وكان حديد جسم السد حائلاً أيضًا وبصورة أشد دون نقب السد فاستحال على يأجوج ومأجوج أن يستطيعوا التسلق أو يستطيعوا النقب فكانت التاء فى "استطاعوا" دالة على الصعوبة الكبرى فى محاولة النقب.

٢ ـ مستوى المفردات:

قد يصوغ النص القرآنى الكلمة المفردة يرتجلها ارتجالاً يدخلها فى معجم اللغة بعد أن لم تكن فيه. فلا وجود فى مفردات العربية الجاهلية ولا فى صحراء شبه الجزيرة لشجرة تسمى "شجرة الزقّوم"، ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ (الصافات: ٦٤ ـ ٦٥) ولكن اسم هذه الشجرة يرد فى القرآن الكريم بواسطة الارتجال ليكون مؤشرًا أسلوبيًا معناه من قبيل المعانى الانطباعية التى تنبنى على الحكاية والإيحاء. فلقد صيغ الاسم المرتجل أولاً من الزاى والقاف وكأنه يذكرنا بالفعل فى "زق الطائر فرخه" أى أدخل الطعام إلى جوفه ولا غرو فشجرة الزقوم طعام الأثيم. ولأمر ما جاء تشديد القاف موحيا بمكث اللقمة فى فم الأثيم قريبة من مخرج القاف مدة أطول من المعتاد، وزاد من هذا المكث أن القاف لحقتها الواو (لا الضمة) فدلت بكونها أطول من الضمة على زيادة المكث. ثم تأتى الميم بما لها من ضم الشفتين للإيحاء ببلع الطعام فأنت تستطيع أن تبتلع السوائل بفم مفتوح ولكنك لا تبلع الطعام إلا بإقفال الشفتين عليه. كل ذلك من قبيل المعانى الطبيعية التى ليس مصدرها العرف أو الذهن. وكذلك حول النص القرآنى إلياس إلى الياسين فى قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠) كما حول سيناء إلى سينين فى قوله: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) وذلك لرعاية الفاصلة فى كلا الموضعين بحيث يكون ثمة تشابه صوتى بين فواصل الآيات يوحى بالانسجام والارتياح. وهناك عدد من صور التصرف فى البنية المقررة بغرض الإيحاء أيضًا كما فى ألفاظ مثل "عجاب" و"كبّار" و"كِذّاب" و"يحموم" و"سجين" و"سلسبيل" و"تسنيم" و"غساق" و"عليين" وهلم جرا.

وثمة موقف آخر للتصرف الأسلوبى يقوم على المفاضلة بين استعمال المفردات فى موقف بعينه، إذ يفضل النص مفردة على مفردة أخرى للوصول بذلك التفضيل

إلى غرض أسلوبى بعينه. لقد سأل زكريا عليه السلام ربه وهو يعجب ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٠) وسألت مريم ربها وهى تعجب ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٧) فكان جواب الله على سؤال زكريا: "كذلك الله يفعل ما يشاء" وعلى جواب مريم: "كذلك الله يخلق ما يشاء". فاستعمل الفعل "يفعل" لإجابته زكريا والفعل "يخلق" لإجابته مريم. وواضح أن الفعل "يفعل" لا يناسب مخاطبة الأنثى كما فى حالة مريم. وفى الكلام عن محنة يوسف عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف: ٢٣) ولم يصف هذه المرأة بأنها سيدته تكريمًا ليوسف. وحين ضرب الله للكافرين مثلاً بالعنكبوت قال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ (العنكبوت: ٤١) فلم يقل "نسجت" أو "بنت" وإنما قال اتخذت للدلالة على إرادة التحصن فى البيت. والله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (النحل: ٧٠) يعود بالإنسان إلى الضعف الذى جربه فى طفولته ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (الروم: ٥٤) لذا كان من الأفضل لنص الآية أن يوحى بأن فى الشيخوخة المتأخرة وهى "أرذل العمر" انتكاسا إلى الضعف وارتدادا إليه، ومن هنا جاء الفعل "يرَدُّ" وقد يدعو غرض أسلوبى إلى التعميم باستعمال الموصول تجنبًا لذكر شيء أو شخص ما أو التهوين من شأنه كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ (الأحقاف: ١٧) وقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (مريم: ٨٠) فنجد النص يكنى عن الشخص "بالذى"

وعن كلامه بـ "ما يقول" بقصد السخرية منه والتهوين من كلامه. ومن ذلك ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ (آل عمران: ١٨١)، ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (المائدة: ٦٤)، ﴿ قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١)، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ (المزمل: ١٠)، ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ (الأحزاب: ٦٩)، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (طه: ١٠٤) وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم. مما يشير إلى تلخيص قول غير مقبول.

٣ ـ مستوى التراكيب:

وكما تدعو الاعتبارات الأسلوبية الجمالية إلى اختيار المفردات تدعو أيضًا إلى اختيار التراكيب لدفع اللبس حينا ولقصد التأثير حينا آخر. دعنا أولاً نعرض بعض الصور التى أمن بها اللبس. فمن ذلك قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾ (يونس: ١٦) فاستعمل "لا" مع "أدراكم" ولم يستعمل "ما" لسببين: الأول أن العطف مع تكرار النفى بها إنما يكون عند عدم وجود علاقة بين المعطوف والمعطوف عليه ومن ذلك: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ٩)، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٦)، ﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (البقرة: ١٤٥)، ﴿ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، ﴿ لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران: ١٥٦)، ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ (النساء: ١٥٧)، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣) ففى كل هذه الشواهد لا يتوقف تحقق المعطوف على تحقق المعطوف عليه. أما إذا كان المعطوف عليه مقدمة لحدوث المعطوف فإن المعطوف ينفى بلا وليس بما كما فى الآية. والسبب الثانى أن الفعل "أدراكم" لو دخلت عليه ما

لتعرض للبس للشبه عندئذ بين النفى والتعجب فى "وما أدراكم به" من هنا جاء تفضيل "لا" على "ما" فى هذا التركيب. أما إذا كان المعطوف عليه منفيًا بلا فإن المعطوف عندئذ لا ينفى إلا بها، نحوه ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ (القيامة: ٣١) ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٦)، ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وقد يكون التكرار أيضًا لتوثيق علاقات المفردات أو التراكيب الفرعية فى الجملة وقد يكون لدفع اللبس. فمن الأول تكرار صدر الجملة بعد أن طال الكلام قبل تمامها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٨٩)، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٩) فلولا التكرار لا نحلت عرى الجملة وضعفت العلاقة بين أجزائها. أما التكرار لدفع اللبس فقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٧). "فلولا تكرار الباء فى" بما كانوا يكذبون" لصلح التركيب للنفى دون المصدرية، وهناك قرائن أخرى تحول دون هذا اللبس منها أن الإخلاف والكذب آيتان من آيات النفاق كما أوضح الحديث النبوى القائل: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان".

وقد يكون نقل اللفظ من مكانه أو وضعه فى مكان هو فيه زائد على المعنى مؤشرًا أسلوبيًا ذا غرض خاص كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ (غافر: ٥٨) أى "ولا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات والمسئ" وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ (فاطر: ١٩ ـ ٢٢) ف "لا" زائدة قبل النور والحرور والأموات. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ (هود: ٢٤) فقوله: "هل يستويان" بإسناد الفعل إلى ألف الاثنين يحول دون اعتقاد المتعاطفات أربع مفردات ويدل على أن هناك شخصين أحدهما أعمى أصم والثانى بصير سميع.

٤ ـ التصوير البلاغى:

يقوم التصوير البلاغى على الانتفاع بالعلاقات سواء ما كان منها انطباعيًا كالمشابهة، أو عقليًا نحو السببية (السبب المسبب) والزمانية (ما كان وما يكون) والكمية (الكلية والبعضية) والمكانية (الحالية والمحلية) واللزومية أو لغويًا إسناديًا (كالتعارض فى المعنى بين المسند إليه والمسند) أو معجميًا (كالمشترك اللفظى) أو غير ذلك. فأما المشابهة فهى العلاقة التى يبنى عليها التشبيه والاستعارة، وأما السببية والزمانية والمكانية والكمية فهى علاقات المجاز المرسل، وأما لزوم المعنى فعلاقة الكناية، وأما تعارض طرفى الإسناد فعلاقة المجاز العقلى، والمشترك اللفظى أداة التورية. فمن التصوير بالتشبيه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٤ ـ ٢٦٥). هنا صورتان من صور الإنفاق يشتمل عليهما المشبه به:

الأولى صورة جبل صخرى أملس تغطيه طبقة من التراب الصالح للزراعة والثانية صورة حديقة على رابية ترتفع قليلاً عن سطح الأرض نزل عليها المطر. يلاحظ أن تزول المطر بالنسبة للجبل عبرت عنه جملة معطوفة بالفاء أما نزوله على الحديقة فقد عبرت عنه جملة هى صفة للحديقة. فنزول المطر على الجبل حادث مفاجئ غير مرغوب فيه كان سببًا فى تعرية الجبل حتى إنه لم يعد صالحًا للزراعة بدليل التعبير بالفعل "تركه" إذ صار الجبل متروكًا لعدم الفائدة أما الحديقة فمن صفتها أنها ١: بربوة ٢: أصابها وابل ولهذا آتت أكلها ضعفين. وهذا الموقع المتميز للحديقة يجعلها عرضة للرى من وجهين فإما أن يصيبها وابل وإما أن يصيبها الطل فتنتفع بالماء فى الحالتين.

والمشابهة علاقة الاستعارة أيضًا لأن الاستعارة بحكم التعريف "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى "مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء: ١٢٩). فهنا نجد المعنى الأصلى للميل أنه ضد الاعتدال ولكن "تميلوا" نقل إلى معنى التحيز وعدم العدالة فى المعاملة (أى بعلاقة) الانحراف فى كل منهما ثم ترك معنى استقامة الوضع الحسى واستعمل معنى استقامة القصد والعدالة، والقرينة الدالة على هذا الاستعمال ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ ﴾. فهذه الاستعارة تصور الرجل بين امرأتين فى وضع جسمانى مائل إلى إحداهما دون الأخرى وهو وضع ينفر منه الرجل الكريم. والعين سبب الرؤية وسيلة الرعاية، فحين يقول الله تعالى لنبيه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨) تصور الآية أن النبى فى رعاية الله تعالى وفى ذكر العين ما يفيد الظرفية وهو الباء إيحاء بالمحبة والإعزاز. والقلب فى الأدب التراثى محل الفكر، وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧) مجاز مرسل فى لفظ القلب واستعارة تبعية فى

"ألقى السمع" فالصورة العامة تعنى أن فى ذلك عظة لـمن يفكر ويستمع إلى النصح. والسنون أزمنة الوقائع فإذا ذكرت وكان الـمقصود ما حدث أثناءها فالـمجاز مرسل والعلاقة زمانية وذلك ما نلحظه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (الأعراف: ١٣٠) فالصورة هنا تجعل السنين أداة البطش وتعنى الأزمات. والأرض كوكب من كواكب المجموعة الشمسية فلا قدرة لعرب الجاهلية أن يروه فى جملته، فـإذا قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (الرعد: ٤١). فليس معنى ذلك تصوير رؤيتهم كوكب الأرض وهو بيضاوى لا كروى وإنما المقصود أرض الكفر ينقصها الله بنصر المسلمين على الكفار ففى الأرض هنا مجاز مرسل بعلاقة الكمية لأن الأرض المذكورة جزء من كوكب الأرض. وهكذا نرى اللفظ فى الاستعارة وفى المجاز المرسل كليهما منقولاً من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ولكن العلاقة تشبيهية فى الاستعارة وعقلية فى المجاز المرسل. والنقل فى الحالتين أداة التصوير. وثمة علاقة عقلية أخرى غير علاقات المجاز المرسل وتلك هى اللزوم وهو يقف بإزاء نقل المعنى فلبس مع اللزوم نقل إذ يذكر المعنى الأصلى (ويسمى الـمعنى القريب) ويلزم منه معنى آخر يسمونه لازم الـمعنى أو الـمعنى البعيد. ويمكن إرادة أى من الـمعنيين دون حاجة إلى النقل مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (الكهف: ٤٢) فقد يراد المعنى القريب وهو تقليب الكفين وقد يراد ما يلزم من هذا التقليب من الأسف والندم والمراد بتقليب الكفين ضرب كف بكف ولا حاجة فى الكناية إلى قرينة لصحة إرادة المعنى الأصلى. والصورة هنا معبرة جدًا فليس أدل على الندم من تقليب الكفين.

والمجاز العقلى يبنى على المفارقة المعجمية فى الإسناد لا فى الإفراد كما مر فى الاستعارة. فإذا كانت المفارقة فى الاستعارة سببها نقل الـمعنى كأن ننقل معنى

الأسد من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع فتترتب المفارقة بين الفعل "خطب" مثلاً وبين "الأسد" أى الشجاع، فإن المجاز العقلى يبقى على المعنى الأصلى للألفاظ ولكنه يجعل المفارقة بينها فى الإسناد إذ يسند اللفظ إلى غير من هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من اعتقاد المناسبة بين طرفى الإسناد. فالرابح هو التاجر مثلاً وليست التجارة ولكن الله تعالى يقول: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦) فالعلاقة أن التجارة وسيلة للربح والقرينة أن التجارة صفقات فلا تقوم هى بإجراء الصفقات ومن ثم لا تنسب إلى إنشاء الربح والخسارة. وفى قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٢١) نجد نسبة الرضا إلى العيشة مع أنها تكون مرضية لا راضية. والوعد يأتى ولا يؤتى إليه ومع ذلك نجد قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم: ٦١). والنهر مجرى الماء وليس الماء نفسه ومن ثم لا يجرى على الحقيقة ولكن الله تعالى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ (الأنعام: ٦) فكل ذلك تصوير بواسطة المجاز العقلى.

٥ ـ تصوير الأحداث والمواقف:

القرآن الكريم كتاب دعوة إلى عقيدة وتشريع لمجتمع. أما الدعوة إلى العقيدة فقد كانت الطابع الغالب على العهد المكى من نزول القرآن، وأما فى العهد المدنى فقد كانت العقيدة والتشريع جنبًا إلى جنب فى الوحى القرآنى. ولقد اشتملت الدعوة إلى العقيدة على الترغيب والترهيب وكانت الجنة أوضح ما يدور حوله الترغيب كما كانت النار مناط الترهيب. وكان الأمر فى كلتا الحالتين مجالاً لتصوير الأحداث والمواقف سواء أثناء الحساب أو بعد القضاء بدخول الجنة أو النار. فأما مشهد القيامة فحسبنا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٢) فإذا جاء يوم العرض على الله فإن تصوير

الموقف يأتي في سورة الحاقة إذ يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١٨ ـ ٢٤) ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧). أما في سورة الواقعة فقد تجاوز الأمر تصوير الجنة والنار إلى وصف أنواع النعيم والعذاب فيقول الله تعالى: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (الواقعة: ٨ ـ ١٢) ولما كان السابقون من عباد الله من سائر الأمم التي اتجهت إليها الرسالات ومنهم أتباع محمد كان الجميع ممن استحقوا دخول الجنة فقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١٣ ـ ١٤) ثم ذكر تفصيل نعيم السابقين فقال: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (الواقعة: ١٥ ـ ٢٦) ثم فصل نعيم أصحاب اليمين فقال: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا

أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (الواقعة: ٢٧ ـ ٣٨) هذا هو الترغيب فى خيرات الجنة وما فى الجنة من حياة النعيم والرفاهية: أما الترهيب من عذاب جهنم فهو ما نقرأه فى مصير أصحاب الشمال من قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الواقعة: ٤١ ـ ٥٦) هذا ما نجده فى سورة الواقعة، أما فى سورة الرحمن فللإنس جنة وللجن أخرى وجنتا السابقين أكثر نعيمًا من جنتى أصحاب اليمين فحين الكلام عن جنتى السابقين من الثقلين يقول تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦ ـ ٦١) أما أصحاب اليمين من الثقلين فلهم جنتان دون ذلك فى وسائل التنعيم إذ يقول تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ

مَقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٦٢ ـ ٧٧). أما المذنبون أصحاب الشمال فجزاؤهم جهنم. يقول تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧ ـ ٤٥) وواضح أن العلاقة بين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ وقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ علاقة السببية فما داموا يعرفون بسيماهم فلا داعى للسؤال عن ذنوبهم مع تحقيق معرفة القرائن ووضوح الأمارات.

وفى سورة الأعراف مشهد حوار بين أهل الجنة وأهل النار يوضح الفارق العظيم بين هؤلاء وأولئك ويبدى الفارق الكبير بين النعيم والحرمان. وتشارك فى هذا الحوار طائفة ثالثة متوسطة بين الجنة والنار تقف على أعلى السور بين الجنة والنار فترى أهل الجنة فى أحد الجانبين وأهل النار فى الجانب الآخر هذه الطائفة الثالثة تنتظر قضاء الله فى شأنها أن يغفر لها فيدخلها الجنة بعد انتظار وترقب نظرًا لتساوى حسناتهم وسيئاتهم. هؤلاء ينادون المجرمين أهل النار الذين يعرفونهم بسيماهم ويتهكمون بهم ويسخرون منهم. يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٤ ـ ٥١).

والأعراف الحجاب الذى بين الجنة والنار هى الزوائد الرأسية فوق السور على نحو ما تبدو فى أسوار القلاع والحصون. وقد كان لأصحاب الأعراف النصيب الأكبر فى الحوار كما رأينا. ولعل المؤذن المذكور فى هذا الحوار كان من أصحاب الأعراف. (بديل لفظ "بينهم").

وثمة صورة أخرى لافتضاح أهل النار بشهادة أعضاء أجسادهم عليهم فكأنهم يشهدون على أنفسهم بارتكاب ما ارتكبوه من الأعمال. وإذا كان للإنسان خمس من الحواس هى السمع والبصر واللمس والذوق والشم فإن الحواس الثلاث الأولى تشهد على أهل جهنم حال دخولهم فيها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ (فصلت: ٢٠ ـ ٢٤) هذه الصورة تكشف عن ورطة لم تكن فى خاطر هؤلاء المذنبين لأنهم لم يكونوا يتوقعون من جلودهم أن تشهد عليهم وهى موضع حاسة اللمس التى هى أخطر الحواس جميعًا. ذلك أن الذى يبطش بغيره يبطش بيده وهى موضع

اللمس والذى يزنى يحس اللذة المحرمة من خلال اللمس ويكون اللمس طريق عدد من المخالفات المورثة للذنوب، ومن ثم لم يعتب هؤلاء المذنبون على سمعهم ولا على أبصارهم وإنما لاموا جلودهم من أجل الإدلاء بهذه الشهادة فكان جواب الجلود تأنيبًا لهم وجعلت الجلود بعد ذلك وسيلة لدوام العذاب "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب". وهكذا كان الاختيار عند أهل النار بين أمرين فإما أن يصبروا على العذاب وإما أن يطلبوا المغفرة. "فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين بشهادة أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون فلا فائدة ترجى من أى من الخيارين". ومن الصور فى الأسلوب القرآنى ما نجده فى الأمثال القرآنية. والمثل القرآنى ضرب من التشبيه البسيط أو المركب ولكن المركب هو الذى يكشف عن موقفين أحدهما يشبه الآخر ومن هنا تبدو الصورة الحادثة من هذا التشبيه أكثر حياة ونبضًا بحكم تناولها للمواقف الحية. وليس معنى هذا أن التشبيه البسيط أقل جمالاً فهو يتسم بقوة وجه الشبه حتى ليبدو أحد الطرفين كأنه من قبيل الآخر. فمن ذلك تشبيه الذين ذرأهم الله لجهنم بأنهم ﴿ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وتشبيه من أدبر عن سماع آيات ربه بأنه ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: ٧) ويصف الناس يوم البعث بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر: ٧) ويصف السماء بأنها ﴿ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧) أى محمرة كالطلاء الأحمر، ويصف الحور بقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: ٥٨) ويقول فى الحور العين: ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة: ٢٣) الذى لم يستخرج بعد من الصدف. ويقول فى يوم العذاب الواقع: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (المعارج: ٨ ـ ٩) أى تكون السماء كعكارة الزيت وتكون الجبال كالصوف المنفوش كما يأتى وصفها بذلك فى صورة القارعة أيضًا أما جيش أبرهة فقد أهلكه الله تعالى حتى جعله ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٥) لا يبقى على صورته التى كان عليها.

تأتى بعد ذلك صورة الأمثال المركبة وما تتسم به من جمال التصوير وكفاءته الإعلامية. يصور القرآن الكريم الذين كفروا فى صورة البهائم التى تسمع نعيق الراعى ولا تفهم دلالة ألفاظه ومن ثم يعبر عنهم بالموصول "ما" دون "من" فيقول: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١) وفى الذين كفروا حذف مضاف أى مثل داعى الذين كفروا. والله سبحانه يضاعف أجر المنفقين فى سبيل نصرة دينه ويضرب المثل لذلك بقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٦١) أما من ينفق من الكافرين فإنه يخسر ماله ثم يكون المال عليه حسرة فمثله كمثل قوم كانت لهم مزارع ولكنهم عصوا الله فأرسل على مزارعهم ريحًا باردة ذات صقيع فأهلكت مزارعهم ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ١١٧) أما من رزقه الله المعرفة بآياته فتنكر لها واتبع إغواء الشيطان فإنه يظل على تنكره لآيات الله سواء دعى إلى الهدى والعودة إلى الحق أم لم يدع: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ (الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦) وانظر إلى قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو يرفض التسامى عن عمد وإصرار.

حين ندعو الله سبحانه نبسط كفينا بالدعاء، ولأن الله تعالى يجيب الداعى إذا دعاه فإنه حقيق أن يدعى ودعوته دعوة حق أما من يدعو الأصنام باسطًا يده إليها فإنه كمن يبسط يده إلى الماء يطلب أن يبلغ الماء فاه ليشرب ولكن الماء لا يبلغ فاه ومن ثم يخيب دعاؤه: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم

بشَيْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ (الرعد: ١٤) وفى الفعل "يدعون" مفعول به محذوف هو ضمير الأصنام والتقدير "يدعونهم" وفى قوله "كباسط" مضاف محذوف والتقدير "كحرمان باسط كفيه". ويضرب الله مثلاً للحق والباطل بماء السيل وغثائه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧) والمقصود بالسيل هنا سيلان الماء فى النهر لأن الأودية سالت بقدرها فلم يحدث فيضان غير أن الماء حمل معه الزبد رابيا على السطح ليذهب جفاء ويبقى الماء وما ينفع الناس مما كان فى صحبته طافيا معه.

إن الله سبحانه وعد بأن يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون فكلمة الإسلام باقية وكلمة الشرك ذاهبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥) فكلمة التوحيد كشجرة النخل عميق جدرها شاهق فرعها تؤتى ثمرها كل موسم بإذن ربها. أما كلمة الشرك فإلى زوال كشجيرة الحنظل التى تقتلعها الريح من جذورها وتذروها على سطح الأرض فلا تستقر أبدًا، وثمرها شديد المرارة.

- من آمن بالله فقد أخلص وجهه لله ومن عبد الأصنام فقد عدّد ولاءه لها. فأما أول الرجلين فإنه يعرف دائمًا ما يطلب منه ويألف عبادة الله تعالى ولا تتعارض واجبات هذه العبادة فهو كعبد له سيد واحد فأصبح يعرف ما يطلبه سيده فلا يشق عليه منه شيء. أما الرجل الآخر فهو كعبد تشارك فى امتلاكه عدد من الشركاء لكل منهم مطالبه الخاصة التى تتعارض مع مطالب شركائه فإذا قال له أحد سادته اذهب

إلى اليمين وقال الآخر: اذهب إلى الشمال فسوف يحار العبد ويعانى من تعارض رغبات سادته: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩).

يضرب الله مثلاً لذاته وهو صاحب النعم ورازق العباد وللأصنام وهى عاجزة مفتقرة لا تملك ولا تنعم، فيقول سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ٧٣ ـ ٧٦) فالله سبحانه فى هـذه الصورة القرآنيـة يرزق عباده سرًا وجهرًا ويأمر بالعدل أما الأصنام فهى العبد المملوك الذى لا يملك شيئًا وهو الأبكم العاجز الذى يمثل عبئًا على صاحبه والمشئوم الذى لا يأتى بخيرًا أبدًا.

وكذلك يضرب الله مثلاً لـمن يعاهد ثم ينقض عهده لظروف طارئة يسعى للانتفاع بـها فيقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ (النحل: ٩١ ـ ٩٢) فإذا عاهد قوم قومًا آخرين ثم تعرض هؤلاء الآخرين لعدوان مـمن هم أكثر منهم عددًا وأشد قوة فلا ينبغى للأولين أن يتخلوا عن عهودهم لقوة الـمعتدين وإلا كانوا كالـحمقاء التى تـحكم غزلـها طول النهار ثم تنقضه آخر اليوم مهدرة جهدها.

تقبل الدنيا على الإنسان فيغتر بكثرة خيراتها ويلهيه ذلك عن فعل الخير وتمر به الأيام سراعا حتى إذا انقضى أجله لم يجد من عمله ما يؤهله للحياة الآخرة. فإقبال الدنيا كغزارة الماء الذى ينزل من السماء وإهمال الإنسان للأعمال الصالحة وانشغاله بالآمال الزائلة كنبات الأرض فإذا صادف إقبال الدنيا انشغالاً بالآمال الزائفة اختلط هذا وذاك فكانت النهاية زوال الحياة والنعمة كلتيهما يقول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٥ ـ ٤٦).

قد يبذل الكافر ماله فى سبيل الخدمة العامة ويظن بهذا أنه سيلقى جزاء حسنًا فى الحياة الآخرة غير أن فساد الاعتقاد يفسد كل عمل صالح. فمثل اغترار الكافر بما يقدمه من عمل صالح مع الكفر كمثل ظمآن يمشى فى الصحراء فيرى سرابًا فى مسطح بعيد من الأرض فيسرع إليه ينبغى أن يروى منه غلته حتى إذا بلغه اكتشف أنه لم يكن أكثر من خدعة ووجد عنده عذاب الله سبحانه وتعالى. أو أن هذا الاغترار كالظلمات التى بعضها فوق بعض وأن الخدعة هنا لا ترتبط بالسراب وإنما ترتبط بالماء الحقيقى نفسه لأن هذه الظلمات فى بحر متلاطم عليه موج فوقه موج وفوق ذلك سحاب فلو أخرج المرء فى هذه البيئة يده لم يكد يراها. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٣٨ ـ ٤٠).

هل تقوم الشركة بين السيد والعبد الواقع فى ملكه أى بين المالك والمملوك وهل

يخشى السيد اعتراض شريكه العبد على بعض تصرفاته كما يخشى اعتراض شريكه الحر؟ "إذا كان الجواب بالنفى فكيف يجعل الكفار خلق الله شركاء لله فى الألوهية؟ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٨).

كان النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين يجاهدون الكفار فى سبيل الله فكانوا أشداء فى الحق كما كانوا متراحمين فيما بينهم حريصين على شعائر دينهم طلبا لرضوان الله تعالى حتى لقد كنت تعرفهم بسيماهم التى فى وجوههم من أثر سجودهم فى الصلاة. لقد ورد ذكرهم فى التوراة من نسبتهم إلى هذه الصفات المذكورة. أما فى الإنجيل فقد جاء تمثيلهم بمثال زرع أخرج ثمرة ثم ما زال هذا الثمر ينمو حتى بلغ مرحلة النضج مستويًا على سيقان النبات يعجب من زرعه وقد جعلهم الله سبحانه على هذه الصورة ليغيظ بهم الكفار الذين يناصبونهم العداء. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩).

أما أحبار اليهود فقد وضعت أمانة المحافظة على التوراة فى أيديهم ولكنهم لم يحسنوا حمل هذه الأمانة فحرفوا فيها وأساءوا فهمها وتفسيرها وإنكار ما فيها من إشارات واضحة إلى ظهور الإسلام وحرفوا نصوصها حتى انتهت فى أيديهم إلى نص آخر غير الذى نزل على موسى. وبذلك أصبحوا لا يعلمون حقيقة ما

يحملون فكان مثلهم كمثل حمار يحمل على ظهره أسفارًا ولكنه لا يدرى من أمرها شيئًا. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة: ٥).

وهكذا نرى وضع المشبه فى صورة المشبه به فى هذه الأمثال يأتى بدرجة من الإحكام تثير فى النفس من التأثير ما يجعلها تحس جمال الأسلوب ودقة التصوير وبخاصة إذا أضفنا إلى جمال التصوير جمال التعبير.

العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة فى النص القرآنى

الاتصال أهم وظائف اللغة، ونقل المعنى اللغوى من الملقى إلى المتلقى أهم وظائف الاتصال. من هنا كانت فروع علم اللسانيات معنية فى الأساس بالبحث فى أنواع المعانى من طبيعية (أو انطباعية) إلى وظيفية إلى عقلية إلى اجتماعية إلى غير ذلك، وبالبحث فى وسائل الوصول إلى كل نوع من هذه الأنواع يستوى فى ذلك أن تكون وسيلة الوصول إلى المعنى من خلال الصوتيات أو الصرف أو النحو ومن خلال النص بظواهره المختلفة. ولما كانت اللغة كغيرها من موضوعات البحث لا يمكن تناولها إلا بواسطة التحليل الذى يضع عناصرها فى نظام هرمى ذى مستويات متدرجة، لكل منها مفاهيمه التى تختلف عن مفاهيم المستويات الأخرى التى تقع فوقه أو تحته، والتى يمهد الأسفل منها لفهم الأعلى، وجدنا اللغويين العرب يبنون فكرهم النحوى فى مستويات ثلاثة هى: الأصوات، والصرف، والنحو. وربطوا بين هذه الفروع الثلاثة وبين مبدأين رأوهما غاية مطلوبة للاستعمال العربى هما: طلب الخفة، وأمن اللبس. وجعلوا طلب الخفة غاية الصوتيات والصرف، ثم جعلوا أمن اللبس (أو الفائدة أو الإفادة كما يسمونه) غاية علم النحو. وهكذا يمكن تلخيص منهجهم فى أنهم جعلوا الصوتيات والصرف لدراسة المبانى، وجعلوا دراسة النحو للعلاقات السياقية سواء ما كان من هذه العلاقات ملفوظًا أم ملحوظًا.

كان عليهم أول الأمر أن يرصدوا المبانى اللغوية العربية التى تقوم بينها

العلاقات فى السياق فقسموا الكلم إلى اسم وفعل وحرف. ورأوا أن الاسم ما دل على مسمى، وأن الفعل ما دل على حدث وزمن، وأن الحرف ما ليس كذلك، ثم غيروا هذا التعريف السلبى للحرف فقالوا: الحرف ما دل على معنى فى غيره، ثم أضافوا إلى ذلك أن الحرف ما دل على معنى عام. وقالوا فى اللفظ المبنى للشبه المعنوى: إنه دل على معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف. هذه العبارة الأخيرة أضافت بعض الوضوح إلى المقصود بمعنى الحرف كما يظهر من النقاط التالية:

أ ـ الحرف يدل على معنى فى غيره (أى علاقة بين عنصرين ليس الحرف واحدًا منهما).

ب ـ هذا المعنى ليس دلالة على مسمى ولا على اقتران حدث وزمن.

ج ـ معنى الحرف عام يشار إليه بصيغ مصدرية مثل الظرفية والاستعلاء ومطلق الجمع والترتيب والتعقيب والشرط والنفى إلخ. وكلها معان عامة.

د ـ أما إذا كان الحرف له الصدارة فى الجملة كالحال فى أدوات الاستفهام والشرط والنفى إلخ، فإن الأداة تحدد معنى الجملة من جهة وتربط بين عناصرها من جهة أخرى وترهص بالجواب إن كانت الجملة من ذوات الجواب وقد تغنى الأداة عن ذكر الجملة عند وجود القرينة نحو قولك: وإلا فلا.

وتعد العلاقة ملفوظة إذا عبر عنها الحرف ونحوه، فإذا فهمت العلاقة بقرينة عقلية ولم تعتمد على اللفظ سميت فى عرف هذا البحث علاقة ملحوظة. ومن شأن العناصر اللفظية سواء ما كان منها اسمًا أو فعلاً أو حرفًا أن تقع من الجملة فى مواقع تكشف فيها عن المعانى النحوية التى سميناها العلاقات. ففى قولنا: الشمس طالعة شغل الاسم موقع المبتدأ وشغل الوصف موقع الخبر وعبرت المطابقة فى الإفراد والغيبة والتأنيث عن الربط بينهما ففهمنا أن الوصف مرتبط

بالاسم فى هذه الجملة وهذا هو المعنى النحوى. ولكننا لا نستطيع عند هذا الحد أن ننسب هذه الجملة إلى الحقيقة أو إلى المجاز. بل إننا عندما نسمع رجلاً يقول: "زرت صديقى فاختلفت معه فى أمر فغادرته غاضبًا" لا ندرى من الذى كان غاضبًا من الصديقين، ولا نستطيع أن نصل إلى المعنى المقصود من خلال إعراب هذا الكلام. وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤٨) لم ندر إلا بعد الإطلاع على السيرة النبوية الشريفة من الذى كان يؤذى الآخر. من هنا يلزمنا أن نقول إن من شأن السياق (سواء كان جملة واحدة أم عدة جمل) ألا يدل على معناه التام إلا بالاستعانة بقرائن من داخل النص وخارجه.

سبق منذ قليل أن أشرنا إلى أقسام الكلم فى عرف النحاة، وأود أن أشير الآن إلى أن هذا التقسيم كان موضع نقد فى كتابى: "اللغة العربية معناها ومبناها" (١٩٧٣)، وأننى قسمت الكلم بناءً على هذا النقد إلى سبعة أقسام يختلف كل منها عن بقيتها معنىً ومبنىً. ولقد وجدت أن الذى دفع النحاة إلى اختيار التقسيم الثلاثى أمورٌ ثلاثة نبهت إليها فى كتابى المذكور، وهى:

١ ـ قد ينقل اللفظ من القسم السباعى الذى هو منه إلى قسم آخر فيؤدى معنى هذا القسم.

٢ ـ قد يتعدد معنى اللفظ دون نقل أو بعد أن ينقل إلى قسم آخر.

٣ ـ قد يعاقب اللفظ لفظًا من قسم غير قسمه فينوب عنه أو يسد مسده أو يعوض عنه دون نقل.

وفيما يلى بيان كل إجراء من هذه الإجراءات:

١ ـ النقل:

أشار النحاة الأقدمون إلى ظاهرة النقل فى موضعين: العلم المنقول، والتمييز المحول عن الفاعل أو المفعول. ولم يعيروا انتباها لانتشار هذه

الظاهرة بين عناصر اللغة. فالنقل وثيق الصلة بالقواعد وبالمؤشرات الأسلوبية كما سنرى بعد قليل، وهو شائع فى حقل المبنيات والظروف المنقولة وفى المجاز اللغوى وأسماء الأعلام إلخ. فأما فى مجال أسماء الأعلام فحسبنا أن نقرأ قول ابن مالك:

ومنه منقول كفضل وأسد وذو ارتجال كسعاد وأدد

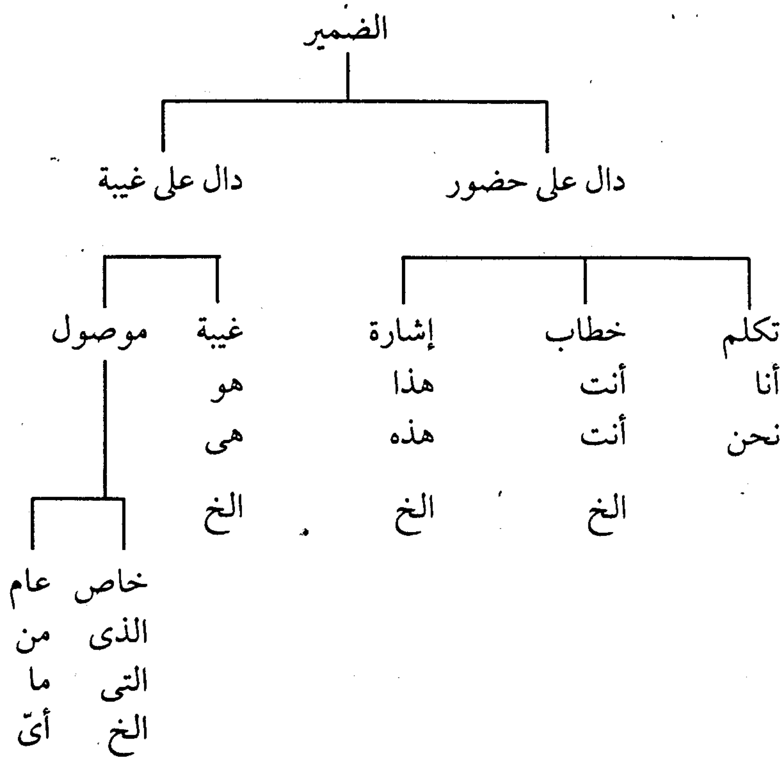
وأما المجاز فيكفى أن نقرأ تعريفه الذى ينص على أن المجاز "نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى". وأما بالنسبة إلى المبنيات فدعنا ننظر إلى قسم واحد من تقسيمنا السباعى للكلم وهو قسم الضمير. لقد كان من قبيل المصادفة بعد إجراء التقسيم السباعى أن وجدت لدى ابن مالك أيضًا ما يؤيده من قوله فى الألفية:

وما لذى غيبة أو حضور كأنت وهو سم بالضمير

فلما حاولت تطبيق هذا التعريف على قسم الضمير فى كتابى: "اللغة العربية ومعناها ومبناها" (١٩٧٣) وجدته يسمح بالوضع التالى:

كما أن من المبنيات قسمًا آخر من أقسام الكلم هو الظرف ويتمثل هذا القسم فى الظروف الأصلية وهى كما يلى:

ظرف زمان	ظرف مكان
إذ	أين
إذا	أنى
أيان	حيث
متى	
لما	



فأما الإشارة فقد تنقل من معناها الأصلى إلى كونها رابطة بين أجزاء النص السابقة كما فى:

* ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٦).

* ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

* ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١).

* ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ (ص: ٥٥).

* ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ (ق: ٢٢).

وقد تكون الإشارة إلى مضمون لاحق كما فى قوله تعالى:

* ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٨) أى فيما

يلي بيان للناس هو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩ وما بعدها) فالإشارة فى الشواهد الأولى تعود إلى متقدم لفظًا وفى الحالة الأخيرة تشبه ضمير الشأن فى العود إلى متأخر.

دعنا الآن نلق نظرة على نقل الضمير الموصول إلى وظائف أخرى ليست له فى الأصل، ولنأخذ أولاً "الذى" واستعمالها أداة مصدرية فى قوله جل شأنه ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ (التوبة: ٦٩) أى كما خاضوا، أى كخوضهم. وقد تنقل هى وفروعها إلى أن تكون شرطية فيقترن خبرها بالفاء كما لو كان الخبر جواب شرط. وفيما يلى شاهدان دلت فى أحدهما على الخبر المحض وفى الآخر على معنى الشرط فاقترن الخبر بالفاء، فمثال الأول الدال على الخبر المحض:

* ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٦٢) ومثال الثانى الدال على الشرط.

* ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) والأمر كذلك فى ال الموصولة وفى الذين واللائى إلخ نحو:

* ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء: ١٦).

* ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة: ٣٨).

* ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور: ٢).

* ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ (الطلاق: ٤) على فهم جملة "إن ارتبتم" على معنى الاعتراض.

والموصولات المشتركة (وهى من وما وأى) أوغل فى ظاهرة النقل من أخواتها السابقات، وذلك أصدق بالنسبة لـ "ما وأى" منه بالنسبة لـ "من" لأنهما يقبلان من

صور الإلصاق بعناصر أخرى أكثر مما تقبله "من" وبخاصة عندما تستعمل "ما" منقولة إلى معنى الشرط فلقد نجد أداة شرط تضم ما وأى فى صورة "أيما" كما فى قوله تعالى:

* ﴿ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ ﴾ (القصص: ٢٨).

كما نجد "ما" المنقولة إلى الشرط تتصل بالظروف لتضيف إلى معنى الشرط الذى لها ظلا من ظلال الظرفية. وذلك فى نحو إنما وحيثما وأينما إلخ كما فى قوله تعالى:

* ﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

* ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥)

فالشرط المعبر عنه بواسطة "ما" فى هذين الشاهدين جاء مقيدًا بالظرفية المكانية. والظرفية أيضًا تنتقل عن معانيها وينقل غيرها من العناصر إلى معناها. فمن نقل الظرف إلى معنى آخر غير الظرفية ما نراه من نقل "إذ" إلى المصدرية فى قوله تعالى:

* ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) أى بعد أن هديتنا. ونقلها إلى إفادة التعليل فى قوله جل شأنه:

* ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾ (الأحقاف: ١١) أى ولأنهم لم يهتدوا به، ونقلها إلى إفادة الاستفتاح فى قوله تعالى:

* ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: ٣٤) فالاستفتاح هنا أوجه من تقدير "اذكر" لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضرًا هذا القول حتى يطالب بتذكره. فالتقدير. ولقد خلقنا. ومن الظروف ما ينقل إلى الشرط والاستفهام مثل متى وأيّان وأنى كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء: ٥١).

* ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٣٧).

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ (النازعات: ٤٢).

أما ما ينقل إلى الظرفية من أقسام الكلم الأخرى فيشمل ما يلى:

١ ـ المصادر نحو: آتيك طلوع الشمس.

٢ ـ أسماء الزمان والمكان نحو: آتيك مطلع الشمس، وأقعد منك مقعد التلميذ.

٣ ـ بعض حروف الجر نحو: مذ ومنذ.

٤ ـ بعض ضمائر الإشارة نحو: هنا وثم والآن وأمس.

٥ ـ بعض الأسماء المبهمة التى لا يتحدد معناها إلا بوصف أو إضافة أو تمييز نحو أسماء المقادير والعدد والجهات والأوقات، ونحو: قبل وبعد ودون ولدن وبين وعند إلخ. وإذا كانت "ما" تدل كما سبق على الشرط عند اتصالها بالظروف الأصلية فإنها إذا اتصلت بالظروف المنقولة فإنها تدل على المصدرية دون الشرط كما فى: قبلما وبعدما ودونما وبينما وعندما إلخ.

وهكذا تعد ظاهرة النقل مددًا لتعدد المعنى كما سنرى بعد قليل.

٢ـ تعدد المعنى للمبنى الواحد:

العناصر التى تأذن بتعدد المعنى للمبنى الواحد هى: الحروف والأدوات والصيغ الصرفية والمفردات المعجمية وتراكيب الجمل. وقد يتعدد المعنى للمبنى الواحد والمبنى ما يزال فى قسمه من أقسام الكلم، أو يتعدد بانتقال المبنى من قسم إلى قسم آخر. مثال الحالة الأولى ما نراه مثلاً من تعدد معانى "من" الجارة دون أن يشاركها فى معانيها الأصلية حرف آخر فهى تستقل بإفادة التبعيض وابتداء

الغاية دون أن يشاركها فى ذلك حرف آخر فهذا المتعدد بحسب الأصل، ولكن لها معانى أخرى بحسب النقل منها البدلية التى تشارك فيها الباء، وتدل اللام بحسب الأصل على الملك وشبه الملك ولكنها تدل بالنقل على انتهاء الغاية والتعدية ومعنى عن والتعليل، وتدل الباء بحسب الأصل على الاستعانة والتعويض والإلصاق ولكنها تدل بالنقل على البديل والتعدية والظرفية والسببية والمعية والمجاوزة.

سبق أن ذكرنا أن "ما" بحسب التقسيم السباعى ضمير موصول كما فى قوله تعالى:

* ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). فهذا معناها بحسب الأصل، ولكنها تنقل إلى:

١ ـ النفى، نحو: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ (البقرة: ٩).

٢ ـ الاستفهام، نحو: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦).

٣ ـ التعجُّب، نحو: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ١٧٥).

٤ ـ التنكير، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ (البقرة: ٢٦).

٥ ـ الزيادة، نحو: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ (مريم: ٢٦).

٦ ـ الشرط، نحو: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

* ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

* ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤).

١ ـ المصدرية، نحو: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ (البقرة: ١٣).

* ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ (البقرة: ٦١).

* ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥).

فهذه المعانى فيما عدا المعنى الأصلى المذكور إنما جاءت عن طريق نقل الضمير إلى استعمال الأداة. أما تعدد معنى الصيغة الصرفية فمثاله دلالة صيغة فعيل على مسمى وعلى مصدر وعلى صفة مشبهة بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول كما يلى:

* ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج: ٢٣).

* ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ (الأنبياء: ١٠٢).

* ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

* ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ١٦٩).

لا يكاد المرء (عند نظره فى معانى مفردات المعجم) يظفر بكلمة مفردة ذات معنى واحد فقط وإنما يتعدد معنى المفردة فلا يتحدد إلا بمعونة السياق، ومن ثم حَرَص واضعو المعاجم على ذكر الشواهد لما ينسبونه إلى الكلمات من معان فإن لم يجدوا الشاهد جاءوا بالمثال لتكون بيئة الكلمة مبررًا لنسبة المعنى إليها. فإذا أخذنا الفعل "ضرب" ومشتقات مادته مثالاً نبين به صدق ما نقول وجدنا ما يلى:

١ ـ أدبَّ، نحو: ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء: ٣٤).

٢ ـ ذكر، نحو: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ (النحل: ١١٢).

٣ ـ أقام، نحو: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾ (الحديد: ١٣).

٤ ـ فرض، نحو: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا ﴾ (آل عمران: ١١٢).

٥ ـ مهد، نحو: ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ (طه: ٧٧).

٦ ـ صفع، نحو: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٧).

٧ ـ ركض، نحو: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١).

٨ ـ أرخى، نحو: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١).

٩ ـ نقر، نحو: ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ (البقرة: ٦٠).

١٠ ـ سعى، نحو: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

١١ ـ حجب، نحو: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ (الزخرف: ٥).

١٢ ـ عطّل، نحو: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (الكهف: ١١).

وهناك معان أخرى لمشتقات هذه المادة لم نجد لها شواهد من القرآن الكريم، ومنها:

١ ـ حسب، نحو: ضرب ٥ × ٦.

٢ ـ تحير، نحو: ضرب أخماسًا فى أسداس.

٣ ـ استعمل، نحو: ضرب الهاتف.

٤ ـ خلط، نحو: ضرب البيض فى اللبن.

وليست تراكيب الجمل بمنأى عن تعدد المعنى، فإذا سمعت من يقول "بارك الله لمحمد فى ماله وولده" فلن تجزم إلا بقرينة خارجية فيها إذا كان هذا التركيب خبرًا أو دعاء. وإذا سمعت من يقول "ما هذا"؟ فلن تميز بين الطلب والإنكار إلا بالنغمة فى الكلام. وهكذا يتعدد المبنى للمعنى الواحد إما بحسب الأصل وإما بالنقل.

٢ ـ المعاقبة:

المعاقبة حلول عنصر محل عنصر آخر فى موقع معين فالفرق بين المعاقبة والنقل ما يلى:

أ ـ معنى النقل يتعدد ومعنى المعاقبة واحد.

ب ـ النقل إجراء أسلوبى والمعاقبة إحراء قاعدى.

ج ـ النقل لا يرتبط بموقع معين والمعاقبة ترتبط بالموقع.

د ـ النقل تعدد المعنى للمبنى والمعاقبة تعدد المبنى للموقع.

ويلزمنا الآن أن نبين المقصود بظاهرة المعاقبة.

من القواعد الشهيرة فى عرف النحويين ما يلى:

١ ـ ينوب المفعول به عن الفاعل.

٢ ـ كل وبعض ينوبان عن المفعول المطلق.

٣ ـ حروف الجر ينوب بعضها عن بَعض.

٤ ـ الفاعل يسد مسد الخبر فى باب الابتداء.

٥ ـ الحال تسد مسد الخبر فى الباب نفسه.

٦ ـ أن وما بعدها تسد مسد مفعولى ظن أو علم.

٧ ـ "ترك" أغنى عن "ودع" فلم يرد "ودع" فى معجم اللغة.

٨ ـ قد يؤول الجامد بالمشتق.

٩ ـ قد يكون التنوين عوضًا عن محذوف.

١٠ ـ "يا" حلت فى النداء محل أدعُو.

١١ ـ من الأخبار ما يتقدم على المبتدأ وجوبًا أو جوازًا.

١٢ ـ الأصل فى الربط إعادة اللفظ، ويتم الربط بغير ذلك أيضًا.

١٣ ـ إذا وقع المقصور أو المنقوص فى موقع الصحيح الآخر قدرت العلامة الإعرابية عليهما.

١٤ ـ إذا وقع المبنى أو الجملة الفرعية موقع المفرد تعلق الإعراب بالمحل لا باللفظ.

وهكذا نجد النحاة يعبرون عن مفهوم المعاقبة بعبارات متعددة مثل:

النيابة ـ السداد مسد شيء ما ـ الإغناء عن شيء ما ـ التأويل ـ التعويض ـ الحلول محل عنصر ـ شغل الموقع المقرر بحسب الرتبة إلخ. ومن شواهد المعاقبة ما يلى:

* ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (طه: ١ ـ ٣).

لا يصح أن يعد ذلك من تعدد معنى إلا لأن السياق مختلف عما ترد فيه إلا، فهى هنا تأتى فى بداية جملة لأن الجملة السابقة انتهت بعبارة "لتشقى" وجاءت "إلا" لتعبر عن الاستدراك أى أنها عاقبت "لكن" ومن ذلك أيضًا:

﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١١). أى لكن إبليس لم يكن من الساجدين.

* ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ (التوبة: ٧) أى لكن الذين عاهدتم....

* ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود: ١٠ ـ ١١) أى لكن الذين صبروا.

* ﴿ خَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم: ٥٩ ـ ٦٠) أى لكن من تاب...

* ﴿ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الشعراء: ٢٢٦ ـ ٢٢٧) أى لكن الذين آمنوا لا يتبعهم الغاوون.

* ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴾ (الإنشقاق: ٢٤ ـ ٢٥) أى لكن الذين آمنوا لهم أجر غير ممنون.

* ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (الليل: ١٩ ـ ٢٠) أى لكن يؤتى ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى.

* ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين: ٥ ـ ٦).

وإذا كان الأصل فى معنى "إلا" هو الاستثناء وهو يتطلب أن يكون ثمة مستثنى منه مقدم على "إلا" فإن الملاحظ فى هذه الشواهد أن "إلا" جاءت فيها بعد تمام جملة سابقة وفى صدارة جملة لاحقة. وهذا الموضوع الذى حلت فيه يتنافى مع معناها الأصلى ويدعو للتفكير فى أداة أخرى تناسبه وسيجد المتأمل أن هذه الأداة هى "لكن" وأن "إلا" عاقبت "لكن".

وشبيه بذلك ما نلاحظه فى سياق النص القرآنى من معاقبة "بل" للفظ "إن" قبل الاسم والفعل المضارع وللفظ "قد" قبل الفعل الماضى. وفيما يلى بعض الشواهد على ذلك:

* ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٠) أى إن الله مولاكم.

* ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنعام: ٢٨) أى قد بدا لهم.

* ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: ١٦٦) أى إنكم قوم عادون.

* ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات: ١٢) أى قد عجبت وهم يسخرون.

* ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأعلى: ١٦) أى إنكم تؤثرون الحياة الدنيا.

فإذا كان المعنى الأصلى للفظ "بل" هو الإضراب فإن "بل" فى هذه الشواهد لم يسبقها قول يصلح للإضراب عنه وإنما جاءت لإفادة التأكيد.

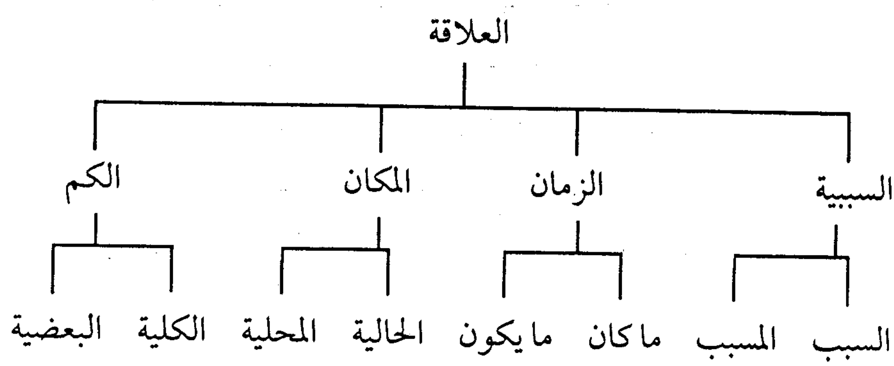
العلاقات الملحوظة:

لم يقصر دارسو التراث اللغوى العربى فى تأمل العلاقات الملحوظة سواء فى تناولهم للنحو أو للبلاغة. فَمِمَّا تداوله النحاة من العلاقات الملحوظة فكرة الأجوبة والمحل الإعرابى والحذف عند أمن اللبس والفروق الدلالية بين معانى الصيغة الواحدة كالتعرف على الصفة المشبهة بدلالتها على الدوام والثبوت، وعلى اسم الفاعل بدلالته على التجدد والانقطاع فالفرق بين لفظ قائم فى الجملتين الآتيتين يعود إلى ذلك فقط:

فلان قائم يصلى: اسم فاعل لأن الصلاة ستنتهى بعد قليل.

الله قائم على كل نفس بما كسبت: صفة مشبهة لأن قيامه سبحانه على النفوس لا ينقطع.

أما البلاغيون فحسبنا أن نلاحظ تفريقهم بين أسلوبين للتشبيه أحدهما ملفوظ يسمى التشبيه والثانى ملحوظ يسمى المشابـهة، واستعمال المشابهة فى فهم الاستعارة من حيث هى علاقة ملحوظة بين المعنى الأصلى والمعنى المجازى. كما لاحظوا علاقة اللزوم فى الكناية وفصلوا القول فى علاقات المجاز اللغوى على النحو التالى:



وتناولوا دلالات الفصل فى مقابل دلالات الوصل، واعترفوا بمفهومى الحال

والـمقام إلخ. وأمـا الأصوليون فقـد فرقوا بين مفهومى الـموافقة والـمخالفة وبين الفحوى والإشارة والاقتضاء والمعنى الضمنى وغير ذلك من المفاهيم التى تدل على أن التراث العربى نتاج عقول تستحق الإعجاب.

غير أن النحاة حبسوا جهودهم فى الـجملة الواحدة ولـم يتجاوزوها إلا إلى علاقتها بجارتها المباشرة سواء كانت هذه العلاقة إضرابًا أم استدراكًا أم عطفًا أم غير ذلك من العلاقات الـملفوظة، أى ذات الأدوات الدالة على هذه العلاقة. "وعند التأمل فى القرائن الـملحوظة (التى لـم تعبر عنها أداة ما) نراها تتراوح بين الوضوح ودقة الاستخراج وأن تكون عرضة للاحتمال فى بعض الـحالات إذ يتردد الـمرء فى نسبة موقع ما إلى هـذه العلاقـة أو تلك لأن كلاً من النسبتين مـمكنة حتى تقوم قرينة ما على أن إحـدى العلاقتين أولى بالاعتقاد من الأخـرى" (البيان فى روائع القـرآن (١ ـ ٤٠٤) انظر مثـلاً إلى قولـه تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٢). وسنرى أن العلاقات الـملفوظة هنا تقول: إن جـملة "ولا تـموتنَّ إلا وأنتم مسلمون" تدل بحسب تركيبها النحوى على النهى عن الـموت إلا فى حـال إسـلام، ولكن الـموت ليس من الأمـور التى ينهى عنها. عندئـذ نترك للنحاة أمـر التحليل اللفظى دون أن نعارضهم فى دلالة "لا" على النهى، ونلجأ إلى فهم الـجملة فى ظل دلالة السياق، فإذا تأملنا النص وجدناه يشتمل على جـملة: "اتقوا الله" بصيغة الأمر قبل عبارة "ولا تـموتن" فساغ لنا فى هذه الـحالة أن نصرف معنى "ولا تـموتن" إلى معنى الأمر أيضًا ونفهم الـمعنى بأنه: "وتـمسَّكوا بالإسلام حتى الـموت". أى أن الـمعنى العام هو: "اتقوا وتـمسَّكوا". هذا هو الـمقصود باحتمالات فهم العلاقة.

وسنحاول فيما يلى أن نعرض طائفة من هذه العلاقات الملحوظة بين عناصر النص القرآنى:

١ ـ علاقة السببية:

تعلمنا تجارب الحياة أن السبب يسبق المسبب دائمًا. أما الاستعمال اللغوى فيفرق بين السببية الملفوظة والسببية الملحوظة. فأما الملفوظة فقد يتقدم فيها السبب على المسبب فتكون الأداة هى فاء السببية نحو: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٣) وقد يتقدم المسبب على السبب فتكون الأداة هى لام التعليل نحو: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) فالشهادة على الناس سبب لجعل الأمة وسطًا وقد يتم ذلك بعبارات أخرى تذكر فيها حروف أخرى كالباء فى ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٢). أما العلاقة الملحوظة فتقوم بين مسبب سابق وسبب لاحق دائمًا كما سنرى فى الشواهد الآتية التى تعبر عنها فيها لام التعليل وتتضح علاقة السببية فى نص الآيات القرآنية التالية:

* ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٧).

قد يوجه النحاة هذا النص إحدى وجهتين:

أ ـ أن قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ جملة مستأنفة.

ب ـ أن هذا القول فى تقدير: "وقلنا كلوا..." وهذا التقدير أكثر شيوعًا لدى المفسرين. غير أن الأقرب إلى الفهم هنا هو علاقة السببية مع تقديم المسبب وتأخير السبب وهى رتبة تناسب لام التعليل" أى أنزلنا لتأكلوا من طيبات ما رزقناكم.

* ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة: ٧٠).

أى لأن البقر تشابه علينا.

* ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾

(البقرة: ١٢٥) أى لتتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومن لم يقتنع بقيام هذه العلاقة بين طرفيها فليعد بذاكرته إلى تأويل النهى بالأمر فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقد سبق ذلك منذ قليل. فليست العلاقة هنا وهناك مبنية على حذف الرابطة.

٢ ـ علاقة التفسير:

إذا كان التمييز النحوى كما يقول ابن مالك: "اسم بمعنى مِنْ مبين نكرة" فإن علاقة التفسير المقصودة هنا تشير إلى جملة فى النص تكشف عن المقصود بجملة سابقة أو عنصر سابق لا يشترط له أن يكون نكرة. وفيما يلى عدد من الشواهد على هذه العلاقة.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦).

لقد تساوى فى نص الآية الإنذار وعدمه فاحتاج المتلقى إلى فهم كنه هذا التساوى ومرجعه:

أ ـ أهو عدم المبالاة ؟

ب ـ أم هو الإصرار على موقف ما على رغم النتائج المحتملة؟

ج ـ أم عناد لا ينفع معه الإنذار؟

فلما جاءت جملة "لا يؤمنون" فسرت التسوية التى فى الجملة السابقة بأنها مجرد عناد.

* ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٧ ـ ٣٨).

* فقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ هو الكلمات التى تلقاها آدم من ربه.

* ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (البقرة: ٩٦).

* فتفسير حرصهم على الحياة أن أحدهم يود لو يعمَّر ألف سنة فهم أكثر حرصًا من الذين أشركوا.

* ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦). ففسر سبحانه مدى القرب بإمكان إجابة الدعوى (أى: قريب بحيث أجيب دعوة الداع إذا دعان).

* ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ١ ـ ٤). فالذى بعد لفظ "الصمد" من هذه السورة تفسير له.

٣ ـ علاقة التفصيل:

إنما يأتى التفصيل مقترنا بإجمال فيكون بمنزلة التعريف من التنكير إذ يجد المرء فى كل منهما دلالة، ولكن دلالة التفصيل كدلالة التعريف أكثر تحديدًا من قرينتها. وفيما يلى بعض الشواهد:

* ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فالإجمال فى هذه الآية جاء فى موضعين: الأول: المؤمنون.

والثانى ما أنزل إلى الرسول، فكان تفصيل الأول بقوله جل شأنه "كل آمن" وكان تفصيل الموضع الثانى بقوله تعالى: ﴿ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فكان التفصيل أوغل فى الفهم من الإجمال فى الموضعين.

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ

عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ (المائدة: ١ ـ ٣) فجاء الإجمال أولاً بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا القول يساوى فى أساليبنا الحاضرة عبارة: (إلا ما يلى) فكانت المحرمات هى:

الصيد مع الإحرام ـ الشعائر ـ انتهاك الشهر الحرام ـ التعرض للهدى والقلائد وحجَّاج البيت الحرام ـ والعدوان بسبب البغض والشنآن ـ وأكل الميتة ـ والدم ـ ولحم الخنزير ـ والقربان المقدم للأصنام ـ والمنخنقة والموقوذة والمتردية من أعلى والتى ماتت نطيحة وما افترسه السبع إلا عند تذكية هذه الخمس الأخيرة قبل الموت ـ ومباشرة الميسر.

وهكذا كان تفصيل عبارة: "ما يتلى عليكم" شاملاً ثمانية عشر أمرًا محرمًا، فلما كان هذا العدد كثيرًا جاءت الآية التالية إرهاصًا بما سيخطر بأذهان المخاطبين بهذا التحريم فكان التعبير عن هذا الإرهاص بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ أى سيقول لك المخاطبون ماذا تركت لنا بعد هذا التحريم؟

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ (الكهف: ٨٤ ـ ٨٦) فكان الإجمال أولاً بقوله: ﴿ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ ثم فصل تلك التلاوة وذلك بقصة استغرقت خمس عشرة آية من سورة الكهف.

٤ ـ علاقة الحوار:

* ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (البقرة: ٦٧ ـ ٦٨).

* ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (البقرة: ٢١٩).

* ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

٥ ـ علاقة الإضراب:

الإضراب إبطال كلام سابق يغلب أن يكون بالجمل الخبرية. ولكنه قد يكون بغيرها كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ومن شواهد علاقة الإضراب ما يلى:

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١١ ـ ١٢) أى بل هم مفسدون.

* ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣) أى بل هم السفهاء، وقد جاء الإضراب هنا عن مضمون جملة إنشائية هى: "أنؤمن كما أمن السفهاء"؟

* ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨٠ ـ ٨١) أى بل من كسب........ إلخ.

* ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ١١١ ـ ١١٢) أى بل من أسلم فله أجره عند ربه.

٦ ـ علاقة الإلزام:

يجرى التعبير عن هذه العلاقة فى الأغلب الأعم بعبارة: "تلك حدود الله" كما فى الشواهد التالية:

* ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

* ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٠).

* ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٢ ـ ١٣).

* ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة: ٤).

* ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ (الطلاق: ١).

ولكن الإلزام قد يأتى بواسطة عبارات أخرى كما فى قوله تعالى:

* ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء: ٢٣ ـ ٢٤) فقد جاء التعبير عن علاقة الإلزام بعبارة: "كتاب الله عليكم".

٧ ـ علاقة الالتزام:

يأتى تعبير النص القرآنى عن الالتزام باستعمال لفظين هما "بلاغ" و"وعد" وقد اجتمعا فى قوله تعالى:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم: ٤٧ ـ ٥٢) وجاء اللفظان معًا فى قوله تعالى:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤ ـ ١٠٦).

* وانفرد لفظ البلاغ بالذكر فى قوله تعالى:

* ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٤ ـ ٣٥).

وانفرد لفظ الوعد بالذكر فى معظم الأحوال مع اختلاف ما ينسب إلى الوعد من صفات وذلك على النحو التالى:

أ ـ الوعد حق:

* ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

* ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ (التوبة: ١١١).

* ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ (يونس: ٤).

* ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ (النحل: ٣٨).

* ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الكهف: ٢١).

* ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨).

* ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ (القصص: ١٣).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (فاطر: ٥).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: ٥٥).

* ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

* ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٧).

ب ـ الوعد وعد الصدق:

* ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٦).

ج ـ الوعد مسؤول:

* ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ (الفرقان: ١٦).

د ـ الوعد مأتي:

* ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم: ٦١).

هـ ـ الوعد وعد الله:

* ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

و ـ الوعد لا يخلف:

* ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

* ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الحج: ٤٧).

* ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦).

* ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (الزمر: ٢٠).

ز ـ الوعد غير مكذوب:

* ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (هود: ٦٥).

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى إذا ألزم عباده بما يفرضه عليهم من تكاليف التزم لهم بعقاب المذنب ومكافأة المحسنين.

٨ ـ علاقة الملابسة:

الملابسة اتفاق أمرين أو شركتهما فى المكان أو الزمان أو كليهما وهى العلاقة النحوية التى تقوم بين الفعل والحال فى نحو: "جاء زيد راكبًا" إذ يتفق المجئ والركوب فى المكان والزمان وإذا كان النحو بما يرصده للحال من الاشتقاق والإعراب والرتبة يجعل للحال علاقة ملحوظة فإن النص قد يجعل الملابسة بين عناصر السياق ملفوظة غير ملحوظة كما سنرى فيما يلى:

* ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (البقرة: ٦٠) فهناك علاقة ملابسة بين انفجار العيون والعلم بالمشارب ولو دخلت الواو قبل قد لكان لدينا جملة حالية بعلاقة ملفوظة.

* ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥) مجئ الكتاب ملابس لمجئ الرسول.

* ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ (يوسف: ٦٩) فالقول ملابس للإيواء وربما صلح تفسيرًا له فتكون العلاقة مع هذا الفهم علاقة تفسيرية.

٩ ـ علاقة الشرط:

هذه العلاقة حين تقوم بين عنصرين فى السياق النصى تجعل العنصر الثانى بمنزلة جواب الشرط للعنصر الأول وإن خلا العنصر الثانى من العلامات اللفظية الدالة على هذه العلاقة كما فى قوله تعالى:

* ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ١١٤).

أى: من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه لم يدخل هذه المساجد من بعد إلا خائفًا..... إلخ.

* ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام: ٤٦). أى إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فلن يعيده إليكم، غيره وهكذا وقع الاستفهام موقع الجواب.

* ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ (التوبة: ٥٢) أى إن كنتم لا تتربصون بنا إلا خيرًا فنحن نتربص بكم العذاب.

* ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٥ ـ ١٢٦) أى إن كان ذلك كذلك فقد استحققته بما فعلت.

* ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنبياء: ٥٣ ـ ٥٤) أى إن كانوا عبدوها فقد ضلوا كما ضللتم.

١٠ ـ علاقة الإنكار:

إذا كان الإضراب رفضًا لقول سابق فإن الإنكار قد يكون رفضًا لقول أو لعمل أو حدث. فمن إنكار القول ما نراه فى قوله تعالى:

* ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) أى كيف يصح أن يقولوا: إنما البيع مثل الربا ويخالفوا حدود الله؟

* ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ (المائدة: ٦٤) فقوله تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ جملتان دعائيتان لفظًا إنكاريتان معنى. أى كيف جاز لهم أن يقولوا هذا القول؟

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ (البقرة: ٨٤ ـ ٨٥). فقوله ثم أنتم هؤلاء إلخ إنكار لإخلافهم وعدم التزامهم بها واثقوا الله عليه بدليل قوله: ثم أقررتم. ثم جاء تأكيد هذا المعنى بعد ذلك بقوله: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض".

* ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢ ـ ٢٣) فقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ يحمل معنى الإنكار والتهديد فى وقت معًا لما فى موقفهم من التراجع عن العهد الذى قطعوه أمام الله سبحانه.

١١ ـ علاقة الموقف:

الموقف قالب النصوص، ولا تتم دلالة النص إلا برعاية الموقف. والمواقف أنواع لا يمكن إحصاؤها وإن أمكن وصف كل منها على حدة. ولقد تكلم النقاد العرب عن أنواع من المواقف سموها أغراض الشعر فخرجوا بمواقف الشعراء من طابع الوقائع إلى طابع الأفكار المجردة. أى أنهم وضعوا كل وقائع المدح ضمن فكرة مجردة واحدة هى غرض المدح وكذلك فعلوا بالهجاء والرثاء والغزل إلخ. هذا هو تنظير النقد. أما عند تناول النص من أى نوع فقد كانوا فى الغالب يذكرون الملابسات التى أحاطت بإنتاج النص، وهذه الملابسات هى عناصر الموقف. والذى يتأمل بعض المواقف التى يوردها النص القرآنى سوف يلمح لها سمات خاصة يكشف عنها سياق النص. من هذه السمات ما نلاحظه من أن النص إذا كان له طابع الانفعال كانت الجمل قصيرة منفصلة بعضها عن بعض فليس بين الجملة وأختها رابطة لفظية من أى نوع. وهكذا تصبح العلاقة بين جمل النص ملحوظة لا ملفوظة. من ذلك قوله تعالى:

* ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٥). فالفصل بين الجمل هنا جاء نتيجة لغضب الله على الذين دعوا إلى الإسلام فأعرضوا وأصروا على التمسك بدين آبائهم وذلك ما ترويه الآية التى تسبق الشاهد المذكور، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٤).

* ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ

تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴾ (المائدة: ١١٦ ـ ١١٧). فالفصل هنا أوضح دليل على خوف عيسى من غضب الله.

* ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴾ (القصص: ٦٢ ـ ٦٣). وفى الفصل دليل على فزع الذين حق عليهم القول. وفى غضب الله على المشركين ساق إليهم عددًا من الأسئلة الإنكارية التى تندد بدعاواهم وكل سؤال من هذه الأسئلة يأتى فى جملة قصيرة يليها أحيانًا جواب أقصر كما يلى:

* ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (الطور: ٢٩ ـ ٤٣).

ثم تأمل فزع الملائكة عند سماع سؤال وجهه سبحانه إليهم:

* ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠ ـ ٤١).

١٢ ـ علاقة التناص:

من العبارات المشهورة لدى مفسرى النص القرآنى الكريم قولهم: "القرآن يفسر بعضه بعضًا" وقد رأينا صدق هذه العبارة حين عرضنا منذ قليل ما سميناه العلاقة التفسيرية بين جملة وأخرى فى سياق النص القرآنى. غير أن الدرس الحديث للجانب الاستعمالى للغة، لم يقنع بالنظر فى علاقة الجملة بالجملة، وإنما تجاوزها إلى علاقة النص بالنص، فرأينا المفسرين يضعون العبارة السابقة موضع التنفيذ مع ظهور كتب تفسر القرآن بالقرآن، ومنها كتاب "أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن" لمحمد الأمين الشنقيطى وهو يقع فى تسعة أجزاء. غير أننى لم أجد فى أى من تفاسير القرآن ما أطمئن إليه فى فهم آيات من سورة يس (١٣ ـ ٢٧) نصها كما يلى:

* ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى
فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس: ١٣ ـ ٢٧).

فهناك: مرسل ورسل ثلاثة وقرية أرسل إليها الرسل الثلاثة ثم هناك إبلاغ

للرسالة وتكذيب وتطير بالرسل وتهديد بالرجم والعذاب وأخيرًا يأتى الدور الخاص الذى قام بأدائه الرسول الثالث الذى عزز الله به جهد الرسولين الأولين:

فماذا قال المفسرون وكادوا يجمعون على ما قالوا؟! الإجابة على ذلك ما يلى:

أ ـ القرطبى ١٥/ ٤: هذه القرية هى أنطاكية فى قول جميع المفسرين ما عدا الماوردى والمرسلون أرسلهم عيسى بأمر الرب وهم صادق وصدوق وشلوم وهذا الأخير هو الثالث.

ب ـ البحر المحيط لأبى حيان ٧/ ٣٢٦: القرية أنطاكية فلا خلاف حول القصة وهم ثلاثة جمعهم فى المجئ وإن اختلفوا فى زمن المجيئ وأسماؤهم صادق وصدوق وشمعون.

ج ـ النسفى ٤/ ٤: القرية أنطاكية والرسل أرسلهم عيسى إلى أهلها والاثنان الأولان هما صادق وصدوق والثالث شمعون.

د ـ الشنقيطى: لم يتعرض للقصة بتاتًا مع أن نصوصًا أخرى فى القرآن تعين على تفسيرها وهو يقول إن كتابه يوضح القرآن بالقرآن.

نحن نؤكد ثقتنا فى أن القرآن يفسر بعضه بعضًا وأن ما كشف عنه البحث اللغوى الحديث من مفهوم التناص يؤيد صدق تفسير القرآن بالقرآن وأن من حقنا بل من واجبنا أن نطيل التأمل فى النص القرآنى للعثور على ما يعزز هذه الثقة فى أن تفسير القرآن بالقرآن يعين على الكشف عن نصوص قرآنية يمكن أن تلقى ضوءًا كاشفًا على المقصود بالآيات المذكورة من سورة يس.

دعنا أولاً ننظر إلى موقف المفسرين فى تناولهم للمفاهيم التى أشار إليها النص وليكن المرسل أول هذه المفاهيم. يقول الله تعالى: "إذ أرسلنا إليهم

اثنين" فيسند الإرسال إلى ذاته سبحانه ولكن المفسرين يسندون الإرسال إلى عيسى عليه السلام وإن لم يرد له ذكر في سياق هذا النص. وكأن بعضهم كالقرطبي مثلاً أحس بهذه المفارقة فأضاف إلى إسناد الإرسال إلى عيسى أنه كان بأمر الرب. أما المرسلون فأسماؤهم عربية بالنسبة لاثنين منهم وعبرانية بالنسبة للثالث. ولا أدرى ما إذا كان الاثنان عربيين في رأى المفسرين أو أن اليهود كانوا يطلقون على أبنائهم أسماء عربية. فإذا نظرنا إلى القرية التي كانت غاية الإرسال وجدناها "أنطاكية" ولم يذكر المفسرون سندًا تاريخيًا يؤيد اختيارهم لهذه القرية. وكان من المهم أن يقوم شاهد تاريخى على إبلاغ الرسالة إلى أهل هذه القرية وإلى تكذيبهم للرسل وتطيرهم بهم وتهديدهم بالرجم تارة والعذاب تارة أخرى وكان على المفسرين أخيرًا أن يوضحوا لنا كيف كان جهد الرسول الثالث مؤيدًا للرسولين الأول والثانى. ذلك هو موقف الضعف فيما يقول به المفسرون.

ترد قصة موسى عليه السلام في عدد من سور القرآن الكريم ومن هذه السور: الأعراف ـ طه ـ المؤمنون ـ الشعراء ـ القصص ـ غافر ـ الدخان وسور أخرى. وليس القرآن كتاب قصص فإذا ورد شيء من القصص فيه فإنما يأتى للعبرة أو للدلالة على صدق الرسول الأمى الذى لم يقرأ ذلك في كتاب ولم يتلقه عن معلم. حتى قصة يوسف التي جاءت مكتملة العناصر القصصية إنما جاءت لتكون دليلاً على صدق الرسول. يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٢). أى أنك يا محمد تخبر بصدق ودقة عن أمر من المكر والمكيدة لم تره بنفسك وإنما جاءك عن طريق الوحى فينبغى لقومك أن يفهموا ذلك ويصدقوا رسالتك. يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) ولكن القرآن يؤيد بعضه بعضًا فلا اختلاف فيه. والدليل على ذلك أن مبدأ التناص بين آياته يشهد على التأييد لا على التفنيد. والدليل على ذلك ما بين آيات سورة (يس:

١٣ ـ ٢٧) وبين ما ورد عن قصة موسى فى السور الأخرى التى ذكرناها منذ قليل.
وفيما يلى تفسير لهذه الآيات فى ضوء ما بينها وبين السور الأخرى من علاقة التناص:

* "واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية".

هى مصر بدليل ما يأتى بعد ذلك.

* "إذ جاءها المرسلون".

هم ثلاثة: موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

* "إذ أرسلنا إليهم اثنين".

قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى ﴾ (طه: ٤٢).

* "فعززنا بثالث".

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ (غافر: ٢٨).

* ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس: ٢٠).

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (القصص: ٢٠).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ (غافر: ٣٠).

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ (غافر: ٣٤).

* "إنا إليكم مرسلون".

قال تعالى: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٦).

* "ما أنتم إلا بشر مثلنا".

قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ (المؤمنون: ٤٧).

* "إن أنتم إلا تكذبون".

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴾ (المؤمنون: ٤٨).

* "قالوا إنا تطيرنا بكم".

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف: ١٣١).

* "لئن لم تنتهوا لنرجمنكم".

قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾ (الدخان: ٢٠).

* "وليمسنكم منا عذاب أليم".

قال تعالى: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩).

تلك هى علاقة التناص بين قصة "أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" وبين الإشارات القرآنية الدالة على أن المقصود بآيات (يس: ١٣ ـ ٢٧) هو موسى وهارون والرجل المؤمن من آل فرعون.

أدلة من القرآن الكريم

١ ـ صوت الطاء العربية.

إذا اطلعت على ما يكتبه المحدثون فى وصف صوت الطاء وجدتهم يرونه مهموساً، ومن ثم يربطونه بصوت التاء إذ يرون كليهما مهموساً ولا يفرق بين هذين الصوتين إلا تفخيم الطاء وترقيق التاء (اللغة العربية ـ معناها ومبناها ٥٦). أما إذا قرأت آراء الأقدمين من علماء التراث فسوف ترى الطاء فى إطار نظرى آخر. يقول ابن جنى شارحا رأى الأقدمين وأولهم سيبويه: "أعلم أن الطاء حرف مجهور مستعل يكون أصلا وبدلا ولا يكون زائدا. فإذا كان أصلا وقع فاء وعينا ولاما، فالفاء نحو طبّل وطحن، والعين نحو فطر وحطب، واللام نحو قرط وفرط" (سر صناعة الإعراب ١ ـ ٢٢٣).

وكل من المحدثين والقدماء معنى بما سمع، ويشهد الكثير من كتب التراث باقتناع الأقدمين بما لاحظوا إذ يقرر هؤلاء أنك لو رققت الطاء لصارت الطاء دالا (أى مرققة مجهورة) ولو فخمت الدال لتحولت إلى طاء. وفى القرآن الكريم ما يشهد بصدق هذه الدعوى، وذلك هو الفرق بين تفخيم الطاء وترقيقها بحسب المعنى المراد فى قوله تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها" على معنى الإخبار وترقيق الدال فى "دحاها" وقوله سبحانه: "والأرض وما طحاها" على معنى التأكيد بالقسم بتفخيم "الطاء" فى كلمة "طحاها". فهنا تبين من المقارنة أن الطاء والدال يأتيان خِلْفه (أى بالتناوب) حسب المعنى المراد، وأن الفرق بينهما يتضح من ناحية الترقيق والتفخيم.

إذا تأملنا دلالة هذه المقابلة بين ترقيق الدال وتفخيم الطاء فهمنا منها أن الطاء العربية من حيث الأداء النطقى تشبه الضاد المستعملة فى اللهجة المصرية فى الوقت الحاضر، وكان علينا فى تلك الحالة أن نبحث عن تفسير آخر لما نعرفه الآن من صوت لآخر غيره نعرفه الآن فى لهجتنا الحديثة باسم الطاء وهو أشبه ما يكون بالتاء المفخمة لا بالضاد المذكورة منذ قليل. هذا الصوت الذى يشبه التاء المفخمة يشبه ما أشار إليه ابن مالك يدل به على صورة تاء الافتعال ترد بعد أحد الأصوات المطبقة وذلك فى قوله:

طا تا افتعـال رد إثـــر مطبـق فى أدّان وازدد وادّكر دالا بقى

وسوف تجد فيه ما يلى:

١ ـ يشير بقوله "دالا بقى" إلى التفسير السابق للعلاقة بين الطاء والدال.

٢ ـ ويشير بقوله: "طاتا افتعال رد إثر مطبق"، إلى أن صوت التاء فى صيغة الافتعال يتحول من الترقيق إلى التفخيم ليصير طاء مطبقة.

٣ ـ نصل من كل ما سبق إلى أن الطاء فى النطق العربى القديم كانت تنطق دالا مفخمة، إلا أن يسبقها حرف إطباق (وهو الصاد أو الضاد أو الطاء؛ وأما مع سبق الظاء فقد يتحقق لها ذلك نحو "اظطلم" وقد تقلب الطاء إلى الصوت من جنس ما قبلها وتدغم فى الظاء التى سبقتها، فيقال "اظَّلم" بتشديد الإدغام.

٤ ـ أما فى النطق الحديث (فى اللهجات العامية) فالطاء تأتى على صورة تاء مفخمة دائماً، ولا سيما عند تعريب الألفاظ الأجنبية نحو إيطاليا وطوبوغرافيا واسطرلاب الخ.

ويشبه ذلك ما نقرؤه فى سورة البقرة من اختلاف الترقيق والتفخيم بين السين والصاد فى موقع عين الكلمة من مادة (ب س ط) بسبب كون السين مفردة ساكنة وكون الكلمة مصدراً لا يتسم ببذل الجهد فى ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً ﴾ (٢٤٧) وكونها فعلا علاجيا فى ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ (٢٤٥) بضم الصاد.

وانظر كذلك إلى حذف التاء فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وذكرها فى قوله جل شأنه: ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف ٩٧). وذلك للإشارة لفرق الجهد بين مجرد الصعود على السد وبين خرقه.

وقد تحسن الإشارة فى هذا المقام إلى أخت الطاء وهى الظاء حين تجاور التاء إذ ترد التاء مكررة كما فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذر عن النبى فيما يرويه صلى الله عليه وسلم عن ربه إذ يقول: يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظَّالموا..."

(صحيح مسلم ج ١٠ ص ٨) فيمكن بمعايير اللغة العربية أن ينطق على النحو التالى:

- بحذف إحدى التاءين كما فى الرواية،
- بإدغام التاء الثانية فى الظاء طلبا للتخفيف،

أما عن استصحاب التاءين قبل الظاء فتحول دونه قاعدة كراهية التوالى لأن مخرج الظاء يكاد يتفق مع مخرج التاء، وفى ذلك ثقل فى النطق.

٢ ـ قبلة (اسم هيئة) = متقابلة (وجها لوجه).

يقول الله سبحانه وتعالى (فى سورة يونس ٨٣): ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ معنى هذا أن عبارة "قوم موسى" لا تنطبق على جميع من كان بمصر من بنى إسرائيل، وإن كان موسى قد جاء لإخراجهم جميعاً. فالعدد المقصود منهم كان محدودا ومتفرقا من حيث المسكن. فلما أراد الله سبحانه لموسى أن يخرج المؤمنين من بنى إسرائيل من مصر قضت حكمته تعالى أن يأمر موسى بجمعهم فى موقع واحد يبدو أنه كان على الشاطئ الشرقى للنيل، فلا يحول حائل كماء النيل مثلا بينهم وبين الأرض الموعودة. وفى ذلك يقول سبحانه (يونس ٨٧): ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أى اجعلوا

بيوتكم متقابلة بحيث يسهل جمعكم عند إرادة الهرب. ولعل ذلك كان أول صورة من صور (حارة اليهود). وقد ارشد سبحانه موسى بقوله "وأقيموا الصلاة" إلى مباشرة الدعاء أن يحميهم جل شأنه من بأس فرعون، لأن نزول الشريعة اليهودية وما اشتمل عليه من نزول الألواح لم يكن واقعاً عندئذ.

٣ - الانتساب فى عرف اليهود.

يحدث أحياناً أن يأتى رجل مهاجر إلى إسرائيل على أمل أن يصبح مواطتنا من أهلها، فإذا سئل من أبوه ومن أمه. فإذا قال إن أباه كان يهودياً ولم تكن أمه يهودية، وإنما كانت تنتمى إلى قوم آخرين من غير اليهود رفض طلبه الانتماء إلى المجتمع اليهودى ولم يقبل أن يسجل بوصفه من بنى إسرائيل. أما إذا كان العكس فانتسب إلى أم يهودية جاءت به من أب غير يهودى فسوف يستقبل على الرحب والسعة. ولقد يبدو ذلك غريباً على الفهم الإسلامى الذى يعتد بما قاله القرآن الكريم فى شأن الانتساب إلى الأبوين من قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ (الأنعام ٩٨). ولقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى فهم المستقر والمستودع، ولكنى أرى الاستقرار فى اللغة يشير إلى أجل أطول من أجل الإيداع. وأن الله سبحانه بدأ الخلق من نفس واحدة هى نفس آدم عليه السلام ثم جعله فى عقبه، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (الأعراف ١٧٢). فانتقل أمر الذرية من ظهر آدم إلى ظهور ذريته واستقر الأمر على التوارث إلى يوم الدين. أما بالنسبة للمستودع فهو رحم الأم الذى لا يبقى الحمل فيه أكثر من تسعة أشهر، ثم يولد الجنين. فالمستقر ظهر الأب بالإرث من آدم إلى ما شاء الله والمستودع رحم الأم. ولقد درجت الثقافات جميعاً على نسبة الابن إلى أبيه ولم تشذ عن ذلك إلا قلة نادرة تنسبه إلى أمه كما ذكرنا منذ قليل بالنسبة لليهود.

من هنا نجد هارون يقول لموسى حين شد عليه فى غضبه: ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (طه ٩٤). فلو أن هارون كان ينتمى إلى ثقافة أخرى فلربما قال لموسى: يا أخى أو يا بن

أبى أو يا شقيقى.. الخ ولكن هارون نسب موسى إلى أمه التى تجمع بينهما بحسب الثقافة اليهودية.

٤ ـ من مدين إلى الطور فى الشتاء.

من الأمور المألوفة أن يطلب الناس الهواء الرطب فى الصيف وأن يطلبوا الدفء فى الشتاء. وفى قصة موسى والشيخ الكبير رضى موسى أن يكون أجيراً فى خدمة هذا الشيخ وأن يظل فى موقع الأجير ثمانى سنوات أو عشرا ثم يكون حرا بعد ذلك. وقد انقضى هذا الأجل فقرر موسى أن يتحرر فسار بأهله متجها إلى الطور. ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (النمل ٧). والمعروف أن الاصطلاء معناه طلب الدفء فى الشتاء. فالمعنى الذى يفهم بكلمة "تصطلون" أن رحلة موسى من مدين إلى الطور كانت فى فصل الشتاء.

٥ ـ العزيز رب يوسف.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف ٢٤)، وقال جل شأنه: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ (يوسف ٢٥). والمقصود بسيدها هو زوجها (العزيز). دخل العزيز إلى بيته فصادف موقفاً يستعصى على الفهم، فبدأ بممارسة السبر والتقسيم كما يلى:

"إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم". ثم رأى الملك رؤياه ذات البقرات السبع، وفسرها يوسف لزميله فى السجن قبل الإفراج عنه فأخبر هذا الساقى سيده الملك عن هذا التفسير وعمن فسره. "وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك (أى الملك) فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهم إن ربى بكيدهن عظيم". مشيرا بذلك إلى قول العزيز لامرأته: "إن كيدكن عظيم". فالعزيز هو المقصود بلفظ الرب فى هذه الآية. وكذلك سمى الملك ربًّا.

٦ ـ تطويع اللفظ:

من أشهر ما فى بنية النظام اللغوى ما يعرف باسم "أقسام الكلم". واللغة العربية لغة متصرفة، تجعل لكل قسم من أقسام الكلم تقلباته الصرفية الخاصة. وهذه الخاصية تحول بين الاسم وبين الدخول فى جدول تصريف الفعل إلا فى ظروف أسلوبية خاصة. والمعروف أن كلمة "السبت" تدل على أحد أيام الأسبوع. وليس من شأنه أن يصاغ منه فعل. ولكن الأسلوب القرآنى صاغ منه فعلا مضارعاً فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (الأعراف ١٦٣). والذى أعان على ذلك أن صيغة (فعل) بفتح فسكون مما تشترك فيه المصادر والأسماء الصريحة، فيقال مثلاً: ضرب كما يقال ذقن (كلاهما بفتح فسكون) ومن ثم جاء صوغ الفعل على مثال "يضربون". وليس فى أسماء باقى الأيام ما يسمح بذلك.

استعمال "هؤلاء" لإرادة الانتقاص

يدل لفظ هؤلاء في القرآن الكريم على العزوف عن ذكر المشار إليهم لعدم الرضا عنهم.

وذلك كما يلي:

١ـ ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة ٣١).

٢ـ ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة ٨٥)

٣ـ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ (آل عمران ٦٦).

٤ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ (آل عمران ١١٩).

٥ـ ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ (النساء ٥١).

٦ـ ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء ٧٨).

٧ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (النساء ١٠٩).

٨ـ ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النساء ١٤٣).

٩ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ ﴾ (المائدة ٥٣).

١٠ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾ (الأنعام ٥٣).

١١ ـ ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩).

١٢ ـ ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ (يونس ١٨).

١٣ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ ﴾ (هود ١٨).

١٤ ـ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ (هود ٧٨).

١٥ ـ ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ ﴾ (هود ١٠٩).

١٦ ـ ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾ (الحجر ٦٦).

١٧ ـ ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨).

١٨ ـ ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ (الحجر ٧١).

١٩ ـ ﴿ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (النحل ٨٩).

٢٠ ـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ ﴾ (الكهف ١٥).

٢١ ـ ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ ﴾ (الأنبياء ٤٤).

٢٢ ـ ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء ٦٥).

٢٣ ـ ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٩).

٢٤ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ (الفرقان ١٧).

٢٥ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ (الشعراء ٥٤ ـ ٥٥).

٢٦ ـ ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ (ص ١٥).

٢٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ (الزمر ٥١).

٢٨ ـ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف ٨٨).

٢٩ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ (الدخان ٣٤ ـ ٣٥).

٣٠ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ ﴾ (محمد ٣٨).

٣١ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٧).

٣٢ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ (المطففين ٣٢ ـ ٣٣).

الإشارة فى القرآن الكريم
إلى ما سبق وما يلى من الكلام

لأسلوب القرآن الكريم طرق متعددة عند الإشارة إلى ما سيأتى من الكلام وما مضى من ألفاظ يسهل تأويلها بعبارتى ما يلى وما سبق. وسنسوق بعض الشواهد على هذه الظاهرة بقوله تعالى:

١ ـ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٧ ـ ٣٨) فالكلمات هى قلنا اهبطوا... الخ.

٢ ـ ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ﴾ (البقرة ١٢٤) أى ابتلاه بما يلى كان من مشيئة. فإضافة اسم الفاعل تجعله يدل على ما مضى.(أى سأجعلك)

٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران ٥٨ ـ ٥٩). أى نتلو عليك ما يلى من آيات الذكر الحكيم.

٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ .. الخ﴾ (المائدة ١ ـ ٣). وقد بلغ عدد ما حرمه الله فى هذا النص ثمانية عشر محرَّما حتى بدا أنهم استكثروا ذلك فسألوا ماذا

بقى لهم بعد كل هذا التحريم؟! فجاءهم الجواب: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ (المائدة ٤).

٥ ـ ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ..الخ﴾ (الحج ٣٠).

أى إلا ما يلى من عبادة الأوثان وقول الزور.

٦ ـ ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ...الخ﴾ (النحل ٦٨). هنا يلزم تقدير عبارة (ما يلى) لأنها تفهم من السياق، و (أن) التى فى "أن اتخذى" تؤول مع ما بعدها بمصدر مفسر للقول الذى يطلبه الفعل (أوحى). ومثلها الشاهد التالى:

٧ ـ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ...الخ﴾ (النحل ١٢٣). أى أوحينا إليك ما يلى.

والفعل (أوحى) هنا أيضا يتضمن معنى القول دون حروفه فيتطلب مقولا للقول على غرار ما سبق. وسيكون هذا الفعل طالبا لمقول القول فى كل مرة يجرى استعماله على هذا النحو.

٨ ـ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... الخ﴾.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ﴾ (الأحزاب ٢). أى اتبع ما يلى.

٩ ـ ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ (طه ١٣ ـ ١٤).

أى فاستمع لما يلى:

١٠ ـ ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (طه ٣٨ ـ ٣٩). أن وما بعدها فى تأويل مقول القول بعد (أوحينا). أى أوحينا ما يلى.

١١ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ (طه ٧٧). أن وما بعدها فى تأويل مقول القول. أى أوحينا ما يلى.

١٣ ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ..الخ﴾.

﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ (الأعراف ١٦٠) كسابقه.

١٤ ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ (القصص ٧). كسابقه.

١٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الزمر ٦٥).

أى أوحينا ما يلى.

هذا شأن الإشارة إلى ما يلى من الكلام. أما الإشارة إلى ما سبق القول فى شأنه فللقرآن فيه طريقة أخرى تقوم على توظيف أسماء الإشارة، إما مع ذكر المشار إليه أو بدونه، ويغلب فى هذا النوع من الأسلوب أن يكون لسوق الدلالة على صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك قوله تعالى:

١ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة ٢٥٢). وقد جاءت هذه الآية بعد إيراد قصة طالوت وجالوت وما فعله داود عليه السلام.

٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف ١٠٢).

٣ - ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود ١٠٠).

٤ - ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ (طه ٩٩).

٥ - ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ (محمد ٤).

ومن غير الغالب أن يأتى التذكير بما مضى دون استعمال الإشارة، وذلك كما يلى:

١ - ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ١٢٠).

٢ - ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (القصص ٤٤).

٣ - ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص ٤٦).

وهكذا يشهد القرآن الكريم بأن عدم مشاهدة النبى صلى الله عليه وسلم فيما وقع من هذه الأحداث المشار إليها ثم يكتف بنفى المشاهدة المباشرة وإنما ينفى عنه إمكان مباشرة القراءة بقوله تعالى:

٤ - ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ٤٨).

تعرفهم بسيماهم

يمكن الوصول إلى المعنى بواسطة إحدى جارحتين: السمع أو البصر، وقد تجتمعان فيوصل إلى المعنى بهما معاً. فأما السمع فهو وسيلة استقبال اللغة المنطوقة، وأما البصر فوسيلة إدراك اللغة المرئية، وأما هما معا فوسيلة الاستعمال اللغوى المعتاد. ولقد حظيت اللغة المنطوقة على مر العصور بعناية الدرس والتعليم والتعلم، وبدءاً بالأصوات المفردة إلى الصيغ المفردة إلى الألفاظ المفردة إلى التراكيب اللفظية ثم إلى النصوص التامة، مع العناية فى كل خطوة بالنظر فى المعنى وظيفياً كان أم معجمياً أم دلالياً. ولم يشغل الدارسون أنفسهم باللغة المرئية إلا عند اشتغالهم بدراسة النصوص وما يتطلبه الوصول إلى فهم معانيها من النظر فى القرائن التداولية التى تخضع للإدراك البصرى. ومن هذه القرائن التداولية ما جاء فى القرآن الكريم من ذكر "السيما" (أى العلامة) فى عدة مواضع على النحو التالى:

١ ـ ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة ٢٧٣).

٢ ـ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ (الأعراف ٤٦).

٣ ـ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ (الأعراف ٤٨).

٤ ـ ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ (محمد ٣٠).

٥ ـ ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الفتح ٢٩).

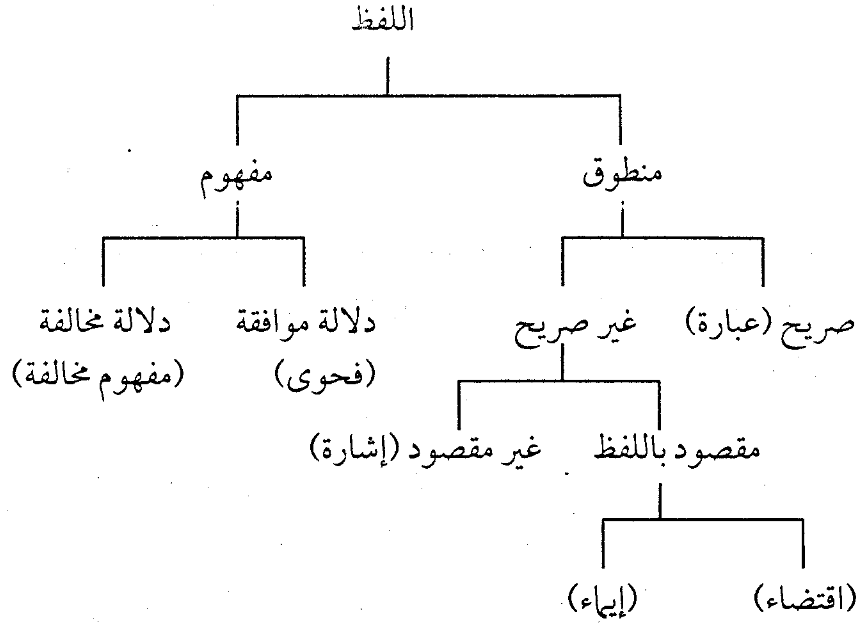
٦ ـ يقول الله تعالى عن يوم الحساب: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ فيميل القارئ إلى معرفة السبب فى الامتناع عن سؤال المذنبين فى يوم الحساب عن ذنوبهم فتأتى الإجابة صريحة ومباشرة بقوله تعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ (الرحمن ٣٩ ـ ٤١).

أى أن "السيما" (وهى العلامة) وما تفيده من دلالة تترك فرصة للأسئلة فأغنت لغة البصر عن لغة السمع.

وللبلاغيين وعلماء أصول الفقه فى تراثنا العربى وقفات قريبة الشبه بما تقدم من الشواهد القرآنية. ذلك بأن مفهوم اللفظ على إطلاقه يختلف عن مدلول اللفظ المنطوق بذاته لأن اللفظ على إطلاقه يصلح للدلالة على واحد من عدد من المعانى كما يظهر فى العرض المعجمى. أما اللفظ الذى يرد فى بيئة السياق فإن من شأنه أن يدل على معنى بعينه اتضح من خلال القرائن. ومن القرائن التى تعد من قبيل "السيما" فى عرف البلاغيين قرينة المقام بدلالاتها التداولية التى تصير القرينة بها علامة على شئ معين. ولكن البلاغيين لم يقفوا عند دلالة المقام وإنما جاوزوها إلى دلالة اللفظ المراد فخرجوا بالفكرة عن مفهوم السيما إلى مفاهيم أخرى كالمجاز ولازم المعنى وغير ذلك.

وكذلك كان علماء أصول الفقه فقد نظروا إلى هذا الأمر من خلال ما يقصد باللفظ لا من خلال المقام، أى أنهم عالجوا القضية علاجاً ذاتياً لا موضوعياً.

وفيما يلى عرض تخطيطى لرأيهم فى هذه القضية:



لقد رأينا فيما تقدم من الشواهد القرآنية أن السيما فى كل الحالات علامة مرئية يدركها البصر. فهى فى الشاهد الأول أنهم لا يسألون الناس إلحاف وفى الثانى أن أصحاب الأعراف "يعرفون كلا بسيماهم" "لا بما يقولون، والأمر كذلك بالنسبة للشاهد الثالث والرابع، وأما فى الشاهد الخامس فالعلامات ترى على الوجوه، وفى السادس نفى صريح لسؤال المجرمين وإثبات لكون المجرمين يعرفون بسيماهم. بذلك يمكن أن نقول إن السيما (كما يعرضها القرآن الكريم) هى علامة مرئية.

* * *

تنبهت الدراسات اللغوية الحديثة لموضوع السيما فى القرن التاسع عشر فى معرض جهود البنيويين لدراسة النظم اللغوية. ومن الغريب أن نجد شبها بين أصول الاشتقاق فى اللفظ القرآنى (أى السيما) وبين الاسم الذى أطلقه الغربيون على هذا العلم semiotics أو .semeology وفى عرفهم أن السيميولوجيا علم العلامات بصفة عامة، ولهذا يمكن أن ننظر إلى اللغة فى عمومها بوصفها نظاماً فرعياً من أنظمة السيميولوجيا يتعلق بصفة خاصة بطبيعة العلامات اللغوية.

نشأ مصطلح السيميوتيكس على يدى الفيلسوف الأمريكى الذرائعى تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤)، ويعود معظم ذلك إليه، ثم جاءت إضافات إلى ذلك على يدى فرديناند دى سوسير الذى أطلق على هذا العلم مصطلح السيميولوجيا.

والعلاقة بين العلامة والمدلول فى رأى سوسير علاقة ثنائية بين دال ومدلول،

أما عند غيره من المحدثين فالعلاقة ثلاثية لأن العلامة قد تدل على شئ ما بالنسبة إلى شخص ما فيكون الشخص المذكور طرفا ثالثا فى العلاقة لأنه هو المفسر interpreter (بكسر السين) لدلالة العلامة، والعلامة هى التى تعين المفسر على أداء هذا الدور إذ يمكنه بواسطتها أن يدرك ارتباطا أو معرفة إضافية تسمى interpretant بين العلامة (أى السيما) ودلالتها. وإليك المثال التالى:

عبد الله رجل وحيد يسكن بيتا لا شريك له فيه. خرج من بيته فى الصباح ليباشر عمله الذى يشغله إلى الساعة الخامسة مساء، وفى طريقه إلى الخارج لم ينس أن يقفل الباب الخارجى كما يفعل دائما. ثم وضع المفتاح فى جيبه ومضى فى حال سبيله. ثم عاد عند انتهاء عمله إلى بيته فوجد الباب مفتوحاً، فرأى أن حالة الباب علامة تدل على أن شخصاً لا يعرف من هو قام بفتح الباب لغرض عنده غير مشروع، ويظهر أن هذا الشخص لص. وتفسير ذلك كما يلى:

* العلامة الباب الذى انفتح بعد إغلاقه
* التفسير شخص غير معروف فتح الباب
* التأويل يبدو أن هذا الشخص لص

فالباب المفتوح هو العلامة، وقد فهم عبد الله من منظر الباب المفتوح أن شخصا غيره قام بفتح الباب. ثم إن هذا الباب المفتوح أوحى إلى عبد الله بفكرة إضافية هى أن هذا الشخص لص.

* * *

والباحثون فى السيميولوجيا يرون أن العلامة ثلاثة أنواع:

١ ـ الأول الأيقونة icon وهى تشير إلى المقصود على نحو ما تقضى به صفاتها الذاتية

التى يبدو منها التشابه بين العلامة والمقصود بها. مثال ذلك ما يلاحظه المرء من تشابه بين صورة الكاريكاتير وما يراد بها عند عدم التعليق عليها. ويلاحظ هنا الفارق الملحوظ بين العلامة ومدلولها من حيث دقة التفاصيل والأبعاد. ويختلف الأمر بالنسبة للصورة الفرتوغرافية التامة الشبه بموضوعها.

٢ ـ المؤشر index تشير العلامة هنا إلى موضوعها بواسطة خضوعها لتأثير هذا الموضوع. فهناك علاقة تبادل الاعتماد بين العلامة والموضوع على نحو ما سبق ذكره من أن (صاحب البيت) أدرك أن شخصا فتح الباب، (فالباب لا يفتح بذاته بعد الإقفال). ومثل ذلك أيضا دلالة الرسم الهندسى ذى الأبعاد المعينة على المبنى الذى يخضع لهذه الأبعاد، الخ.

٣ ـ الرمز symbol علامة تدل على ما تشير إليه بواسطة العرف العام وليس من الضرورى أن تحمل شبها بالمقصود، ومن هنا يكتسب الرمز طابع العموم بحكم العرف والاتفاق على هذه الدلالة. فإذا كنا نقود سيارة فى طريق لم نسلكه من قبل ثم رأينا ضوءا أحمر عن بعد فى نهاية الطريق عرفنا أن الوقوف عند هذا الضوء ضرورى حتى يتغير هذا الضوء دون تفكير فى سبب عملى (أو وجه شبه) لهذا الوقوف كوجود سيارات أخرى لها الحق فى عبور الطريق فى أثناء مرورنا بالإشارة. فالحكم فى هذه الحالة للعرف دون غيره.

فإذا كانت الرموز علامات على الأنواع المجردة فليس للأنواع وجود خارجى أو واقعى وإنما تدل العلامة على النوع الذى لا يرى إلا من خلالها.

ومن هنا يفهم المرء أن النوع المقصود يشتمل على الصفات التى سيقت من أجلها العلامة، وإن صح أن يكون للنوع صفات عارضة له من حيث هو نوع. فنحن نعلم مثلا أن ما يكون مسجلا على الأعلام من خطوط أو نجوم أو نحو ذلك لا يعد من قبيل الأنواع وإنما هو علامات على النوع. ويمكن لهذه الصفات أن تكون موجودة بالمصادفة لا بحكم الضرورة ليتمكن المرء بها من نسبة العَلَم المذكور إلى نوع الأعلام ذات النجوم. ونحوها.

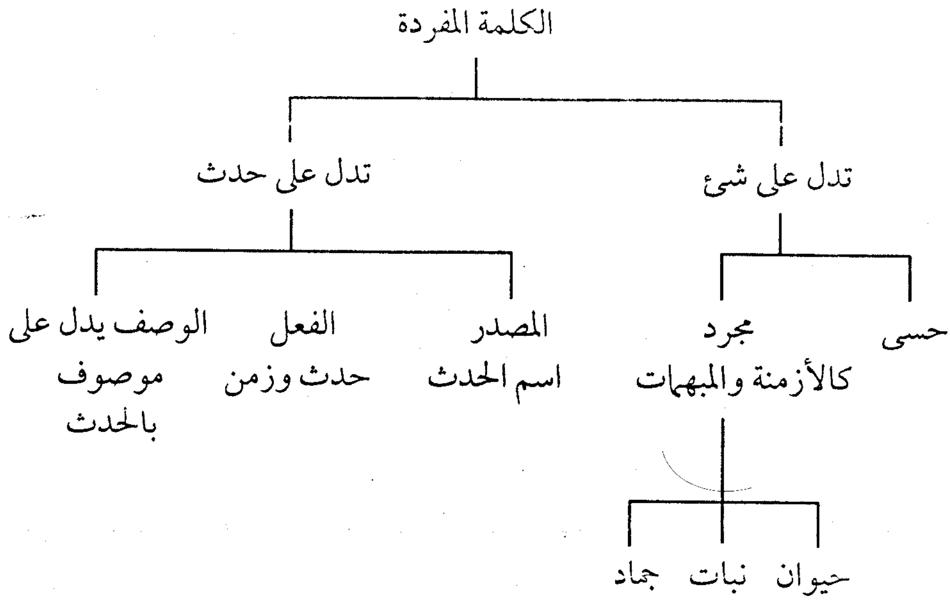
المعجم أهو نظام أم رصيد من المفردات

يوصف مفهوم ما بأنه نظام إذا قامت علاقة تكافل بين مكوناته بحيث يتوقف أداء كل منها لوظيفته على طبيعة وظيفة الآخر. فى هذه الحالة ينسب للبنية العامة للمفهوم الخاضع للدراسة بأنها نظام أكبر، وأن لهذه البنية العامة أقساما فرعية يعد كل منها نظاما فرعيا. ومن الممكن أن نضرب لذلك مثلا أنظمة الحكم فى الدول المختلفة؛ إذ تتألف الدولة من مجلس للوزراء يمثل النظام الأكبر للدولة، ثم ينقسم هذا النظام إلى نظم فرعية هى الوزارات المختلفة الوظائف، ثم تنقسم كل وزارة إلى عدد من الإدارات ذات الوظائف المختلفة أيضاً، وهلم جرا. وتعتمد كل وحدة من وحدات هذه الأنظمة فى أدائها لوظيفتها على تخصص غيرها من الوحدات. من ذلك مثلا أن تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة عن المحاكم التابعة لوزارة العدل يقع فى اختصاص وزارة الداخلية، وأن وزارة الزراعة تعتمد فى أداء مهمتها على وزارات أخرى منها وزارة الرى. وهكذا يبدو الأمر فى شأن اللغة؛ إذ كشف اللغويون فيها عن هيئة النظام، وجعلوا لها نظما فرعية كنظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو، وكشفوا تحت كل واحد من هذه الأنظمة الفرعية عن نظم تتفرع منها. ولكنهم عندما تأملوا طبيعة المعجم لم يلحظوا فيه ما يدعو إلى وصفه بأنه "نظام"، وإنما عدوه حشدا من الكلمات المفردة التى تبدو فى صورة رصيد يجرى الانتفاع به فى الاتصال بمعونة النظم الثلاثة المذكورة: الأصوات والصرف والنحو.

وربما كان هذا الرأى الذى رآه اللغويون فى شأن المعجم مبنيا على نظرتهم إلى طبيعة العناصر التى يتكون منها المعجم، وهى الكلمات المفردة ذات المعانى المفردة أيضا وهى تتغير بحسب المطالب الأسلوبية الفردية. واللغويون يعلمون أن المعنى الدلالى الذى يسعى إليه الاتصال معنى سياقى غير إفرادى. أضف إلى ذلك أن المعانى المفردة يصيبها الخلط أحيانا عن طريق الترادف أو الاشتراك اللفظى أو التضاد أو بعض الظواهر التى تحول دون الثبات الذى هو جزء من طبيعة النظام. ورأوا كذلك أن محتويات المعجم قد ترفض التصنيف المحكم الذى ينبنى عليه النظام. وكانت وجهة نظرهم هذه سببا فى حكمهم أن المعجم لا يصلح أن يكون نظاما على نحو ما صلحت النظم اللغوية الثلاثة: الأصوات والصرف والنحو.

هناك نوعان من المعانى المفردة: أحدهما وظيفى والآخر معجمى. فأما المعنى الوظيفى فإنه دلالة العنصر اللغوى على معنى عام مثل معانى الضمائر والإشارات والموصولات، أو على وظيفة سياقية كعلاقة الربط بين عناصر السياق، وهذه هى وظيفة الأدوات وحروف المعانى. فوظيفة حرف العطف هى ربط المعطوف بالمعطوف عليه، ووظيفة حرف الجر تتمثل فى ربط المجرور بالمتعلق. ووظيفة أداة الشرط هى ربط الشرط بالجزاء، ووظيفة أداة القسم ربط الجواب بجملة القسم، وهلم جرا. ومظنة مكان دراسة المعنى الوظيفى هى كتب النحو ويندر أن ينص عليها المعجم. وقد عمل بعض النحاة على التأليف فى حقل المعانى الوظيفية كما نرى فى كتب مغنى اللبيب لابن هشام، والجنى الدانى للمرادى، ورصف المبانى للمالقى.

أما النوع الثانى من المعانى المفردة فهو المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمات المفردة ذات الأصول الاشتقاقية والصيغ الصرفية فى الغالب، ومن شأن هذه الكلمات المفردة المذكورة أن تدل على الأشياء والأحداث كما يبدو من التخطيط التالى:



هذان النوعان (الوظيفى والمفرد) يتضافران للكشف عن المعنى الذى تدل عليه الكلمة المفردة من جهة، وتقوم عليهما وظيفة المعجم من جهة أخرى، على الرغم مما سبق من قولنا إن مظنة الكلام عن المعنى الوظيفى هى كتب النحو. فإذا كان الأمر كذلك فبنا أن نعود إلى ما اشتمل عليه عنوان هذا البحث من أن المعجم (الذى رآه اللغويون رصيدا من المفردات) هو فى الحقيقة نظام ذو شبكات وعلاقات وثيقة يقوم المعنى على أساس الاعتراف بها.*

وفيما يلى بيان للعلاقات التى تترابط بها محتويات المعجم وهى المبرر لتغيير النظرة إلى طبيعة المعجم والمساعدة على تحويل الكيان المعجمى فى افهامنا من كونه رصيدا من المفردات إلى كونه نظاما من أنظمة اللغة:

١ ـ الترابط بواسطة أصول الاشتقاق.

٢ ـ التمايز بواسطة الصيغة الصرفية للكلمات.

٣ ـ بيان معنى الكلمة بواسطة هذين المحورين.

٤ ـ النظر إلى أصل وضع الكلمة لبيان الأصلى وغير الأصلى من المعانى.

٥ ـ أثر المسموع فى بيان الأصلى من غيره.
٦ ـ الحقول المعجمية وأثرها فى تكوين السياق.
٧ ـ المناسبة المعجمية بين ألفاظ من حقل وألفاظ من حقل آخر.
٨ ـ فكرة النقل وأثرها فى مرونة النظام المعجمى.

وسنحاول فيما يلى أن نشرح المقصود بكل من هذه المحاور، وعلاقة ذلك بالاعتراف بأن المعجم نظام:

١ ـ إذا أردنا أن نبحث عن معنى كلمة فى المعجم فأول ما نصادفه هو رسم الكلمة، ثم يأتى بعدها أصل اشتقاقها فى صورة حروف ثلاثة متقطعة. فإذا كانت الكلمة المطلوبة هى "جاه" مثلا وجدنا بعد رسمها حروفا ثلاثة هى (و ج ه)، وعرفنا من ذلك أن هذه الحروف تلخص علاقة بين طائفة من المفردات مما يتصل بمعنى "الوجاهة"، وأن قوله تعالى: "وكان عند الله وجيها" معناه أنه كان عند الله ذا جاه. وسنعرف أيضا من هذه الأصول أن هناك كلمات أخرى تشارك لفظ "جاه" فى أصل اشتقاقها ولكنها تختلف عنها فى المعنى أحياناً، مثل الوجه والجهة والوجهة والتوجيه الخ. وعرفنا أن أصل الاشتقاق ينبئ عن علاقة بين عدد من الألفاظ، وهذه العلاقات تسود فى نظام المعجم لتصبح واحدا من مكونات هذا النظام.

٢ ـ فإذا عرفنا هذا النوع من العلاقات الرابطة بين مكونات النظام فإن من المفيد أن ننظر فى علاقات التمايز والفروق وهى علاقات ضرورية لتكوين النظام أيضاً. ومن الواضح أن التعبير عن هذا التمايز بين المفردات يكشف عن اختلاف الصيغ الصرفية التى تقع كل منها فى نطاق معنى وظيفى بعينه. فإذا رأينا الفرق بين "قاتل" و "قتّال" و "قتيل" الخ (وهى من أصل اشتقاقى واحد) عرفنا أن الفرق يكمن فى اختلاف الصيغ. فإحدى الصيغ تدل على محدث للقتل لم يتكرر منه القتل، أو دون اهتمام بعدد مرات القتل؛ وأن الصيغة الثانية تدل على تكرار القتل من هذا الموصوف بالصيغة، وأما الصيغة الثالثة فتصف شخصا

وقع عليه القتل. تلك هى الفروق التى تتحقق من خلال اختلاف صيغ المفردات.

٣ ـ والفرق المذكور بين المعنيين يعد وظيفة للصيغة، ولهذا سمى: "معنى وظيفيا"؛ لأنه لا يشير إلى تباين فى مفاهيم خارجية من قبيل الأشياء والأحداث. وإنما يشير إلى وصف بإجراء الحدث الذى جاء مرة فى صورة اسم الفاعل، ومرة فى صورة المبالغة، وثالثة فى صورة اسم المفعول وهنا تحقق اختلاف المعنى الوظيفى بحسب اختلاف الصيغة. وقد درج النحاة على أن يصفوا المعنى الوظيفى بأنه "معنى عام حقه أن يؤدى بالحرف". ونسبوا إلى هذا المعنى أنه سبب من أسباب البناء (المضاد للإعراب) فى حالة الأدوات وحروف المعانى والضمائر والموصولات والظروف الأصلية (غير المنقولة). أما فى شأن المعجم فإن الصيغة ليس لها وجود مستقل يستدعى البناء فى مثل الصيغ الثلاث المذكورة منذ قليل، ومن هنا لم يكن معناها العام من أسباب البناء فتبنى المفردات الواردة على مثال هذه الصيغ. وأما أهمية الصيغة فى إطار النظام المعجمى فلكونها تعين (بما لها من نواحى الاتفاق والاختلاف على رؤية علاقات وتصنيفات فى إطار النظام المعجمى).

٤ ـ كانت المادة الأصلية للدراسة اللغوية العربية هى النصوص المروية عن فصحاء العرب (ويسمونها: المسموع عن كلام العرب) وحين تأمل اللغويون هذه المادة المسموعة وجدوا ظاهرتين: إحداهما تعدد اللفظ للمعنى الواحد كما فى أسماء الأسد والسيف الخ (وسموها الترادف)، والأخرى تعدد المعنى للفظ الواحد كالذى نجده من تعدد معانى "ضرب" على النحو التالى: ضرب زيد عمرا (= صفعه) ـ ضرب الله مثلا (= أورده) ـ ضرب فى الأرض (= سعى) ضرب له موعدا (= حدده) ـ ضرب عليه ضريبة (= فرضها) ـ ضرب ٥ فى ٦ (= حسبها) ـ ضرب العملة (= صاغها) الخ. فكان عليهم أن يوازنوا بين هذه الاستعمالات، وأن يعينوا الأصلى منها والأقل أصالة. فاتجهوا إلى تجريد الأصل، ونسبوا هذا الأصل إلى الوضع، أو نسبوا المعنى إلى الوضع، وجعلوا ما عدا المعنى الأصلى أحد معنيين:

أ ـ معنى تنقصه الشهرة والشيوع فى الاستعمال، ولكنه مما ينسب إلى اللفظ كما رأينا فى بعض معانى الفعل "ضرب" منذ قليل.

ب ـ ومعنى آخر جاء عن طريق النقل من المعنى الأصلى إلى دلالة أخرى لا يبررها العرف العام، ولكن تقوم قرينة معينة على إرادتها هى دون المعنى الأصلى. والمقصود بالنقل أن يتحول اللفظ فى الاستعمال من القسم الذى ينتمى إليه من أقسام الكلم (بحسب نظام اللغة) إلى قسم آخر فيعامل معاملة هذا القسم الآخر فيما يلى:

* ـ "إذ" ظرف لما مضى من الزمان بحسب الأصل، ولكنها قد تنقل إلى أحد المعانى التالية:

المصدرية، نحو "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا".

التعليل، نحو "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" أى لأنهم.

الاستفتاح، نحو "وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين" أى لقد قال.

• ـ "إلا" من حروف الاستثناء ولكنها قد تنقل إلى ما يلى:

الاستدراك، نحو "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى" أى لكن تذكرة.

وكذلك "وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى" أى لكن.

* "المصدر" وهو اسم الحدث قد ينقل إلى استعمال الفعل.

* ـ "ما" موصولة ولكنها تنقل إلى النفى والشرط والاستفهام والتعجب، وهلم جرا. ولكن أوفر صور النقل حظا من الشهرة هى صورة المجاز الذى يعرف بأنه:

"نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى".

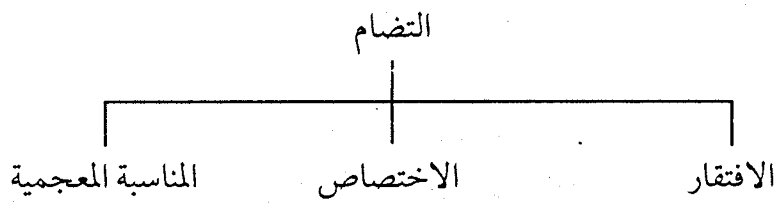
يتضح من ذلك أن ظاهرة النقل لم تلفت نظر النحاة بقدر ما لفت نظر البلاغيين؛ إذ إن النحاة لم يلحظوها إلا فى بابين من أبواب النحو هما باب اسم العلم (ومنه منقول كفضل وأسد) وباب التمييز المنقول عن الفاعل أو عن المفعول (والفاعل المعنى انصبن بأفعلا).

٥ ـ ولعل أوضح ما يبرر دعوى كون المعجم نظاما فكرة الحقول المعجمية. كلنا يعلم أن الجملة العربية تتكون من مسند إليه ومسند، وقد تضاف إليهما مكملات ذات شروط صياغية معينة. فقد تكون الجملة من فعل وفاعل، وقد تكون من مبتدأ وخبر. ثم إن الفعل قد يكون متعديا وقد يكون لازما، فيصل إلى المفعول بحرف جر يخضع للاستبدال بحسب العلاقة بين الحدث الذى فى الفعل وبين مدخول هذا الحرف. وهذه الطبيعة فى تكوين الجملة العربية اقتضت أن يكون فعل ما صالحا أن يسند إلى فاعل ذى شروط خاصة، وأن خبرا فى الجملة الاسمية لا يسند إلا إلى مبتدأ ذى شروط معجمية معينة. وإن الحال تتطلب صاحبا لها يمكن وصفه بها (لأن الحال وصف لصاحبها فى المعنى). وهكذا تقوم بين المعانى النحوية علاقة المناسبة المعجمية التى تجعلها صالحة للمصاحبة فى السياق، أو علاقة مفارقة معجمية تنفى أن يكون أحد اللفظين مصاحبا للآخر. فيمكن أن يقال مثلا: "أحس فلان بالحرج أن يرفع صوته بالغناء"، ولا يقبل أن يقال: أحس البساط بالفرحة تطير فى نسيجه. ذلك أن الفعل "أحس" يتطلب فاعلا ذا قدرة على الإحساس والبساط لا حس له وهو غريب عن فكرة الحرج والفرح. ومن هنا توصف الجملة التى قيلت عنه بالفساد، لأن المفارقة المعجمية حكمت بفسادها.

وللمناسبة المعجمية درجات أرفعها منزلة أن يصاحبها مشاركة فى الأصل الاشتقاقى بين طرفيها فيتحقق بذلك عدد من الأواصر بين طرفى المناسبة (الاشتقاق والمشاركة فى المصدر والمشاركة فى أصل المعنى). انظر مثلا إلى قوله تعالى: "سأل سائل بعذاب واقع للكافرين". أو إلى قوله جل شأنه: "قال قائل منهم

لا تقتلوا يوسف" وستجد المناسبة واضحة فى المحاور الثلاثة التى ذكرناها منذ قليل. فهذه أعلى درجات المناسبة بين عناصر الجملة العربية؛ لأن السؤال لا يكون إلا من سائل والقول لا يكون إلا من قائل. وهكذا تقترب المناسبة من الحتمية.

والمناسبة بدرجاتها المختلفة شرط من شروط التضام النحوى؛ فالتضام يتكون من الأمور التالية:



ومعنى الافتقار أن بعض كلمات اللغة لا تفيد إلا إذا ضمت إليها كلمات أخرى بعينها، أو عناصر لغوية أكبر من الكلمة المفردة. فحرف الجر مفتقر إلى مجرور، والموصول مفتقر إلى جملة الصلة، و "يا" النداء مفتقرة إلى منادى، وأداة الشرط مفتقرة إلى شرط وجواب، الخ. الاختصاص عنصر آخر من عناصر التضام يتعين بحسبه أن يقع العنصر اللغوى فى موقع بعينه بحيث لا يرد بعده إلا عنصر معين كاختصاص "لم" بالدخول على المضارع، أو قسم من أقسام الكلم كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال، وهلم جرا. ومن الواضح أن بين الاختصاص والمناسبة المعجمية وجه من الشبه؛ لأن كلا منهما مشروط بأن يصحب ما يتفق معه فى سمات المعنى.

هكذا نكون قد عرفنا عناصر التضام الثلاثة، وعرفنا أن النظام المعجمى مسئول عن بعض مظاهر التضام النحوى؛ فمثله فى خدمة النحو كمثل نظام الأصوات ونظام الصرف. انظر مثلا إلى البيت التالى الذى نام المتنبى عن شوارده وسهر له الخلق واختصموا حول سبكه:

فأصبحت بعد خط بهجتها   كأن قفـــر رسومهـــا قلما

أى فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها (تأمل فساد التضام).
ولعل كل ما سبق من كلام عن الحقول المعجمية وصلتها بالمناسبة المعجمية ينصب على المعنى الأصلى الذى ينسبه النحويون إلى أصل الوضع، وبذلك يكون هذا المعنى من تجريدات المفاهيم النحوية. أما المعنى المعتمد على النقل فهو إجراء اسلوبى فردى يقوم به المتكلم.

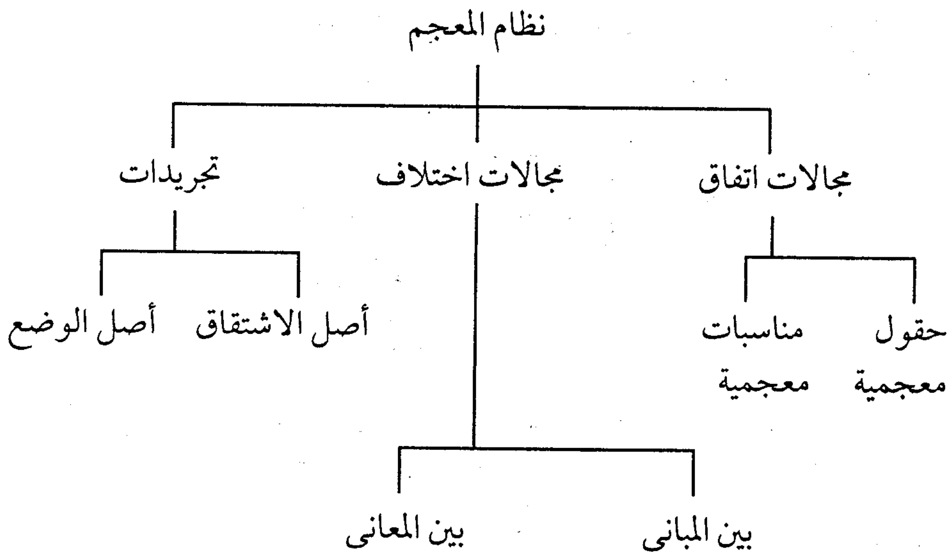
كان من المنطقى مع القول بتجريد المعنى الأصلى أن لا يتعدد هذا المعنى (لأنه جاء بأصل الوضع)، ولكن رواية اللغة لم يكن مصدرها كلام قبيلة واحدة، بل تعددت قبائل الفصاحة فى عرف النحاة حتى بلغت ست قبائل أو نحوها. فأية كلمة مفردة اختلف معناها من قبيلة لأخرى رأى اللغويون أن هذا العدد من المعانى ينسب (على رغم تعدده) إلى أصل الوضع؛ ومن حقه أن يراعى جميعه فى توزيع الحقول المعجمية وفى مبدأ المناسبة المفرد ثم فى ترتيب شرح مواد المعجم أيضا. فالمعنى المفرد معجميا كان أم وظيفيا من شأنه أن يقبل التعدد والاحتمال، ثم لا يذهب بهذا الاحتمال إلا وضع الكلمة المفردة فى سياق ذى قرينة تدل على خصوص المعنى.

من المعروف أن افتقاد المناسبة المعجمية يفسد المعنى كما مر. ولكن هناك ظاهرة أسلوبية تحول (مع عدم المناسبة) دون فساد المعنى، وتلك هى ظاهرة "النقل" التى سبقت الإشارة إليها، والتنبيه إلى أن البلاغيين كانوا أكثر احتفاء بها من النحاة. لقد وضع البلاغيون للنقل قاعدة مطردة يتحول الكلام بحسبها من الحقيقة إلى المجاز. ولقد عرف البلاغيون المجاز كما مر، وسموا النقل مجازا أى جوازا من نقطة إلى أخرى (وهذا هو المقصود بالنقل أيضاً).

نقف عند هذا الحد وقفة تأمل فى طبيعة النظام فى عمومه، ثم نحاول بعد ذلك أن نستخرج من هذا التأمل صدق الدعوى التى ادعيناها أن المعجم نظام، وليس مجرد رصيد من الألفاظ المفردة. فمن شأن كل نظام أن يقوم على أساس نوعين من أنواع العلاقات الكبرى هما: علاقات اتفاق (بين عناصر النظام) وعلاقات

اختلاف (أى فروق) بين هذه العناصر. فأما علاقات الاتفاق فإنها تعين على التبويب (أى وضع العناصر المتشابهة فى مجموعات)، وأما العلاقات الفارقة فإنها تعين على تمايز هذه المجموعات كل منها عن الأخرى. وباستعمال الاتفاقات والفروق يمكن أن يتحقق النظام، ويمكن عندئذ تجريد الأقسام والاصطلاح لها. وهكذا يمكن تلخيص فكرة النظام بأنه بناء من العلاقات والتجريدات المعبرة عن هذه العلاقات.

فإذا نظرنا إلى المعجم فى ضوء هذه الحقائق ادركنا ما له من طابع النظام وأن هذا النظام يبدو على النحو التالى:



هذه العناصر التى يتكون منها نظام المعجم يتفاعل بعضها مع بعض، كما أن نظام المعجم ذاته يتكافل مع النظم اللغوية الأخرى (الأصوات والصرف والنحو) فى سبيل إنتاج النص اللغوى. والمعروف أن الوصول إلى المناسبة المعجمية فى الاستعمال يتطلب وجود الحقول المعجمية، وهذه الحقول تقوم على العلاقات بنوعيها بين المفردات. وبهذا يتضح أن المعجم نظام وليس رصيدا من المفردات.

الرجال قوامون على النساء.

يتفاوت الفهم لدى الرجال والنساء عند سماع قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ (النساء ٣٤). ويقع اختلاف الفهم بالنسبة لأمور ثلاثة:

١ ـ بالنسبة لمفهوم الأفضلية التى هى سبب القوامة،

٢ ـ وبالنسبة للبعضية المتمثلة فى عبارة: "بعضهم على بعض"،

٣ ـ ولمفهوم الإنفاق من لدن الرجال.

وفيما يلى بيان لوجه الصواب فى فهم هذه الأمور:

● يخطئ بعض الرجال إذ يفهم أن المقصود بالأفضلية حكم قيمى مجرد لا يرتبط بأسس اجتماعية أو تكوينية تتصل بالقدرات الطبيعية لكل من الجنسين، أو دينية تتصل بالتكاليف الشرعية. فأما الرجل فيتمثل سوء فهمه فى كونه يطلق لنفسه العنان فى التسلط على امراته ويرى فى ذلك رخصة من عند الله منحه إياها لمجرد كونه رجلا، ويبالغ فى ذلك على طريقة (سى السيد). وأما المرأة التى لا يروقها ذلك فإنها عندما تضيق بهذا التسلط من لدن الرجل تلتمس لنفسها مخرجا بتأويل الآية الكريمة على غير وجهها الصحيح، فتخطئ كما أخطأ الرجل من قبلها وذلك بتأويل النص بحيث تسخره لصالحها. فالفريقان فيما نرى بحاجة إلى معرفة الأسس التى بنى عليها تفضيل الرجال بجعلهم قوامين على النساء، وهى أسس لا ينبغى لها أن تكون مدعاة لفخر الرجل ولا لسخط المرأة وفى ذلك بيان لهذه الأسس:

• خلق الله الرجل وأمده بقوة عضلية ليس للمرأة مثلها، وذلك ليكون قادرا على السعى فى طلب الرزق وعلى أن يعول أسرة متعددة الأفراد وعلى حماية من يعول إذا تعرض عياله لظروف غير مواتيه. أما المرأة فإن وظائفها تختلف عن وظائف الرجل ولكنها لا تقل أهمية عنها وإن لم تكن صالحة لجعل المرأة قوامة على الأسرة.

• لما كان من وظيفة الرجل أن يكون عائلاً لأسرته ولم تكن المرأة كذلك اعطى الله تعالى للرجل من الميراث مثل حظ الأنثيين فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى: "بما فضل الله بعضهم على بعض".

• ومن صور التفضيل أيضاً أن ينسب المولود إلى الأب دون الأم محافظة على الأنساب، وفى ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب ٥).

• ومما خص الله به الرجل دون المرأة أن يكون الرجل صالحا للإنجاب طول عمره بخلاف المرأة التى تتوقف عن أداء هذه الوظيفة عند سن اليأس.

• مما لا يتعارض مع حفظ الأنساب أن يأذن الشارع بزواج الرجل من امرأة واحدة أو أن يتجاوز ذلك إلى أربع نساء، أما المرأة فإذا عددت الأزواج فرقت الأنساب ووقع النظام الاجتماعى فى فوضى، ولذلك حرم الشارع تعدد الأزواج للمرأة الواحدة.

• يوجد العنصر الحيوى (الحيوان المنوى) فى ماء الرجل وتبقى المرأة مجرد مستقر للجنين حتى يأذن الله تعالى بإخراجه طفلا.

• من طبيعة الحياة العامة أن يكون ثمة مجتمع للرجال وآخر للنساء، وان تختلف معايير السلوك فى أحد المجتمعين عنها فى الآخر. والمجتمع الرجالى منفتح والمجتمع النسائى مغلق. ومن هنا يصبح للكلمة وزن لدى الرجال أكثر مما لها عند النساء. ولذا أصبح الرجل : أكثر حرصا على انتقاء كلمته من المرأة. ولهذا السبب جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا

رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ البقرة (٢٨٢). وللضلال صور لا تحصى!

ثانيا: مفهوم البعضية:

لخص الله سبحانه وتعالى الأسباب السابقة لإسناد القوامة إلى الرجل بقوله جل شأنه: "بما فضل الله بعضهم على بعض". والمعنى (والله أعلم): بسبب الأمور التى سبق ذكرها. ولكن من النساء من تخطئ فى فهم هذه العبارة تحت دافع الاستنكار لتسلط الرجل. وقد سمعت سيدة فاضلة فى برنامج تلفزيونى تقول إن المقصود بالبعضية أن الله فضل بعض الرجال على بعض النساء. ولو أخذنا بهذا الفهم لاحتمل المعنى أن يكون المقصود من الآية هو كون بعض النساء أفضل من بعض الرجال. وهذا ليس من مقاصد الآية الكريمة بالطبع.

ثالثا: مفهوم الإنفاق:

قال تعالى فى بيان سبب الأفضلية: "وبما أنفقوا من أموالهم". وإذا أردنا أن نبين الأحوال التى يتم فيها الإنفاق المناسب للرجل دون المرأة وجدناه يبدو فى صورتين: الأولى هى المهر الذى يدفعه الرجل عند الزواج، والثانية هى النفقة التى تجب عليه بعد الدخول. وليست المرأة مسئولة عن شئ من هذا القبيل.

بهذا نجد أن الأفضلية ليست بسبب الذكورة ولكنها بسبب وظائف للرجال يختصون بها دون النساء، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾. ولا داعى عندما تضيق المرأة بأخطاء الرجل أن يدفعها ضيقها إلى التهجم على مدلول الآية الكريمة. وقد يكون لنا أن نذكر فى هذا المقام بالحديث الشريف الذى يجعل الرجل راعيا فى أهله ومسئولا عن رعيته، ويجعل المرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها. وواضح أن رعاية الأهل أثقل حملا من رعاية البيت وهذا وجه آخر للأفضلية.

أيام الله فى القرآن الكريم

ورد فى تعقيبى على ما قاله بابا الفاتيكان فى تهجمه على الإسلام شاهد قرآنى على الأمر بالتسامح فى التعامل مع غير المسلمين إذا بدت منهم إساءة للإسلام أو للنبى الكريم (عليه الصلاة والسلام) أو لأحد المسلمين، وذلك قوله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (١٤). وقد حرصت قبل أن أضع هذا بين شواهد التعقيب أن أَتَثَبَّتَ من المعنى المقصود بلفظى "يرجون" و "أيام الله". وكان فى متناول يدى عندئذ من التفاسير المشهورة خمسة تدعو للاطمئنان هى: البحر المحيط لأبى حيان وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وتفسير النسفى وتفسير القرطبى ثم الكشاف للزمخشرى. بدا لى أن أفضل الطرق أن ألتمس سبب النزول للكشف عن سياق الموقف للوصول إلى معنى سياق اللفظ فوجدت سبب النزول بصورة عامة يرتبط بعمر بن الخطاب وما كان من غضبه إما على عبد الله بن أبى إذ نطق بعبارة مهينة للمهاجرين أو على يهودى سمع قوله تعالى: "من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا" فقال: احتاج رب محمد. وفى كلتا الحالتين امتشق عمر سيفه وحاول إيقاع العقاب باليهودى.

قال المفسرون المذكورون إن معنى "لا يرجون أيام الله" لا يرجون ثوابه، أو لا يخافون بأس الله ونقمته، وقال بعضهم: "لا يخافون البعث". فإذا تأملنا هذه الأقوال وجدنا حاجة إلى فهم عبارتين: "لا يرجون" و "أيام الله". فأما الرجاء

فأشهر معانيه توقع حدوث الشئ فإذا انصرف ذلك إلى "أيام الله" (وسوف نبين المقصود بها بعد قليل) تبادر إلى الفهم أنهم لا يؤمنون بها ولا بما ورد فى القرآن الكريم من الإشارة إليها. وهذا شأن الذين لا يؤمنون بالغيب ولا بتعاليم الإسلام. ويقال إن المقصود بهذا (كما سبق القول) أن يقول الرسول ذلك لعمر بن الخطاب فيما يتصل بما قاله عبد الله بن أبى من إهانة للمهاجرين، أو ما قاله اليهودى عند سماعه قول الله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (البقرة ٢٤٥): إذ قال "احتاج رب محمد". فالقائل على الروايتين غير مؤمن بالله ولا باليوم الآخر. أى أنه لا يتوقع مجئ هذا اليوم ولا يؤمن به.

أما "أيام الله" فسوف نفصل القول فبها كما يلى: ينسب القرآن اليوم إلى الله إذ تعلق هذا اليوم بمشيئة الله وقضائه سواء تعلق هذا القضاء بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة. وفيما يلى نورد مختارات من آيات القرآن الكريم يشتمل كل منها على ذكر يوم من أيام الله:

- ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (فاتحة الكتاب ٤).
- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة (٨).
- ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (٨٥).
- ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ البقرة (٢٥٤).
- ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾(آل عمران ٩).
- ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾(آل عمران ٣٠).
- ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾(آل عمران ١٠٦).
- ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾(المائدة ١٠٩).
- ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾(المائدة ١١٩).

- ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾(الأنعام ٢٢).
- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ ﴾ (الأنعام ٧٣).
- ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (الأعراف ١٤).
- ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال ٤١).
- ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ (التوبة ٣).
- ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ (التوبة ٣٥).
- ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(التوبة ٣٦).
- ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود ١٠٣).
- ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾(إبراهيم ٥).
- ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم ٤١).
- ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾(إبراهيم ٤٤).
- ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(إبراهيم ٤٨).
- ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ (الحجر ٣٧ - ٣٨).
- ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (النحل ٨٤).
- ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ (النحل ١١١).

- ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء ٥٢).

- ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف ٤٧).

- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ (الكهف ٥٢).

- ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ (مريم ٣٨).

- ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾(مريم ٣٩).

- ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (طه ١٠٢).

- ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾(الأنبياء ١٠٤).

- ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج ٤٧).

- ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النور ٢٤).

- ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ (النور ٦٤).

- ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾(الفرقان ٢٢).

- ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ ﴾(الفرقان ٢٥ ـ ٢٦).

- ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء ٨٧ ـ ٨٩).

- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص ٦٢ و ٧٤).
- ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص ٦٥).
- ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾(العنكبوت ٥٥).
- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (الروم ١٢).
- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (الروم ٤٣).
- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ (الروم ٥٦).
- ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب ٤٤).
- ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (غافر ١٥).
- ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾(غافر ١٨).
- ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (غافر ٣٢).
- ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر ٥١).
- ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾(الشورى ٧).
- ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الدخان ١٠).
- ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان ١٦).
- ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾ (الدخان ٤٠ ـ ٤١).

• ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (الجاثية ٢٧).

• ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (الأحقاف ٢٠).

• ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ (ق ٢٠).

• ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ (ق ٣٤).

• ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق ٣٠).

• ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (ق ٤٢).

• ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق ٤٤).

• ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الطور ٩ ـ ١١).

• ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (الطور ١٣ ـ ١٤).

• ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (الطور ٤٦).

• ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ (القمر ٦).

• ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ (المعارج ٨).

• ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (المزمل ١٤).

• ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ ٣٨).

• ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ (النبأ ٣٩).

• ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾(النبأ ٤٠).

• ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ (النازعات ٦ ـ ٧).

• ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (عبس ٣٤).

هذه نماذج من أيام الله اختير معظمها من عدد من مرات ذكره فى نص القرآن الكريم اختصارًا للموضوع المعروض. وقد كان اختيار العنوان فى ضوء ما ورد فى الأية الخامسة من سورة إبراهيم.

الباب الثالث

نحـــو النـــص

Text Linguistics

لغويات النص

خلفية: **Back ground**:

الأمر كما أشار هويى Hoey (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤): أن ثمة اتـجاهًا إلى إيـجاد فارق واضح وسريع بين الـخطاب (الـمنطوق) وبين النص (الـمكتوب). وينعكس هذا حتـى فى ثنائيـة التسـمية بالنسـبة إلى النظامـين، فنحن نـدرس تـحليلات الـخطاب ولكن لغويات النص. وعلى الرغم من أن التمييز بينهما ضرورى للوصـول إلى بعض الأغراض نجده أحيانًا يـخلط بين أوجـه الشبه فى تنظيم الكلمة الـمنطوقة والـمكتوبة. إن الفـارق الـذى يذكره هويى Hoey قد جـاء فى هذا الـجزء volume على أساس عملى لا نظرى، وينبغى أن يكون هناك وعى بالـخلط بين لغويات النص والـخطاب من جهة وبين تـحليل التخاطب من جهة أخرى.

إن تأكيد اللغويات الـحديثة فى بواكير نشأتـها على استكشاف الوحدات الصغرى ووصفها بالنسبة لكل مستوى من مستويات الصوت والـمبنى الصرفى والعلاقة النحوية والدلالة السيمانتيكية لـم يكن لـها أى استعداد لدراسة قطع مطولة من مكونات النصوص. بل إنه من الـممكن أن يقال إن عزل مكونات

صغرى يصرف الاهتمام عن الارتباطات المهمة التى توحِّد النص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢١). ومع أن زيليج هاريس (١٩٥٢) كان قد اقترح تحليل مجموع الخطاب والتخاطب بحسب قواعد توزيعية (انظر تحليلات الخطاب والتخاطب) مستخدمًا فكرة تحويل transformation بعض فقرات النص فإن هذا الاهتمام الجديد بالنص والخطاب قد اختفى فى أيام تحويل هذه الفكرة إلى موضوع تحويل الجمل الذى جاء به تشومسكى (انظر النحو التحويلى والتوليدى). إن البحوث الأولية فى نظام النص ظلت وصفية فى جوهرها، ومؤسسة فى بنيتها على جهود (بايك ١٩٦٧ وكوتش ١٩٧١ وهيجر ١٩٧٦) مع توسع قليل بحسب المصادفة بإطارها ليشمل استمرارية النصوص أو حدوث المواقف (كوسيريو ١٩٥٥ ـ ١٩٦١ وبايك ١٩٦٧ وهارويج ١٩٦٨ وكوتش ١٩٧١). وقد حدث الاعتداد بالنص بوصفه أطول من الجملة واتجه البحث إلى استكشاف أنواع من بنية النص. وقد نظر إلى ذلك بوصفه عطاء أكثر من أن يكون شيئًا جاء بمشاركة من القارىء ومعتمدًا على الموقف. وننتهى من ذلك إلى إنشاء أعداد مختلفة من الأقسام ومن درجات الإتقان، ولكن مع تصور واضح لكيفية استخدام النصوص فى النشاط الاجتماعى (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١).

وللطريقة الوصفية على أى حال ميل إلى الترويض لأن اللغة تشتمل على كثرة بالغة من التراكيب المشتملة على عناصر كثيرة ومختلفة تصعب الإحاطة بها. ومن العجب أن فكرة التحويل التى فقدها هاريس Harris لصالح تشومسكى Chomsky هى التى سمحت بنشأة فكرة جديدة عن النص شجعت فى عقد السبعينيات على قفز لغويات النص إلى النحو التحويلى، حيث جاءت النظرة إلى المجموعة غير المحددة من الجمل فى اللغة بوصفها صادرة عن مجموعة قليلة من البنيات العميقة، مع إضافة مجموعة من القواعد لتحويل هذه البنيات العميقة إلى بنيات سطحية. لقد خضع الأمر للمناقشة (كانز وفورد ١٩٦٣، وانظر

أيضًا Rhetoric ص ٣٨٣). ويمكن لنص كامل أن يعامل معاملة جملة مفردة بالنظر إلى مواضع الوقف ورؤيتها كما لو كانت مواضع للوصل، كما فى حال (and). إن هذا الاتجاه على أى حال يهمل قاصدًا أن يشير إلى ما يراه القارئ وما يعلمه. أضف إلى ذلك أنه يهمل حقيقة كون دلالات النبر والتنغيم والرتبة فى غضون الجملة تتوقف على تنظيم الجمل الأخرى فى مجرى السياق (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤).

هذا ما لاحظه هايدولف Heidolph (١٩٦٦) من أن ملاحظة المذكور فى مقابل غير المذكور يمكن أن تنضم إلى النحو لتبرر هذه العوامل (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). ويسجل آيسنبرج Isen berg (١٩٦٨ ـ ١٩٧١) عوامل يمكن علاجها بدون جملة واحدة، مثل الضمير والأداة وسياق الزمن، ويضيف ملاحظات ينوى بها العثور على مستوى عبارات اسمية Noun Phrases ... (and) تشير إلى علاقات (coherence) مثل: علة cause وغرض pupose وتخصيص أو تعيين specification ومقاربة مؤقتة temporal proximity (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). هذا النوع من الجدل أدى إلى نشأة مشروع Konstanz project الذى أنشئ فى جامعة كونستاتز الألمانية بواسطة مجموعة من الباحثين من بينهم: هانسريزر Hannes Rieser وبيتر هارتمان Peter Hartmann ويانوس بيتوفى Janos Petofi وجينس إهوى Jens Ihwe وفولفرام كوك Wolfram Kock. وآخرون حاولوا أن ينشئوا نحوًا ومعجمًا يمكن أن يستعملا فى توليد نص يسمى Brecht text. وجاء ذكر هذا المشروع فى (فاندايك وآل ١٩٧٢). ولقد أبرز هذا المشروع مشكلات أكثر مما جاء بالحلّ (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤) "على الرغم من منظمة من القواعد لم يمكن الوصول إلى مبادئ للحكم على النص نحويًا أو تركيبيًا" ولم يمكن الوصول إلى حل مشكلة الإحالة العامة. وقد اتجه النقد الذى وجهه كومر Ku mmer إلى هذا المشروع (١٩٧٢)

من خـلال الإشارة إلى أن توليـد النص من الـمفترض أن يأتى عن طريق الباحثين لا عن طريق النحو (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥).

وعلى العكس من الطريقة النحوية التى استعملتها مـجموعة كونستانز جاء عمل بيتوفى petufi (١٠٧ و١٩٧٤ و١٩٧٨ و١٩٨٠) الذى عنوانه: Text (Test (Structure - World Structure Theory) (est بعوامل تتصل بمستعملى النص أكثر من اتصالها به بوصفه اختراعًا منعزلاً للإنسان كما تتصل بوسائل للتقديم مشتقة من الـمنطق. وهكذا جاء مشروعه شديد التعقيد (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥ـ٢٦).

جاء عرض عناصر النص فى نسخة ١٩٨٠ ليمثل النص من جميع اتجاهاته، وإلى جانب الناحية اللغوية الطبيعية جاء موقف قاعدى مترابط (منتظم ومجرد). ولقد سبقت القواعد واللوغارتمات لبيان هذه الأعمال مثل الصوغ formation والتركيب composition والبناء construction والوصف description والترجمة translation والشرح interpretation. أما إحالة النص إلى موضوعات أو مواقف فى العالم فإن علاج ذلك يأتى بواسطة مكون "الدلالات العالمية" مع افتراض التوافق بين بنية النص وبنية العالم على الأقل.

ومع إبقاء فاندايك على التمسك بفكرة نحو النص التى وضعت للحفاظ على ظواهر النص التى لا يمكن لنحو الجملة أن يناسبها تقدم فاندايك (١٩٧٢) بفكرة البنية الكبرى macrostructure وهى عبارة عامة عن الموقف المصاحب للنص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٧ ـ قلرن فاندايك ١٩٧٧ الفصل الخامس). وقد استدل فاندايك بأن إنشاء نص لابد من أن يبدأ بفكرة رئيسية تتحول بالتدريج إلى معان مفصلة تنمو إلى مستوى معانٍ قطعت إلى تراكيب فى حجم الجمل. وعند الوصول إلى حجم الجملة ينبغى أن تكون هناك أعمال فى الاتجاه الآخر لاسترجاع الفكرة الرئيسية مثل الحذف (استرجاع مباشر للمادة) أو التعميم (بوضع المادة فى صورة أعم) أو البناء (إيجاد مادة جديدة وإدماجها فى بنية أكبر). وهكذا عاد فاندايك إلى سيكولوجية المعرفة للوصول إلى نموذج للنص صالح للإجراء. وقد

بحث بالتعاون مع والتر كينتش ما يفعله الناس من أجل اختزال النصوص (ڤارن كينتش وفاندايك ١٩٧٨، وفاندايك كينتش ١٩٧٨). إن التخليص النموذجى للنص ينبغى أن يكون مؤسسًا على البنية الكبرى macro structure للنص والبنية الكبرى السابقة الاختزان والمبنية على معرفة الأحداث والمواقف فى العالم الواقعى.

أما دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) فإنهما ينظران إلى مباشرتهما الخاصة للغويات النص بوصفها نشأت عن آرائهما ويريان أن معظم الدارسين للغويات النص ينبغى أن يلجأوا إلى الإحالة إلى عوارض نوعى البنية (الكبرى والصغرى) بالنسبة لهذه العوارض، وإلى عالم معرفة المتكلمين (انظر التعميم وعلم اللغة النفسى). ويقصد دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص ٣١) بلفظ Procedural Approach مدخلاً إجرائيًا إلى الموضوع يشتمل على وصف استعمال مختلف المستويات. ويعرفان النص (نفس المرجع ص ٣) بأنه حدث اتصالى يخضع لسبعة مستويات نصية هى السبك cohesion والتعليق coherence وكلاهما يرتكز على النص، ثم القصد intentionality والقبول acceptability والمعلومية informativity والموقف situationality والتناص intertextuality وكلها مما يعتمد على مستعمل النص. هذه المستويات السبعة الموصوفة بعد قليل تعمل عمل المبادئ التكوينية التى تحدد وتخلق الاتصال. أضف إلى ذلك ثلاثة مبادئ تنظيمية على الأقل سيأتى وصفها فيما بعد تعمل على بدء الاتصال النصى (انظر Speech Act Theory من أجل الفرق بين المبادئ التكوينية والمبادئ التنظيمية، هذه المبادئ التنظيمية هى الكفاءة efficiency والتأثير effectiveness والمناسبة appropriate ness.

المبادئ التكوينية للاتصال

السبك

Cohesion

إن أهم علم تناول السبك باللغة الإنجليزية هو ما قدمه هاليداى وحسن (١٩٧٦)، ولكن ما قدمه ياكوبسون (١٩٦٠) من تأكيد فكرة التوازى بين

الأصالة Paterning وبين التكرار فى النص (انظر Stylistics) هو أول تطور مفصل لفكرة السبك cohesion (انظر ٢١ w ١٩٨٠ Closs Traugottand Pratt). إن السبك يختص بالطريقة التى تكون بها العناصر اللغوية المتوالية التى يتكون منها النص ذات معان يتصل بعضها ببعض على أساس من القواعد النحوية بطرق أربع (هاليداى ١٩٨٥ الفصل التاسع). تلك الطرق هى: الإحالة والحذف (ويشمل الاستبدال) والأدوات الرابطة والنظم المعجمية.

ويمكن للإحالة أن تكون من نوعين: ١ - إحالة إلى خارج النص exophoric لعنصر من عناصر العالم، نحو (انظر إلى هذا). ٢ - إحالة إلى عناصر من النص endophoric إما عن طريق cataphora بالإحالة إلى الأمام مثل "فى البيت الذى بناه يعقوب" إذ تشير أداة التعريف إلى عبارة "الذى بناه يعقوب"، أو عن طريق anaphora أى إحالة إلى الخلف كما فى: "بنى يعقوب بيتا وذلك فى مزرعته إذ يشير لفظ ذلك إلى بناء البيت". أو تكون الإحالة إشارة لذات مفردة معهودة فى الموقف homophora مثل "كانت الشمس طالعة" أو "هى أطعمت الهرة". أما وسائل الإحالة فهى الضمائر الشخصية والإشارات التى تحيل بصحبة الضمائر co refere وصيغ المقارنة comparatives التى تدل على التقابل.

ويشير الحذف للإحالة إلى ماض ana phorically كما فى عبارة: "اختر ما شئت" (مع سبق ذكر بعض المعروضات). إن العناصر التى تخلق التواصل بين أجزاء السياق هى عناصر السبك بين أجزاء من النص. وهناك ثلاثة أنواع حسب ما يقوله هاليداى (فى نفس المرجع):

١ - التفصيل ilaboration بواسطة الضم apposition إما عن طريق التقابل expository مثل "أو بعبارة أخرى" أو بالتمثيل كما فى "فمثلاً" أو بالإيضاح clarification عن طريق التصويب كما فى or rather "أى على الأصح" أو

بصرف الانتباه distractive كما فى incidentally أى بالصدفة أو التعميم dismissive كما فى "in any case" أو التخصيص particularizing كما فى particularly أوin particular. أو على معنى التكرار resumptive كما فى as I was saying أو معنى الاختصار summative كما فى in short أو عمليًا verifactive كما فى actually.

٢ ـ التشريك، وتحته معان فرعية مثل: الإضافة addition; كما فى and nor والاستدراك adversative كما فى but والاختلاف variation وتحته ثلاثة معان هى: الإبدال replasive كما فى instead و on the contrary والاستثناء subtraction كما فى except والتخيير alternation كما فى alternatively.

٣ ـ التعزيز inhancement ومن فروعه الظرفية المكانية أو الزمانية مثل: here أو before والطريقة manner كما فى الإحالة reference والتعليل causal conditional; كما فى therefore أو matter كما فى in this respect.

ويسمى دى بوجراند ودريسلر (١٩٩١ ص٧١ ـ ٧٣) هذه العلاقات junctions كما يسميان طرق الإشارة بها junctive expressions ويفرقون من هذه التعبيرات بين أربعة أنواع رئيسية:

١ ـ اتصال junction وهى علاقة إضافية تجمع بين أمور ذات حالة مشتركة مثل أن يكون الأمران كلاهما صحيحين فى عالم النص (انظر بعد ذلك مبدأ التعليق coherence) ويشار إلى العلاقة بينهما بلفظ and و moreover و also و in addition و desides و furthermore.

٢ ـ انفصال disjunction وهى علاقة تربط بين أشياء ذات وضع اختيارى alternative مثل شيئين لا يشتركان فى الصواب فى عالم النص، ويشار إليهما بألفاظ or و Or / either و whether or not.

٣ ـ مصادر الربط conjunctions وهى علاقة تـجمع بين أمور ذات وضع مشترك. ولكنها تبدو متعارضة أو متباينة فى عالـم النص مثل علة cause ومعها أثر غـير متوقع منها. ويشار إليها بألفـاظ منها: but و however و yet و never the less.

٤ ـ التبعية subordination وهى تربـط بين أشياء يتوقف وضع أحدها على وضع الآخر (مثل اعتماد وقـوع الـحدث على حدث سابق أو اعتماد وقوع الـمعلول على العلة). والألفاظ الـمعبرة عـن ذلك هى: since و as و thus و while و whenever و after و before و next و then و on the ground that و if و during.

ويأتى السبك الـمعجمى lexical cohesion من خلال التكرار repetition والترادف synonymy والتوارد collocation على حين تـميل الإحالة reference والـحذف ellipsis والترابط conjunction إلى ربط عبارات متقاربة الـموقع فى سياق النص. ويبدو من السبك الـمعجمى أنه تـجمع بين أجـزاء أكـبر من ذلك فى النص (ولكن انظر إلى نماذج الـمناقشة فى موضوع التعليق coherence بعد قليل).

يعد يوجين وينتر Eugine Winter أحد الكتاب المفكرين ذوى العطاء Prolific فى موضوع العلاقـات بين عبـارات النص (هويى hoey ١٩٨٣ ص ١٧). ويمكن لعمله فى دراسـة العـلاقات بـين العبـارات Clauses فى معظمه أن يقسم إلى قسمين رئيسيين : فهو من جهة اهتمام بوضع الـجملة فى مـحيط ما يتصل بـها من جـمل النـص ويظهر كيف يمكن لما لـها من البنية النحوية والـمعنى أن يتم شرحها لو أن الـموقع الأكبر كان موضع اختبار. ومـن جهة أخـرى يبدو اهتمامـه بأن يكشف عن تنظيم العبارات فى مـجمل السياق دون التركيز فيه على أى جـملة بخصوصها.

وفى مجرى آخر مشابه يفرق دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص٧٩) بين المدى القصير والمدى الطويل الممتد من مسافات سطح بنية النص. وأول هذين المديين ينشئ نماذج من الاعتمادات النحوية التى تجمع بين مكونات السياق، على حين يخلق ثانيهما إعادة استعمال العناصر أو النماذج السابقة (انظر أيضًا فاندايك ١٩٧٧ ص٩٣).

أضف إلى ذلك كما يشير هويى (١٩٨٣) أن تعريف وينتر (١٩٧١) بالعلاقات الوثيقة بين العبارات بوصفها إجراءات معرفية يمكن بها شرح معنى الجملة أو مجموعة الجمل فى النص فى ضوء ما يحيط به من جملة أو عدد من الجمل ودلالة على أن حسن السبك النحوى غير المشار إليها لا تعد إحدى العلاقات.

إن معظم الذين يكتبون عن السبك (انظر مثلا هاليداى وحسن ١٩٧٦) يؤكدون أنه من صنع القارئ على أساس من طرق التأشير. ومع ذلك فإنه بالنظر إلى قوة التأكيد التى استعملها وينتر وكذلك هويى بالنسبة لتأكيدهما على النماذج الكبرى من البنيات العامة نجد القارئ يستطيع بناءها جزئيًا فقط على أساس من طرق السبك لأن عملهما تجرى مناقشته فى الكلام عن التعليق بعد قليل.

إن دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص٨٠) يضمان ما يلى إلى طرق السبك الطويلة المدى (قارن ما ضمه هاليداى إلى طرق السبك المعجمى التى سبق ذكرها):

التكرار recurrence إعادة ذكر المادة.

التكرار الجزئى partial recurrence استعمالات مختلفة لعناصر اللغة المستعملة ذاتها (أصول الكلمات).

التوازى parallelism إعادة استعمال البنيات مشتملة على مادة مختلفة.

التفسير paraphrase مساواة فكرية تقريبية بين مادة مختلفة فى الظاهر.

الشكليات proforms عناصر مختلفة فارغة تستعمل للمحافظة على مستوى عناصر شائعة أكثر امتلاء وإعادة استعمال بنيات نحوية أساسية.

الحذف ellipsis إباحة إزالة بعض المكونات النبيوية على شرط إعادة المحذوف من نقطة ما فى النص.

التعليق

Coherence

يتصل التعليق بالطريقة التى يحدث بها الوصول إلى ما يتم به عالم النص، وهو مجموع الأشياء التى يدور حولها النص. ويفترض فى عالم النص أن يكون مكونًا من أفكار وعلامات، وتعرف هذه الأفكار والعلامات فى جملتها بأنها صورة معرفية (أو محتوى معرفى) يمكن أن يستعاد أو ينشط فى الذهن فى وحدة أو مناسبة أو علاقات تمثل اتصالاً بين الأفكار التى تظهر معا فى عالم نص ما (انظر دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٤). ويمكن لهذه العلامات الأكثر شهرة أن تصنف فى مجموعتين فكريتين رئيسيتين هما الغائية والتوقيت.

١ ـ **الغائية**: أما مجموعة العلاقات الغائية فتتصل بالطرق التى يمكن من خلالها لموقف أو حدث ما أن يؤثر فى موقف أو حدث آخر، وتقع هذه العلاقات الفرعية فى أربعة أنواع:

* **العلة**: cause "قذف زيد الكرة بشدة حتى طارت فوق السور" هنا نرى قذف الكرة بشدة يؤدى إلى شروط ضرورية من أجل طيران الكرة فوق السور.

* **التمكين**: enablement "استلقت الهرة بهدوء فى الشمس فزحف الطفل

إليها بخفة وشد ذيلها" هنا توجد علاقة أضعف مما سبق بين حدث استلقاء الهرة وحدث زحف الطفل وجذب الذيل، لأن الحدث الأول وإن كان كافيًا sufficient لا يعد شرطًا ضروريًا necessary لإيقاع الحدث الثانى.

* السبب: reason "من أجل انشغالى بكتابة نحو النص طول اليوم أستحق أن استريح هذا المساء". فى هذه الحالة يبدو الحدث الثانى استجابة عقلية للحدث الأول ولكنه ليس مسببًا له أو داعيًا إليه بل إنه ممكن بسببه.

* الغرض: purpose "أنت تقرأ هذا لمعرفة لغويات النص". مع أننا فى هذه الحالة إذ نرى الحدث الأول يجعل الثانى ممكنًا نجد مساحة إضافية تجعل الحدث الثانى نتيجة مقصودة للأول.

٢ ـ التوقيت: time هذه العلاقة تختص بترتيب الأحداث فى مجرى الزمن. فأما بالنسبة للعلة والتمكين والسبب فثمة حدث سابق يقف علة أو داعيًا للتمكين أو سببًا لحدث آخر يقع بعده، فيمكن أن نقول إن التقدم فى الزمن forward directionality جعل الحدث الأول مؤثرًا فى هذه العلاقات الثلاث. أما فى حالة علاقة الغرض فإن لها تأثيرًا رجعيًا backward directionality من حيث نرى حدثًا متأخرًا يمثل غرضًا مخططًا لحدث متقدم.

يقسم وينتر Winter من جهته العلاقات التركيبية clause relations إلى كبرى (ويقصد بها التتابع المنطقى logical sequence، وصغرى والمقصود بها علاقات التناسب matching حيث تكون علاقات التوقيت هى الشكل الأساسى (انظر: Hoey ١٩ ـ ١٩٨٣). وكلا هذين النوعين يخضع على أى حال لعلاقة أساسية أكبر هى علاقة الموقف التى تمثل ناحيتين هما إدراك العالم knowlng والتفكير thinking. حقًا إن كل العلاقات يمكن اختصارها إلى هذين العنصرين الأساسيين (نفس المرجع ـ ٢٠)، أما دى بوجراند ودريسلر فلا يقدمان بصراحة مثل هذا العرض القابل للاختصار.

١ ـ علاقات التتابع المنطقى logical sequence relations وهى علاقات بين الأحداث المتوالية سواء كانت واقعة أم ممكنة الوقوع، وهى:

* الشرط ـ النتيجة condition - consequence (وتتلخص فى إذا.... إذن).

* الواسطة ـ الإنجاز instrument - achievement (وتتلخص بواسطة باء الجر... ومدخولها).

* العلة والمعلول cause - consequence (وتتلخص فى لأن... ف...).

٢ ـ أما علاقات التناسب matching relations فإحداها علاقة تقابل contrast (يعبر عنها بعبارة: على أى حال...) والأخرى علاقة تلاق compatibility (ويعبر عنها بكلمة: كذلك...).

إن أهم ناحية فى عمل وينتر Winter (وهى توحى بقوة أن عمله هو وهويى Hoey) ينبغى أن ينظر إليه بوصفه مساهمة فى فهم المقصود بالتعليق أكثر من فهم المقصود بالسبك، هى الإصرار على أن هذه العلاقة الوثيقة لا يمكن ببساطة أن تفهم من علامة نصية سطحية. وينبغى لهذا طبعًا أن يكون واضحًا لأى شخص يسعى إلى القوائم المختلفة التى يضعها القراء للإشارة إلى الوسائل لأن الشىء نفسه غالبًا لا يوضع فى صورة إشارة إلى علاقات متعددة (انظر مثلاً هاليداى وحسن ١٩٧٠ ص٢٤٢ ـ ٢٤٣).

على أى حال نرى أن الذى يؤكده ونترWinter بالضرورة هو أن الألفاظ المعجمية الأخرى بالإضافة إلى عبارات الاتصال تعيد القارئ إلى اتخاذ قرار بالنسبة إلى أى علاقة سبق منحها علامات تعبيرية للاتصال. إنه يقسم العبارات الاتصالية الأصلية إلى مجموعتين تقليديتين إحدهما فرعية Subordinate تسمى مجموعة المفردات الأولى والأخرى للملحقات Conjuncts وتسمى مجموعة المفردات الثانية، ولكنه يضيف إلى هذه طائفة الإشارات المعجمية lexical

signals ويسميها مـجموعة الإشارات الثالثة. إن نفس العلاقة يمكن أن يشار إليها بلفظ ينتمى إلى أية واحدة من الـمجموعات الثلاث. فعلاقة الأداة ـ النتيجة instrument - achievement يوصل إليها بأى واحدة من العبارات الشارحة الثلاث التالية :

* "بدعوة العلماء والفَنِّيِّن إلى تأييد حزبه استولى مستر ويلسون على كثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "مستر ويلسون دعا العلماء والفنيين إلى تأييد حزبه وبهذا فاز بكثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "إن دعوة مستر ويلسون العلماء والفنيين إلى تأييد حزبه كانت أداة لكسب تأييد الطبقة الوسطى".

فالعلاقة فى المثال الأول عبر عنها بألفاظ المجموعة الأولى، والعلاقة فى المثال الثانى بألفاظ من الثانية، والثالث من الثالثة. إن مفردات الـمجموعة الثالثة لا تقتصر على الـمساعدة فى الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الـجمل فى فقرة ما، بل تعين على الإشارة إلى النظام فى عبارات هى أطول ما فى مجموعات الخطاب ويلفت ونترWinter الانتباه إلى مثال لما بسميه هو "ما وراء التركيب" وهى إشارات معجمية تؤدى مهمة أكبر. ويـهتم عمل هويى أكبر اهتمام بما ذكرنا مما وراء اللغة فيما يتعلق بنظام النص. فهو يناقش نماذج التناسب والنماذج العامة والـخاصة، وعلى وجه الخصوص نماذج حـل المشكلات ويقصد مجموعات العلاقات المنظمة للخطاب.

إن هويى و ونتر Hoey و Winter كليهما يعرضان طريقة التكرار الأسلوبية repetition (انظر أيضًا علم الأسلوب). فكلاهما يربط بين الـجمل بالتكرار ويسهم بالتكرار فى شرح الـجملة والنص؛ لأنه إذا أشتملت جـملتان على أمر

مشترك فإن الذى يلحقه التغير هو الذى يستحق انتباه القارئ، على حين تؤدى المادة المكررة دور الإطار للمادة الجديدة. إن التكرار يدل على علاقة التناسب وعلاقة العموم والخصوص. وربما بدأ التكرار فى صورة بساطة العنصر المعجمى الذى سبق ظهوره فى الخطاب دون وجود اختيار أكثر مما يصلح للإيضاح بالوسائل النحوية، مثل إنهم يرقصون They dance وهى ترقص She dances وربما تبدو فى شكل تكرار معقد يبدو فيه المبنى الصرفى مشتركًا بين أقسام مختلفة من الألفاظ مثل: إنها رقصت She danced ـ الرقص the dance ـ الأحذية الراقصة The dancing shoes

ويمكن للتكرار على أى حال أن يبدو فى صورة استبدال substitution فى نظام هويى Hoey (فى مقابل ما وضعه هاليداى وحسن (١٩٧٦) من اعتبار الاستبدال قسمًا فرعيًا من أقسام الحذف ellipsis (انظر السابق ص ٤٦٣).

إن العلامات التى يستعملها هويى Hoey من هذا النوع من التكرار هى نفسها التى يستعملها هاليداى وحسن (١٩٧٦) (انظر السابق ص ٤ / ٤٦٣)، وأخيرًا يعد التفسير Paraphrase من قبيل التكرار وإن كان التفسير أوضح علامة لعلاقة التناسب matching relation (هويى ١٩٨٣Hoey ص ١١٣).

إن التناسب هو ما يحدث عند مقارنة اثنين من أجزاء الخطاب من جهة تفاصيلها ففى هذه الحالة تسمى العلامة الناتجة باللقاء compatibility التناسبى. وأحيانًا من جهة الاختلاف، وفى هذه الحالة تسمى العلاقة الناتجة بالتقابل contrast التناسبى.

إن الأنواع الوحيدة من النصوص التى تنتظم أحيانًا فى نوع من علاقات التناسب هى الرسائل والقصائد، وتستعمل علاقة التناسب عادة بإحدى علاقات العموم والخصوص. ذلك لأن من المعتاد حدوث هذا عندما تبدأ قطع من

المعلومات فى التعميم الذى يشير إلى التناسب. فأما فى حالة الرسائل فإن اهتمام القارئ بخلفيته المعلومية ربما يؤدى إلى التعميم، وأما فى حالة الشعر فإن تقديم ذلك ربما يكون جزءًا من عملية الشرح.

ويناقش هويى Hoey (الفقرة السابعة من نفس المرجع) نوعين من علاقة عام ـ خاص general - particular ـ أى مثالاً للتعميم generalization وعلاقة الإجمال. بالتفصيل preview - detail وكلتاهما عند وجودهما مع علاقة التناسب matching ربما تنظمان نصًا كاملاً أو فقرات طويلة من المجموع وهو يعرض كيف تبدو جملتان من جمل التناسب (نفس المرجع ص١١٣).

٢ ـ على سبيل المثال لا تشتمل الخريطة إلا على النواحى التى تهم الشخص الذى يستعملها.

٣ ـ وكذلك يكون التخطيط المعمارى منحصرًا فى عرض النواحى المهمة بالنسبة للشخص الذى ينوى تسخير مقاول للبناء.

وسيكون لهاتين مقدمة عامة يصلحان من أجلها أن يكونا نموذجين.

١ ـ من المهم أن نلاحظ أن النماذج الأيقونية يمكن أيضًا أن تمثل بعض الملامح الخاصة بجزء من العالم الذى تمثله هذه النماذج. (الجمل مأخوذة من شواهد ألان جنكن أمثلة تحت المجهر. Computer management إبريل ١٩٧١ـ ٣٨).

أما من حيث علاقة من نوع الإجمال والتفصيل preview - detail فإن عضو التفصيل من العلاقة يقدم معلومات عن عضو الإجمال أو عن جزء منه. ويمكن للتفصيل أن يدخل فى علاقة تناسب. وأدق عضو للتفصيل هو التعريف. وتبدو الجملة الأولى فى المثال التالى فى وضع الإجمال وتبدو الثانية والثالثة فى وضع تفاصيل تناسبية.

(١) إن الكلمة الدنماركية Higgelig مثيرة للانتباه، ولكنها صعبة بالنسبة

للسيطرة عليها من قبل المتعلمين الأجانب للغة. (٢) فهى من جهة يمكن استعمالها فى مواقف يحس المرء فيها بالراحة فى مكان دافئ أنيق snug مع الإحساس بأنه فى داره. (٣) ومن جهة أخرى يمكن استعمالها فى الكلام عن شخص يجعل المرء يحس بأنه مستريح وفى داره.

إن النموذج الصادق للخطاب على أى حال هو: المشكلة.. نموذج الحل the problem solution pattern، ويمكن التعامل مع عدد من النصوص بوصفها مطابقة لنموذج: موقف situation ـ مشكلة problem ـ استجابة result ـ Evaluation ـ response ـ تقويم.. نتيجة، مع العود إلى استجابة. أى أن الاستجابة ربما تكون سببًا فى مشكلة جديدة تتطلب استجابة جديدة. إن هويى Hoey يقدم مثالاً لذلك فى الشكل الإيضاحى الأول المنقول عن (Hoey ١٩٨٣ ـ ٥٣). النموذج يمكن أن يتضح بواسطة الاستفهام فبعد كل من الجمل فى النموذج رقم ١ قد يسأل القارئ سؤالاً مثل: ما الذى حدث إذن؟ وماذا استطعت أن تفعل عند ذلك؟ أو يمكن أن يكشف عن النموذج قد يكون بواسطة التفسير مع استعمال إشارات معجمية (نفس المرجع المذكور).

موقف — كنت أقوم بواجب الحراسة

مشكلة — رأيت العدو يقترب

استجابة:
- مشكلة داخلية:
  - حاولت أن أطلق عيارا
  - فحال عيب فى البندقية دون ذلك
- استجابة داخلية — بقيت هادئا ـ ووضعت بها قطرة زيت
- تقدير شخصى — تصرف ناجح
- بمسئولية شخصية — أطلقت النار.

تقدير الموقف: تغلبت على الهجوم

إن الوسيلة التى تم التغلب بها على الـهجوم كانت هى فتح النار، وكانت علة فتح النار هى رؤية العدو يتقدم، آما مناسبة رؤية العدو وهو يتقدم فهى القيام بـواجب الـحراسة، إن الإشـارة الـمعجمية الـمستعملة فى التفسير يمـكن أن تكون الـمصطلحات فى النموذج نفسه (نفس الـمرجع). فلقـد كـان الـموقف قيام الـحارس بـواجب الـحراسة عنـدما رأى العـدو يتقـدم فحلت هذه الـمشكلة بفتح النار. فهـذا الـموقف أدى إلى النتيجة الـمطلوبة وهى التغلب على الـهجوم.

ويستخلص هويى (ص٥٧ ـ ٥٨) أربع مـجموعات من حالات التخطيط تبدو منها العلاقة بين عنصرى الـمشكلة.. الـحل والعلاقة بين التراكيب:

١ ـ سوف نفترض وجود جزأين من خطاب "أ" و"ب" حيث يقول الغرض بالنسبة إلى "أ" إن العضو الأول قد وضع وضعًا مستقلاً منذ البداية وإن الثانى يشتمل على دور نائب ويقوم بدور الاستجابة.

٢ ـ سنفترض أن هذه أجزاء من الخطاب (الأول والثانى والثالث) يقع الأول والثانى منها فى علاقة أداة.. إنجاز أو أداة.. غرض إذ يكون الغرض مساويًا تقريبًا لعلاقة أمل.. إنجاز التى لم يكن العضو الأول منها منظورًا إليه بوصفه مشكلة مستقلة.

وبالنظر إلى هذه الظروف نجد أنه لو كان الثانى فى وضع نائب والثالث بمنع الرجوع.. والتجنبات.. وتـجنبات الضرر أو طلب مساعدة فى الـمنع إلخ فإن بعض النواحى الضرورية تكون مشكلة والثانى استجابة.

٣ ـ سنفـرض أن جزأيـن فـى خطـاب كانـا فـى علاقـة علـة.. نتيجـة وأن أولهما لـم ينشـأ نشـأة مستقـلة بوصـفـه مشكـلة فـإذا اشتمـل الـثانى عـلى وضع نائـب وكـان هـذا الثانـى أيضًا مانعًا للرجـوع والتجنبـات أو تـجنـب الـضرر

لبعض النواحى الضرورية فى الأول فإن الأول مشكلة والثانى استجابة cause - consequences.

٤ ـ سنفترض نفس الافتراض من أجل شروط تخطيط الثالث. فلو أن الثانى اشتمل على وضع نائب واستطاع أيضًا أن يلحق به المركب الثالث.. غرض الذى يرفض فهما عاميًا لما يدل عليه الثانى بالإضافة إلى ثالوث حديث التكوين بالمطابقة لشروط التخطيط رقم ٢ فإن الأول عندئذ يكون مشكلة والثانى استجابة.

إن مقاربتى هويى و وينتر تختلفان عن مقاربة دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) وفانديك وكيتش (١٩٧٨) ببقائهما إلى حد ما على خدمة الخطاب (ولو أنهما يشيران إلى سطح أدوار عميقة مثل "نائب" agent كما كان فى المقاربة السابقة. وفى عدم توكيد الإجراءات السيكولوجية للفهم وإدراك البنيات الكبرى).

بالعكس، انصب التوكيد على الطرق التى يكون فيها سطح الخطاب (غير منطو بطبعه على ضرورة أن يكون مقابلاً للأعماق المختفية) مشتملاً على أدلة كافية تقود القارئ أو المستمع إلى إدراك تنظيم الخطاب إدراكًا دقيقًا.

إن لهذا ميزة تتمثل فى أن الظواهر الموصوفة يمكن إدراكها مباشرة إلى حد ما على حين نرى الإحالة إلى الأفكار والعلاقات فى عالم النص وإلى التنظيمات تظل ذات طبيعة افتراضية. ومع ذلك تظل المقاربتان فى أحسن حال بوصفهما بنيتين سطحيتين متكاملتين وهبهما اللغويون عملاً تفصيليًا فيما حول السبك.

Cohesion والتعليق coherence ومع ذلك قد يكون من التفكير السطحى أن نظن أن الإجراءات الفكرية للقراء والمعارف المتصلة بأمور مختلفة فى العالم غير ذات أهمية فى فهم النص. بل يمكن أن يكون مما يثير النقاش أن الفائدة

العظيمة لمشكلة حل النماذج فى مجال تحليل النص هى أنها تتناسب عن قرب مع إجراءات الكاتب والقارئ الفكرية التى يشير إليها دى بوجراند ودريسلر (١٩٨١) فى الكلام عن الشروط الخمسة الباقية للنصية.

القصد: Intentionality

يتصل القصد بنية منشئ النص أن ينتج نصًا ذا سبك وتعليق ليصل إلى ما خطط للوصول إليه. ويستند منشئ النص ومستقبلوه إلى مبدأ جريس Grice للتعاون فى سبيل الخطاب، ولكن علم لغة النص يضيف إلى تضمين المحادثة أن مستعملى اللغة يهدفون إلى غرض (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ص١٥٣ و ٣ ـ ١٥٢). والتخطيط للخطاب يقتضى حلاً مشتركًا للمشاكل problem solving من جانبى المنشئ والمستقبل كليهما إلا أن الاتصال الناجح يتطلب تطلبًا واضحًا القدرة على تتبع أو استنتاج الأغراض على أساس ما يقول كلاهما. وينبغى لمنتجى النص على أسس الشعار نفسه أن يكونا قادرين على توقع استجابات المستقبلين له لحظة استقباله والبناء على نموذج داخلى من قبل المستقبلين ومعتقداتهم ومعلوماتهم.

القبول: Acceptability

القبول مما يتصل برغبة المستقبل أن يكون النص جيد السبك والتعليق وعلاقته به (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ٧). ويمثل هذا الموقف استجابة لبعض العوامل مثل نوع النص والموقف الاجتماعى أو الثقافى والمرغبات فى بلوغ الأغراض. وسيتحمل المستقبل أشياء مثل سوء المطلع وهو مما يؤثر فى التعليق والسبك كما يستعمل الاستنتاج المبنى على معرفته الشخصية من أجل ضم عالم النص بعضه إلى بعض.

المعلوماتية: Informativity

تتعلق المعلوماتية بالمدى الذى تصل إليه الأحداث المعبر عنها فى النص الحاضر فى مقابل غير المتوقع، أو المعروف فى مقابل غير المعروف

أو غـير الـمؤكد (دى بوجرانـد ودريسلر ١٩٨١ ـ ٨ ـ ٩) ومـن هنـا تأتـى الـحاجة إلى الإحالـة إلى فـكرة الاحتمال prob ab ili ty (نفس الـمرجع ص١٤)، وسيكون الأكثر احتمالاً فى أى موقف بعينه أكثر توقعًا من الأقل احتمالاً. وعندما يـحدث شىء لـم يكن متوقعًا (نفس الـمرجع ص١٤٤) سيكون على مستقبل النص أن يقوم ببحث عن الدافع motivation search (حالة خاصة من حالات حل الـمشكلات) لـمعرفة ما تدل عليـه هـذه الأحـداث، ولماذا تم اختيارها وكيف يمكن أن تـحدث مرة أخرى مع تـحقق الاستمرار الذى يعتبر أساسًا للاتصال.

وإذا لم يأت المستقبل بأى حل فسوف يبدو النص فى صورة كلام فارغ. إن توقع مستقبل النص لما سوف يظهر فى النص يؤثر بقوة فى إدراكه لنوع النص الذى أمامه الآن، فالذى لا يتوقع فى تقرير فنى قد يكون أقل قدرًا من عدم التوقع الـحادث فى قصيدة شعرية. ومما يثير الانتباه أن نلاحظ أن من يصادفون كلامًا فارغًا سيتطيعون فى العادة أن بروا له معنى إذا قيل لهم إن النص قصيدة.

رعاية الموقف: Situationality

لرعاية الموقف صلة بالعوامل التى تجعل النص مناسبًا للموقف السائد عند استعماله (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ـ ٩) مرة أخرى نقرر أن مستقبل النص سيحاول جاهدًا كما ذكرنا أن يحل أية مشكلة ناشئة عن حدوث أمور من الواضح أنها غير ذات صلة بالنص (أى أن مستقبل النص سيشغل نفسه بحل المشكلات ليجعل هذه الأمور ذات صلة بالنص).

التناص: Intertextuality

يتصل التناص بالطريقة التى يتوقف عليها استعمال نص ما على الـمعرفة بنصوص أخـرى. فمثلاً يتوقف معنى علامـة مرور تدعو إلى استئناف السير العادى على أساس ما سبقها من نصوص تطلب من السائق أن يبطئ السير.

فاشتراك النصوص فى اعتماد بعضها على بعض فى ضوء مبدأ التناص هو سبب لتفصيل أنواع النصوص، وهى مجموعات من النصوص تعرض خصائص نوعية ونماذج. إن السخرية بواسطة المحاكاة parodies والعُرُوض النقدية والتقارير والاستجابات لمناقشات الآخرين هى أساسًا وبوضوح معتمدة على التناص. وفى حالات أخرى نجد أنفسنا أقل إدراكًا لقيمة التناص، فعندما نقرأ قصة نجد أنها تبدو كأنها نص مستقل. ومع ذلك نعتمد على تقاليد كتابة النصوص، ونحن نكشف عن معرفتنا بما تتحقق به صفة القصة عند قراءتها.

المبادئ التنظيمية للاتصال النصى

الكفاءة: Efficiency

تتوقف الكفاءة على استعمال النص فى الاتصال بأقل قدر من الجهد بواسطة المساهمة، أى أنها مشاركة فى حالة إجرائية... أى بإجراء عمليات بواسطة حَمْلٍ حِمْلٍ خفيف على الانتباه وبلوغ الغاية (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤).

التأثير: Effectiveness

يتوقف التأثير على أن يترك النص انطباعًا قويًا وعلى إيجاد ظروف مناسبة للوصول إلى غرض فيظهر عمقًا إجرائيًا بمعنى الاستعمال اللغوى لوسائل الانتباه والوصول إلى مادة مأخوذة من عرض الأداء الواضح (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤).

المناسبة: Appropriateness

يقصد بالمناسبة الاتفاق بين تكوين النص وبين الطرق التى تتم بها المحافظة على مستوى النصية. إنها تحدد العلاقة بين الظرف القائم ومستويات النصية، بحيث يكون هناك اعتماد على مستويات النصية مع اعتبار سهولة المشاركة فى الإجراء (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص٣٤). إنها تتوسط بين

الكفاءة والتأثير. اللذين يبدو فى نفس المرجع أنهما يعملان فى اتجاهين متعارضين. ذلك أن اللغة البسيطة والمحتوى المبتذل trite من السهل أن يوجدا ويستقبلا ولكنهما يسببان مللا ويخلفان وراءهما أقل أثر. أما اللغة الخلاقة والمحتوى الغريب (effectiveness) فهما بالعكس يمكن أن يوجدا تأثيرًا قويًا ولكنهما يصبحان على قدر من الصعوبة فى حال الإنتاج والإدراك:

الطبع: Naturalness

من السهل فى مجال لغة النص أن نلاحظ الصلة بين الفقرات فى الحدود الفاصلة بين الجمل، كما نلاحظ أن هذه الصلة تهيئ نماذج كبرى من تنظيم النصوص. أضف إلى ذلك على أى حال إن الإحالة إلى نص يحيط بجملة ما ربما توحى بأن هذا النص يلقى ظلاً على طبيعة naturalness هذه الجملة.

إن مصطلح الطبع naturalness قد وضعه سنكلير Sinclair للدلالة على فكرة جَوْدة بناء الجمل فى النص (١٩٨٤ ص٢٠٣)، وهو فى مقابل ما يفهم عادة بأنه حسن صياغة الجملة وهو ما ينسب إليها عادة عند انعزالها. يقول سنكلير Sinclair: إن كثيرًا من الجمل الحسنة الصياغة لا تبدو عليها صفة الطبع فى نظر أحد المتكلمين باللغة وأنها مادامت تبدو غريبة على رغم جودة تركيبها فإنها تعد مخالفة للقيود التى لا تحتسب بين شروط جودة بناء الجملة (نفس المرجع)، حتى إن جودة البناء ومفهوم الطبع يعدان من المتغيرات المختلفة. إن بعض محددات الوفاء بشروط الطبع توجد فى الخطاب المحيط بالجملة، على حين توجد شروط بناء الجملة فى داخل الجملة ذاتها. ومن هنا تصبح عبارة مثل: "إذا شئت" غير مصوغة بالشروط النحوية التقليدية، ولكنها استجابة طبيعية natural لنوع من الرجاء. إنها تشتمل على ما يسميه سنكلير Sinclair محدد المدى range finder للدلالة على أن عنصرًا من معية النص co - text (أى مصاحب النص) أو من الموقف الذى جرى فيه استعمال النص context سيجعل

من غير الـمشكل إدراك إن العنصر الـمتسوب إلى النص فى هـذه الـحالة هو الرجـاء السابق. إن الدرجة التى نعتد بـها بحسب طبعها naturalness بما سواها من النص أو على الـموقف تسمى الإفراد isolation وهى إحدى ثلاثة معايير parameters يمكن أن يعبر بحسبها عن طبيعة naturalness الـجملة. ويعتمد الإفراد نفسه على الفضلات allowances التى تسمى بذلك لأنـها من عوارض الـحملة على الرغم من أنـها تنسب إلى بقية النص text أو يعتمد على الـموقف context من أجل تـحديدها لا تأثير لـها فى جودة بناء الـجملة. من هذه الفضلات بعض الضمائر كالتى نراها أثقل سوادًا من حروف كتابة الجملة: I wouldn't have bought it if he hadn't been there

(نفس الـمرجع ص٢٠٤). هذه الفضلات فى بنية الـجملة لا تدخل العيب على صوغها ولكنها تشير إلى استقلالـها عما يـحيط بـها من خطاب. وهذا هو موضع توقع اكتشاف مراجع هذه الفضلات أى ما تشير إليه It,, he, there.

وفى مقابل ذلك تأتى جملة: prince Charles is now a husband حسنة الصوغ بحسب الطرق النحوية التقليدية ولكنها ليست جملة طبيعية natural لأن ثمة تعارضا فى الأساس بـين التوقعات الـمتبادلة وبـين البنيـة الـمساوية equative بسبب أداة التنكير وما بعدها من لفظ husband. إن الكلمات الدالة على الـمهنية مثل (sailor) لا تسبب مثل هذا التعارض، ولكن الـجملة تتعارض مع الـمعيار الثانى الذى تصاغ به الـجمل الطبيعية natural وهو ميعار الاصطلاحية - idiomaticity.

لو أن لفظ husband تقدمـه لفظ good مثـلاً لأصبحت الـجملة طبيعية أكثـر مما بدت، والعنصر الذى له هـذا الأثـر على مدخـوله يسمى دعـامة supporter وهو كون العنصر اللغـوى يتطلب الـورود collocation بصحبة يـكون عنصر الحياد neutrality قد تـحقق. وهذا معيار parameter آخر فى الكلام عن الطبع naturalness. وتؤثر الدعائم supporters الـمذكورة وهى الـحياد neutrality

والإفراد isolation والاصطلاحية (أى دلالة المصطلح naturalness) تأثيرًا اصطلاحيًا آخر كما نرى مثلاً فى I am trying to rack my brains (١٩٨٤ ص ٢٠). إن ضعف توقع التوارد بين trying وبين rack my brains يسهم إلى حد كبير فى إيجاد درجة منخفضة من المستوى الاصطلاحى وما يعرض له من عدم الطبع.

ويرجو سنكلير Sinclair أن تؤدي دراسة أوسع لمدى النص إلى الوصول إلى مستويات مضبوطة لطبيعة الجملة (نفس المرجع ص ٢١٠).

إن دراسة الفضلات ستؤدى إلى تحديد بنية نصية مجردة لأى جملة، فدراسة محددات المدى range finders ستؤدى إلى ما يلى:

١ ـ الكشف عن كيفية إدخال كل جملة فى بناء النص.

٢ ـ الكشف عن مدى الظواهر الفردية individual feataures.

أما عن الدعائم supporters فإن دراستها ستكشف الكثير من الحلول لغموض النص وعلى تعيين:

١ ـ عناصر مركبات مثل العبارات phrases.

٢ ـ المدى المسموح به للاختلاف.

إن الدرجات الثلاث من الحياد والإفراد والاصطلاحية ستسمح للجمل أن يقارن بعضها مع بعض وربما تؤدى إلى نشأة بلاغة rhetòric حديثة على مستوى الجملة.

وهكذا يبدو أنه بينما وجدنا أن المدخل النحوى قليل العون فى مجال لغة النص نرى أن دراسة أخرى فى مجال الطبع يمكن أن تضيف أضواء لا على طبيعة النص فقط بل إلى المجال التقليدى للنحو وهو الجملة.

نظرية سيميوطيقية للنصوص

Floyd Merrel

"لن يكون لكتابى مقدمة أقدمه بها لأى شخص. فمثله كمثل أى مؤلف رياضى لا يقترح أفكارًا معينة أو أسبابًا محددة لاعتقاد صدقها، لكن القارئ لو تقبل ذلك وجب عليه أن يكون هذا القبول متفقًا مع ما أقدمه من أسباب، وتقع المسئولية عليه هو".

بيرس (١١ ـ ١ ـ ١٩٦٠)

١٠ ـ إننى أبدأ هذه المقدمة بوصفها طريقة للدخول إلى نظرية للنصوص بمناقشة مضامين البحث التالى. ولست أرى من الضرورى هنا أن أتعرض للكلام فى مدى اتساع نظريات النص وطرق تحليل النصوص. ومع هذا أحس أنه من الضرورى أن أنسب الغرض من هذا البحث بما يتسنى لى من الدقة إلى العمل الحاضر فى هذا الحقل. ومع عقد النية على تحديد اتجاه المنظور المنهجى الذى كونته أرانى أوازن باختصار بين نواحى دراسات تشومسكى وفلسفة اللغة عند فتجنشتاين التى أعانت على إيجاد دوافع لخلق كثير من الأفكار التى تدور حول بناء النصوص واستيعابها. وبعد ذلك أجمع معًا أفكارًا ذات دلالة من السيبرنطيقا ومن أفكار C. S. Peirce التى كان لها أثر فى أفكارى الخاصة. وبهذا تكون مقدمتى قد اكتملت بحيث تبدو فى وضع علامة تشير إلى النص

إذا بدت فى صورتـها التامـة أشبه بالأيقونـة أو بخريطة تـحيرت فى مـجاهلها لعـدة سنوات مضت. وقد يصادف القارئ عددًا من الإشارات غير الـمألوفة ولكن الرحلة فى نهايتها ستمنحه كما أرجو له (أو لـها) رؤية لـهذه الـخريطة فى لحظة قدرة على الفهم.

١١ ـ يقول ليبسكى (١٩٧٦ ـ ١٩١) إنه "مع تداخل الدراسات اللغوية الـحديثة الـمكرر فى مـجال الدراسات الأدبية القصصية حدث تداخل صحى متزايد بين التحليل اللغوى وبين الطـرق التقليديـة للبحث الأدبى". وأنا أخشى مع الأسف ألا يكون هذا التداخل قد أدى إلى نتائج مرضية. إن الـمسألة التى تنتظر الإجابة هى: هـل يمكن للدراسات اللغويـة أن تقـدم نموذجًا مناسبًا لتحليل النصوص؟ لا أستطيع فى هذه الـمقدمة أن أحاول حل هذه المسألة، ومع ذلك سأحاول أن أوضح باختصار كيف تـختلف هـذه الدراسة عن نظريات النص السائدة المختلفة والمستندة إلى الدراسات اللغوية.

ولهذا يمكن أن نقول بصفة عامة إن عددًا من عناصر النظريات المعاصرة حول النصوص يدخل فى نطاق نظرية أنشأتـها أكثر منها شمولاً. والفرق الرئيسى بين هذه العناصر وبين نظريتى هو أن سيميائيات النص (كما استعمل المصطلح) لا تختص اختصاصًا دقيقًا بالنماذج اللغوية والأدبية للنصوص. إنـها تشتمل بصفة عامة على ما هو لغوى وما هو غير لغوى (أى معرفى عام) من نواحى النصوص الـمكتوبة. ولـهذا كان من اغراضى أن أقـدم مـادة جديدة ذات صلة بذلك للعرض على انتباه الذين يعملون الآن فى القيام على نظرية النص على وجه الخصوص.

دعنا أولاً نلفت الانتباه إلى البنيوية الفرنسية. فإذا نظرنا إلى النموذج الثنائى الذى قدمه دى سوسير لـمفهوم العلامة sign وإلى السمات الفارقة distinctive feaures التى جاءت بـها مدرسة بـراغ وكذلك جلوسيماتية هيلمسليف فسوف نرى أن معظم البنيويين الفرنسيين يفهمون الثنائيـة بأنـها الـمبدأ الرئيسى لتحديـد

قواعد العقل الإنسانى. ولهذا جاء (١) افتراض أن المنطق الثنائى binary logic هو الأساس لكل النظم المشفرة coded لغوية كانت أم غير ذلك. إنها تكشف بالمغزى purportedly عن ميل العقل إلى تصنيف العالم إلى هياكل مثنوية تقابلية وإلى بناء رسائل شفرية مشتقة من هذه الهياكل. ولأنهم يستندون إلى هذه الأداة التحليلية وجدنا بارث (١٩٦٦) وجريماس (١٩٦٦ب) وكريستيفا (١٩٦٩) وميتز (١٩٧٤ أ) و(١٩٧٤ ب) وتود روف (١٩٦٩) وآخرين يرهصون بالقول بتطابق شكلى بين النصوص والجمل، ويخضعون موادهم البحثية لطرق وصفية شبيهة باللغويات البنيوية. هذا الفرض يعنى أن طرق الدرس اللغوى يمكن أن تستعمل لتفسير الأدب بصورة منظمة (٢٠ ـ ٢٤ ,Culler ١٩٧٥).

هذا التناول العفوى uncritical للفكر اللغوى قوبل بالاعتراض لأسباب مختلفة (٢) إذا أردنا أن نذكر قليلاً من هذه الأسباب فإن لنا أن نقول إن طرق التحليل البنيوى تميل إلى إنتاج خطط استاتيكية للتصنيف (١٩٧١ Letebvre ١٩٦٨ Ricoeur,)، وأن تبالغ فى استعمال النموذج اللغوى (١٩٧٠ Jamson, ١٩٧٢ Hendriks,)، أو أن تجرد (to abstract) بصورة قصوى شخصيات وأحداث روائية (narrative events) من النص (١٩٦٩ Chatman, ١٩٧٣ Weimann,). أضف إلى ذلك أن بعض التحليلات البنيوية تبدو غير قادرة على تفسير بعض الخصائص المشتركة فى الأدب بين المجاز والتصوير والسخرية والغموض، على حين تفشل تحليلات أخرى فى إدراك العلاقة بين القارئ والنص إدراكًا دقيقًا (١٩٧٥ .(Culler,

ومن منظور يختلف قليلاً ويتناسب مع تحليل بروب (١٩٦٨ ,Propp) للقصص الشعبية يقترح بريموند (١٩٦٦) منطقًا للأعمال السردية narrative actions، ويخترع جريماس (١٩٦٦ ـ أ) منطقًا لوسائل العمل السردى، كما يقترح تودروف (١٩٦٦) طبقات عامة للقصص. هذه الأعمال المنطقية أرسطوطاليسية دون شك (لأنها إما ثنائية الطابع وإما أنها مبنية على

الـموضوع والـمحمول). والـمشكلة أن هذه النماذج البروبية (نسبة إلى Propp) الـمتعلقة بالنص الأدبى الـمركب نسبيًا تـميل إلى الـحد من الطابع الـمركب للخصائص وتـجعلها وظائف للتركيب (تشاتمان ١٩٧٢). أضف على ذلك أن الدراسات الأنثروبولوجية للقصص الشعبى مثل قصص دنديز (Dundes, ١٩٦٤، و جورجى Geovges, ١٩٧٠ وكولبى Colby ١٩٧٠). جاءت أيضًا على طريقة بروب، ولكن مناسبتها للنص الأدبى مشكوك فيها (هندريكس ١٩٧٣). وقد قيل ما يشبه ذلك بالنسبة لليفى شتراوس فى تحليله للأسطورة (دوناتو ١٩٦٧ و بون ١٩٧٢).

باختصار حاول كثير من البنيويين أن يوجدوا طريقة للتحليل يمكن لـها أن توضح الأقسام والوظائف فى النصوص القصصية. ومع ذلك حاولوا بصفة عامة أن يتقدموا بنظريات تـخطيطية مـحدودة عنـد نظرهم فى نصوص مـحترمة إلى حـد ما. ولقد حاولت مع الاحتفاظ فى ذهنى بـهذا الفشل أن أنشـئ تصورًا أوسع لفكرة من خارج علم اللغـة تتناول سيميائيات النص وذلك عكس ما اقترحه بارث (Barthes ١٩٧٠) ذات مرة من أن علم اللغة يعد خطوة إضافية للسيميوطيقا.

فى السنوات الأخيرة وضعت طرق أخـرى للتحليل من خارج صفوف البنيويين. ولنا أن نذكر من أصحاب هـذه الطرق عددًا قليـلاً. فمنهم مثـلاً أوهمان (Ohmann, ١٩٦٧) الذى رأى أن النص يمكن أن يـجد تفسيرًا جيدًا من خلال تـحليل ما به من الـجمل واحدة بعد الأخرى بواسطة التحليل الإفـرادى لكل جـزء واحد من أجزائه. ولقد حاول عدد من الدارسين من أمثال آرتس (١٩٧١ Aarts,) وفاولر (Fowler, ١٩٦٩) وبوتر (Butters, ١٩٧٠) وليفين (١٩٦٢ Levin,) وثورن (Thorne, ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠) وطائفة أخرى أن يدرسوا الأسلوب الشعرى فى حـدود ما يقبله من الترخص فى استعمال اللغة الطبيعية. ثم اتبع ريفاتير

(Riffaterre, ١٩٦٦) طريقة معجمية محددة فى القول بوجود لغة شعرية واحدة. أما هاريس (Harris, ١٩٥٢) ومحللو الخطاب فإنهم يصفون النص بأنه جملة طويلة مبنية بواسطة وسائل ربط. ويذهب جارفين (Garvin, ١٩٦٤) إلى حد القول بأن علم اللغة يهيئ نظامًا دقيقًا للعدد algorithms ضروريًا لتحليل كل صور الفهم الإنسانى. وعند النظر إلى هذا الاتجاه نجد من الضرورى مرة أخرى أن نؤكد أن علم اللغة لا يتحتم فيه بالضرورة أن يقدم إجراء آليًا لشرح كل الظواهر المشفرة (٣). إن الزعم بأن طرق التحليل المستعملة فى علم اللغة يمكن استخدامها مباشرة فى جميع النصوص الأدبية فيه تجاهل لما بينها وبين لغة النصوص، منطوقة أو مكتوبة، من أوجه الخلاف. لقد حدث اهتمام فى الأيام الأخيرة بتناول "نحو النص" من خلال نظريات تخطيطية لإنشاء النصوص باتباع فكرة "المقدرة النصية" text competence (٤). وكان الموضوع المطلوب هو إظهار بديل عن النماذج البنيوية السابقة صالح للنحو التوليدى بتقديم طرق شكلية وكمية للوصول إلى دراسة أوسع وأكثر تنظيمًا للنص الأدبى. ومع ذلك نرى صور نحو النص كما صورها تشومسكى هى فى عمومها تلفيقات تجريدية ليس لها إلا القليل من الفائدة فى نظر دعاة التحليل المهتمين بالدراسات الفنية المتماسكة.

أضف إلى ذلك أن أنصار نحو النص إذ يرفضون الطابع الاستاتيكى الجدولى لتصنيفات البنيويين الأصوليين يرتكبون فى العادة خطأ آخر من حيث يرتضون مع البنيويين أن يحل نموذج لغوى (أحيانًا بلا بصيرة) محل آخر. ولاشك أن بعض العناصر اللغوية يمكن أن تقدم أسسًا لبناء النص (هاليدى وحسن ١٩٧٦، ومير ١٩٧٥). بل يمكن للقواعد أن تراعى حتى تئول فى النهاية إلى تحديد البنية النهائية للقصص (Chatman, ١٩٧٨ Prince, ١٩٧٣ Rumelhart, ١٩٧٥) ولكن ذلك لا يكفى للتأكد من أن النماذج اللغوية المطبقة بدقة ستكشف عن البنية التحتية للنصوص (٥).

إن المشكلة التى تكمن فى الصور الأولى لنحو النص أن أصحابها ركزوا انتباههم أولاً على النواحى النحوية فى النصوص، أو على الدلالات التأويلية تبعًا لكاتز وفورد وتشومسكى. وفى هجمة أخرى لاحقة ضمن عمل مانتاجيو Montagu لإنشاء وسائل للوصف النحوى ودراسات للعلاقات بين التوليدية والـمنطق ربما يكون هذا قد ساعد فى علاج جزء من هذه الـمشكلة (٦). وفى خلال عدد من السنين القليلة الماضية كان هناك اهتمام بالناحيـة الـذرائعية Pragmatic للسرد فى ظل نفـوذ نظرية التكلم (see van Dijk, ed,١٩٧٦). إن فاندايك نفسه يفهم أن هذا التغير فى الاتـجاه كان نتيجة لإدراك أن كثيرًا من خصائص الـجمل وصور الخطاب وكمية من الاتصالات الشفوية بصفة عامة لا يمكن الكشف عن سببها بواسطة النظريات النحوية العادية. ويستمر فى رأيه حتى يقترح أن ما يحتاج إليه الأمر هو "الـمكون الـجدولى" الذى يمكن به للقواعد والشروط والقيود أن تصاغ بالاعتماد على خصائص نظامية للتكلم والنصوص الاتصالية (فاندايك، ١٩٧٦ ـ ٧).

على أى حال لابد من القول إننى أتـحاشى التورط فى معظم نظريات التكلم speech acts وواضعى البرامج والذرائعيين pragmatists من حيث يميلون إلى توجيه انتباههم أولاً إلى الـمتكلم ونواياه فى التكلمُ. أما أنا فإن انتباهى يرتكز بصورة مباشرة على السامع أو القارئ. أضف إلى ذلك (فاندايك ١٩٧٧ ـ أ، و ١٩٧٧ ـ ب، و١٩٩٨) دعوى أن الاهتمام الـحاضر بالعمليات الإدراكية للخطاب يستند أساسًا إلى ما يذكره القارئ من الأحداث التى اشتمل عليها القصص أكثر من أن يكون مـحاولة لفهم كيفية استنتاج القارئ للمعنى من خلال النص. هذه العملية الأخيرة سوف تكون غايتى فى هذا الكتاب.

١٢ ـ يـهيئ هذا القسم خلفيـة تكونت فى هـذه الدراسة هى أن النموذج المناسب لتكوين النص وللإدراك الـحسى Perception يـجب أن يشتمل على

وصف شكلى للقدرة الإنسانية على اتباع (ولكن أيضًا تغيير) قواعد عرفية تشبه ما قال به فتجنشتاين من استعمال اللغة وبناء النص. وطبقًا لفرضيات رآها تشومسكى (Chomsky,١٩٦٥) يمتلك جميع الناس قدرة ذاتية على استبطان لغة ما واستعمالها فى الكلام. ولن أحاول الجدال لدعم هذه الفرضية أو معارضتها، ولا أن أكون مهتمًا مباشرة برأى تشومسكى بالنسبة للمقدرة اللغوية (Language Competince). ولكننى على كل حال أزعم أن استعمال اللغة يخضع لمجموعة ما من القوانين العرفية ذات الطابع الثقافى التى تفرض المكان والزمان والكيفية التى تنطق بها الجمل، على حين تقرر المقدرة اللغوية قيودًا نحوية ودلالية معينة على ما ننطق به.

ويبدو التعارف الجماعى فى البداية شبيها بما قال به فتجنشتاين من فكرة "المباريات اللغوية" فى حدود "صور جماعية للحياة" يمكن أن تشتمل على مجموعات افتراضية من الطرق الضمنية لنسبة معان للكلمات المستعملة يوميًا فى عملية التكلم (٧). طبعًا لم يدّع فتجنشتاين مطلقًا أن ما يقول به من عرفية استعمال اللغة يفهم على طريقة تشومسكى بأنه شامل وذو طابع عضوى. ومع هذا يبدو كأنه يشير إلى أن أفكارًا من قبيل استعمال اللغة والقواعد والقوانين تعد مظاهر خارجية لأمور لم يتم تحديدها بعد، أو مجموعة من الاحتمالات أو النزعات التى تضبط تكوين الأعراف ذات الأساس الثقافى لتحكم فى أمر ما يقال أو يرد على الخاطر وما لا يقال أو يرد (Disko,١٩٧٦ Pole,١٩٥٨). وسوف افترض فى هذا المجال أن نشأة أعراف مشتركة لاستعمال اللغة يجب أن تكون نتيجة لاحتمال لم يكشف عنه بعد.

لهذا استعمل ما أعتقد أنه المظاهر الضرورية لاحتمالات تشومسكى وفتجنشتاين. ولكننى أحاول ألا أخلط بينهما. وكما أرجو من وجهة النظر العملية أن يتضح فى مجرى هذا البحث أرى أن الفرضين يكمل أحدهما الآخر

بصورة ما، لا أنهما مجرد متناقضين. وبناء على ذلك لا ينبغى أن يخضعا للمقارنة بمستوى واحد (٨). فإذا قورنا على هذا المستوى الواحد فسوف يحدث اختلاط بينهما فى الفهم. وهذا الاختلاط يشبه ما يسميه رايل (Ryle,١٩٤٩) "خطأ فى التصنيف" بالخلط بين كيانين أو أكثر منفصلين فى العادة، أو أقسامًا من هذه الكيانات.

ويلمح فتجنشتاين مثلاً إلى نزعة إنسانية غير معينة تتبع القوانين المحددة ثقافيًا التى تحكم المعنى، على حين يحاول أن يصف استعمال هذه القوانين بألعابه اللغوية الغامضة الحدود. ويعتقد تشومسكى على العكس أن من الممكن أن نكوّن بوضوح مجموعة من قواعد نحوية عامة مأخوذة من طاقات إنسانية خاصة يمكن بها نطق عدد غير محدد أو فهمه من الجمل فى أية لغة طبيعية. كان فتجنشتاين وتشومسكى يتكلمان فى ميدانين مختلفين لا يجمعهما شىء ما. وليس الأمر أن يفترض فى أحدهما أنه سلوكى وأن الآخر عقلانى، أو أن الأسس المعرفية لنموذج كل منهما وطريقته تختلف تمامًا عن ما لدى الآخر. فالأمر المهم هنا أن بؤرة البحث لكل منهما تنبنى على مستويات مختلفة (أنظر Foder,١٩٧٥ ١٩٧٥ Leiber,).

أعتقد أن اختلافًا آخر مثل هذا ألذى بين فتجنشتاين وتشومسكى يجب أن يقوم كذلك بين القدرة على إنشاء أو فهم نصوص مكتوبة فى جانب والقدرة على توليد أو فهم اللغة التى كتبت بها هذه النصوص فى جانب آخر، أى بين سيميولوجية هذه النصوص وبين لغوياتها. إن الفشل فى رؤية هذا الاختلاف يساوى ارتكاب خطأ تصنيفى a category mistake. إن الأسباب التى دعتنى إلى القول بهذا التفريق هى كما يلى:

"اللغة هى الوسيط وليست هى النص"

والخلاف بين المستوى اللغوى للنصوص ومستوى ما فوق اللغة ليس واضحًا فى كل الأحوال؛ لأن كل النصوص المكتوبة إنما تكون بالضرورة نتيجة

لاستعمال اللغات سواء كانت هـذه اللغات طبيعية أم مصنوعة. ولسوف أجادل على أى حال بأن النصوص ليست قابلة للنزول إلى المستوى اللغة، ولا يمكن لمجموعات من الأقوال فى النصوص أن تدرس درسًا مناسبًا بنفس الطريقة المستعملة لدراسة مجموعات من الجمل. وكما جرى التأكيد من قبل تواجه هذه الدراسة ما رآه عدد من البنيويين الآخرين الذين يمنعهم اعتقادهم أن النماذج اللغوية تـحول دون تعليل الـخلافات الأساسية بين اللغات والنصوص. إن النصوص تستعمل اللغة لكشف (على مستوى الوعى أو عدم الوعى، وبقدر من الطاقة غير الـمحدودة إلى الآن) عن أفكار جديدة ومفاهيم وآراء ورغبات وعواطف تدور حول العالم وحول النصوص الأخرى. إن تـحقيق ذلك يؤدى أيضًا إلى عيب فى اللغة، مثل إيجاد معان جديدة وصور جديدة للمجاز فى التعبير اللغوى (٩).

"يجب أن توضح النصوص مظهر الحداثة"

ويبدو فى كل نص من النصوص ما يوضح درجة ما (أكبر أو أصغر) مما يوجد من الخلاف بينه وبين كل نص آخر، وإذا لـم يكن هنالك خلاف كهذا فإن النص لن يثـير الكثير من الاهتمام لـدى القارئ. وبـهذا الـمعنى يـجب لكل النصوص أن تبدى على الأقل مظهر الـحداثة. هذا الـمظهر الـموحى بحداثة النص هو النتيجة الـمناسبة للطابع الـمجازى للتعبير الـمختفى وراء الـمظهر اللغوى للنص، وهو ما أريد أن أسميه "النظام الرمزى" للنص. إن الـحداثة التى توجد مثلاً فى النصوص العلمية ستنبنى على مناقشات جادة وبناء افتراضات ونماذج بواسطة البديهيات والقضايا والعبارات الاستدلالية، وربما بنيت على عبارات الملاحظات. أما الـحداثة فى النصوص الأدبية فهى على العكس من ذلك مبنية على الـمنظور الجمالى. ولـهذا يمكن القول إن جوهر النصوص الأدبية ذو طابـع ذاتى فى الغالب لا أنه عقلى. وسوف أجادل على أى حال بأنه ليس هنا أية حدود بين

نوعى النصوص السابقة، وهو ما يعد من الناحية الجمالية مبعثًا لارتياح أكثر من أى دليل رياضى مقنع. ومن هذه الناحية ينشأ مظهر الحداثة للنصوص من مصدر إدراكى واحد.

"تعتمد الحداثة على منظور ذى حدود ثقافية"

فالقدرة على بناء مظهر الحداثة أو إدراكه فى جميع النصوص تمثل مقدرة معينة تختلف عن المقدرة اللغوية. إنها لا تستلزم entails قدرة نوعية خاصة لتطبيق القواعد النحوية، ولكنها تستدعى قدرة على خلق الفروق difference والإحساس بها بواسطة وسائل محددة عرفيًا (قواعد) لاستعمال اللغة لإيجاد النصوص، وترجئ defer الطرق العرفية لصوغ الفروق difference وتمييزها بواسطة صياغة مجموعة أخرى من الأعراف. إن الخلط بين المقدرة اللغوية أو الاستعمال اللغوى ذى القدرة العادية على بناء الحداثة النصية وإدراكها وبين إفساد الأعراف الاستعمالية اللغوية المحكومة عرفيًا، هذا الخلط يعد مستوى من الخطأ الذى تكلمت عنه من قبل.

"إن القدرة على إنشاء أو إدراك الحداثة هى نتيجة لآلية إدراكية لما فوق اللغة"

هذه الآلية الإدراكية ليست هى ما يمكن فهمه بوصفه آلية لغوية فطرية. ولو كانت كذلك لكان لنا ميل دائم إلى إنشاء النصوص وفهمها بنفس الطريقة التى تستعمل بها الجمل النحوية الصحيحة لا أن يتم تجاهل الصواب اللغوى لاستعمال وفهم الصوغ الفنى أو العلمى أو صورة أخرى للفهم. إننا نعزم دائمًا على كتابه كلمات أدبية أو قراءتها بطرق عادية لا بكلمات مجازية أو استعارية. إننا ببساطة نتصور أو ندرك بطريقة آلية عددًا غير محدود من الجمل الممكنة، ولكننا يمكن أن نعجز عن إبداع الجديد من الأفكار وعن القدرة على الخلق وتخليق الخيال. باختصار لن يكون هناك إدراك للأسباب المؤدية لمحاولة الخروج من مجموعات ما نستعمله من المعايير.

لهذا سأحاول فى هذه الدراسة أن أبنى نماذج افتراضية واستنتاجية يمكن أن توضح الإدراك الآلى من أجل بناء وإدراك ما لا نهاية له من الفروق فى عدد غير محدود من النصوص على طول مدى من الزمن غير محدود.

١٣ ـ هناك حدس conjecture مصدره النظرية السيبرنطيقية وهو ضمنى فى هذه الدراسة، ذلك أن صوغ النصوص وفهمها يتطلب نوعين متكاملين من الإجراءات: الأول أن النطق بالمعنى اللغوى المثالى يمكن أن يوصف على مستوى من البساطة، وعلى الجانب الآخر تكشف النظم النصية عن مستويات من التعقيد أو التنوع. ومع أن منتهى التقابل والتعارض يمكن كما يقول جاكوبسون (Jacobson & Halle,١٩٥٦) أن يوجد على مستويات بسيطة من التنظيم تقريبًا نجد أنه عندما يزيد التعقيد يبدأ توالى الفروق فى الحلول محل الوحدات المتقطعة فتتخلى هذه الوحدات المتقطعة عن مواقعها للفروق المتوالية (Laszio,١٩٧٢). لهذا يكون للنواحى فوق اللغوية من النظم النصية قسط أقل من الحدود المختصرة، ولكن لها إلى جانب ذلك لبس وغموض وتعدد لاحتمالات المعانى أكثر مما يكون لها من أنظمة اللغة.

ولهذا أيضًا يمكن بصفة عامة أن يقال إن درجة التنظيم والتعقيد تتزايد عندما تتناقص البساطة التركيبية أثناء الانتقال من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى. وهكذا تكون الحال عندما نتقدم مثلاً من الذرّة إلى الجزئ وإلى الكائن العضوى organism، أو بالنظر إلى بحثنا الحاضر من الفونيم إلى المورفيم إلى الجملة إلى النص (Koestler,١٩٦٩ Polanyi,١٩٥٨). وبهذا المعنى ليس من الضرورى أن تتساوى القوانين الدنيا الأقل تعقيدًا التى تحدد الترتيب والتعضية مع القوانين المحددة للنظم الأكثر تعقيدًا (١٠).

أضف إلى ذلك أن هذا التمييز بين البساطة التركيبية والتعقيد التنظيمى يتصل بالفكرة السابقة من أن كل الناس يبدو عليهم أنهم يختلفون إلى حد ما من حيث

طرقهم اللغوية والفكرية. ومخالفة الطرق المعتادة فى ضوء نظرية السيبرنطيقا تحض على مناقشة مختصرة، وإن كانت مبررة، لمبدأ استهلاك الطاقة entropy. وكما يقول القانون الثانى من قوانين الديناميكية الحرارية: يميل النظام الفيزيقى المقفل إلى أن يتجه إلى تزايد استهلاك الطاقة (أى إلى حالة من تزايد احتمالات "الفوضى") (١١).

لو أن أحد نصفى قضيب حديدى جرى تسخينه مثلاً وجرى تبريد النصف الآخر فسوف ينشأ ترتيب نظام يعد وقوعه فى الطبيعة أمرًا غير محتمل تمامًا. ولو فرضنا أن السخونة لم تنته وأن القضيب الحديدى يمثل نظامًا مثاليًا مقفلاً فإن درجة حرارة القضيب بعد وقت معين لن تختلف بين طرف منه وبين الطرف الآخر. فلقد نقص النظام عند وصول القضيب إلى أقصى حالاته. ومن المهم أن نلاحظ بعد هذا المثال البسيط أن: أ ـ القانون الثانى للديناميكا الحرارية يتطلب وجود نظم مقفلة، وب ـ أن زيادة غير طبيعية فى تنظيم أى نظام عضوى تتطلب تدخلاً من لدن نظام بيولوجى (أحيائى). إن الكائنات غير العضوية تختلف عن الأحياء العضوية من حيث المحافظة على وجودها فى حالة متجددة من نفى الاحتمالات، وفى حالة التطور العضوى تتحول إلى نظم متنامية التركيب. ويتحول هذا إلى مقياس لطاقة غير مستفادة entropy.

وتقف كل الأنظمة الحية وقفة التحدى للقانون الثانى للدينامية الحرارية، لكن هذه النظم الحية لا يمكن لها أن تنعزل انعزالاً تامًا. فهى لا تكون أبدًا فى حالة توازن ثابت، بل إنها تنفتح دائمًا على عالمها الخارجى، وتحقق تبادلاً مستمرًا للمادة والطاقة مع هذا العالم. إن النظم المفتوحة لا تتطلب اعتبارات الدوام، بل تتطلب التغيير. وهى لا تتطلب التوازن، ولكن تتطلب الميل فى اتجاه عدم التوازن. وتتجه إلى مستويات متزايدة التعقيد والتغاير والتعضية أكثر مما تتجه إلى أبسط الأحوال الممكنة (١٢).

إن المعرفة epistemology بالنظم الـمفتوحة لا تتطلب الاحتفاظ بمستويات ذات بساطة نسبية فقط (حركة فى اتـجاه الطاقة غير الـمستفادة entropy) بل إن فـكرة الانفتاح تسمح بإمكان إعـادة بناء نظام واحـد أو أكثر، وإعـادة إحكام أنظمة عليـا معقدة (حركة فى اتـجاه عكس نفى الطاقة غير الـمستفادة negentropy).

بـهذا الفهم، وبحسب الاهتمامات الـحاضرة، يمكن القول بأن الـخطط التصورية التى تعودنا بـها أن ننشئ نصوصًا أو نتصورها إنما هى دائمًـا عرضة للتغير. ونحن نحدث هذا التغيير نتيجة للتوتر والارتباك الـمعتاد فى طرق تفكيرنا وتعبيرنا. إن التغير فى خططنا الفكرية وفى بنائنا وفهمنا للنصوص لا ينشأ عن مـجرد توالى تكوين طرق أبسط مرونة لأفكارنا وتعبيراتنا وطرق إدراكنا. فهى أيضًا تـمثل كما سأناقش ذلك تدرجًا فى تعقيد وجهة نظرنا الذاتية فى العالم الـمتفاعل مع البيئة الـخارجية دائمًـا وبصورة مستمرة.

إذن يكون هناك أمران أساسيان مـختلفان تمامًا: أ ـ الأول تزايد البساطة، التقابل semmtry، الانتظام regularity، البناء structure، ب ـ والثانـى تزايد التعقيد العضوى. يمكن أن نسمى المبدأ الأول مبدأ التوازن homeostatic وهو الـميل من خلال نظام مقفل إلى شكل ثابت للتـوازن (Ashby, ١٩٦٠). أمـا الآخر فيمكن أن نصفه بأنه من قبيل التكون الشكلى morphogenetic، أى إظهار دائم لعدد من البنيات الـجديدة بواسطة تـحطيم breachment بنيات أقدم منها، ودوام حالة عدم توازن disequilibria (Maruyama, ١٩٦٣). إن الـحالة الأولى كما حددتـها هى طاقة كـبرى غـير مستفادة large entropic فى اتـجاه حالة اجتماعية متزايدة. وأما الأخرى فإنـها نفى لـهذه الطاقـة فى مواجهة الـوضع السائد. وعلى الـمستوى الأدنى فى كل البنيات النظامية تعد البساطة هى العنصر السائد، أما على المستويات العليا فإن التعقيد التنظيمى يتزايد.

لهذا لا يمكن الإحاطة ببناء أنواع النصوص وإدراكها بواسطة مجرد المعرفة epistemology بالأنظمة المقفلة الثابتة للطبقات اللغوية المتشابكة. والنصوص في طابعها مكونة من جزر ebb ومد flow للأفكار وحالات الحدس، بل حتى من العواطف التي لا يمكن إيضاحها إلا بنموذج يستلزم مجموعة من الاتجاهات التكاملية بين الركود statis والحركة dynamism، والتوازن والتباين، والانقفال والانفتاح، والتفرد الشكلي والمطابقة للنوع.

إن ما سبق يقودني إلى اعتقاد أن النموذج المناسب لبناء النص وفهمه يجب أن يكون مناسبًا بصفة عامة لما وضعه بيرس Peirce من نظرية المعرفة epistemology. إنه يخبرنا باختصار أن كل العلامات تحيل إلى علامات أخرى تحيل بدورها إلى علامات ثالثة بلا نهاية. ليست هناك علامات بلا وساطة (Peirce, ١٩٦٠ ،١,٣٣٩). أضف إلى ذلك أن التفكير كله يتم بواسطة العلامات (pierce, ١٩٦٠ ،٥,٢٥٣ ،٦,٣٣٨). والحقيقة أن الأفكار أنفسها من قبيل العلامات، ويؤدي ذلك إذن إلى أن جميع الأفكار تحيل إلى أفكار أخرى. ولذلك لا توجد مجموعات من الأفكار الأولية للرموز البديهية، بل على العكس من ذلك كل المعرفة تشبه العلامات من حيث تأتي معهودة بواسطة معرفة سابقة.

إن من ينشئ العلامات ويفهمها ليس مراقبًا منعزلاً، ولكنه مشارك دائمًا في عالم العلامات. فالفكر علامة، والإنسان هو الفكرة. ويترتب على ذلك أن الناس والكلمات في حال تبادل لمهمة التثقيف. فكل زيادة في المعلومات لدى الناس تعطي وتأخذ من خلال زيادة دلالات الكلمات عطاء مطابقًا (Peirce, ١٩٦٠ ،٥,٣١٣). بهذا المعنى تصبح المعرفة وسيلة لتصحيح ذاتها. فهي تشبه نظامًا سيبرنطيقيًا ذا مردود دائم، ونظام المعلومات عند بيرس يستمر في التغير وفي التحسن. وحين يتغير يقترب من الحقيقة، ولكن

دون الإنسان معرضًا للخطأ لا يسمح باستيعاب الحقيقة (١٨٠,١، ١٩٦٠ Peirce,).

إن النموذج الذى يوضع للنصوص التى يجرى بناؤها هنا طبقًا لنظرية بيرس السيميوطيقية يشمل النظم اللغوية باعتبارها مجموعة فرعية. إنها تستلزم فكرة التفاعل المستمر بين الإنسان والأفكار والعلامات التجريبية التى يستعملها.

١٤ ـ يأتى تنظيم الأجزاء الأربعة لهذه الدراسة على النحو التالى: ينقسم كل فصل منها إلى أقسام، وينقسم كل قسم إلى أجزاء، وكل جزء إلى فروع تتكلم عن طبيعة المادة التالية. وسيكون للفصول والأقسام والأجزاء نظام ترقيمى. فمثلاً سيكون معنى الرقم التالى ٤٢، ٢ أن القارئ قد وصل إلى الجزء الثانى من القسم الرابع للفصل الثانى. أضف إلى ذلك أننى خصصت ورقمت خلال النص مجموعة من التعريفات والمقترحات التى تتصل بالنموذج الذى أتصدى لبنائه. وأرجو أن تتذكر (أيها القارئ) أننى لا أنوى ولا أستطيع فى الحقيقة أن أطمع فى الوقت الحاضر أن أتقن هذه التعريفات والمقترحات بأى معنى مطلق. فهذه التعريفات والمقترحات قصد بها أن تكون نقاطًا للإحالة تدور حولها عباراتى. أما أنت فسوف تكون مسئولاً بقدرتك الخاصة عن اتخاذ قرار نهائى حول درجة صلاحها. وأرجو بهذا التنظيم أن أكون قادرًا على تحويل هذا المدى المختلف من الأفكار التى أحاول جمعها إلى الوضوح النسبى.

مطابع آمون

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلي - القاهرة

تليفون : ٢٧٩٤٤٥١٧ - ٢٧٩٤٤٣٥٦

اجْتِهَادَاتٌ لُغَوِيَّة

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب أفكارًا قلّ أن تشتمل أفكار الآخرين ومن ثم كان " اجتهادات " . أما الأفكار التى تناولها فليست من المعهود وقد جاء تناول بعضها غير مسبوق فى مجال الدراسة . بعض الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب سبق نشره فى المجلات العلمية فى مصر وخارجها ، والبعض الآخر جديد . ولم يسبق نشره .

www.alamalkotob.com